

# مركز جيل البحث العلمي

مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية



مجلة علمية دولية محكمة تصدر شهريا عن مركز جيل البحث العلمي

Lebanon - Tripoli: Branche Abou Samra P.O. Box 8 - jilrc-magazines.com - social@jilrc-magazines.com



العام السادس - العدد 54 - يونيو 2019



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## سرور طالبي / المشرفة العامة

المؤسس ورئيس التحرير: د. جمال بلبكاي

jilrc-magazines.com - social@jilrc-magazines.com

### التعريف بالمجلة:

مجلة علمية دولية محكمة ومفهرسة تصدر شهريا عن مركز جيل البحث العلمي تعنى بالدراسات الإنسانية والاجتماعية، بإشراف هيئة تحرير مشكلة من أساتذة وباحثين وهيئة علمية تتألف من نخبة من الباحثين وهيئة تحكيم تشكل دوريا في كل عدد.

### اهتمامات المجلة وأبعادها:

مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية عبارة عن مجلة متعددة التخصصات، تستهدف نشر المقالات ذات القيمة العلمية العالية في مختلف مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية.

تعرض المجلة جميع مقالاتها للعموم عبر مواقع مركز جيل البحث العلمي، بهدف المساهمة في إثراء موضوعات البحث العلمي.

### مجالات النشر بالمجلة:

تنشر المجلة الأبحاث في المجالات التالية: علم النفس وعلوم التربية والأرطوفونيا، علم الاجتماع، الفلسفة التاريخ، علم المكتبات والتوثيق، علوم الإعلام والاتصال، علم الآثار.

تنشر مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية البحوث العلمية الأصيلة للباحثين في هذه التخصصات كافة مكتوبة باللغة العربية أو الفرنسية أو الإنجليزية.

### هيئة التحرير:

- أ.د. عاصم شحادة علي (الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا)  
د. بغداد باي عبد القادر (المركز الجامعي غليزان، الجزائر)  
د. تيقان بوبكر (رئاسة جامعة التكوين المتواصل، الجزائر)  
د. سامية ابريغم (جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي، الجزائر)  
د. طراد طارق (جامعة خنشلة، الجزائر)  
د. طولال عبد العزيز (جامعة الجلفة، الجزائر)

### رئيس اللجنة العلمية: أ.د. علي صباغ (جامعة قسنطينة 2، الجزائر)

### اللجنة العلمية:

- أ.د. ودان بوغفالة (جامعة مصطفى اسطمبولي، مُعسكر، الجزائر)  
د. أحمد جلول (جامعة حمّة لخضر، الوادي، الجزائر)  
د. بوجليدة حسان (جامعة محمّد بوضياف، المسيلة، الجزائر)  
د. بحري صابر (جامعة سطيف 2، الجزائر)  
د. خويلد محمد الأمين (جامعة الجلفة، الجزائر)  
د. سامية شينار (جامعة باتنة 1، الجزائر)  
د. شلّالي لخضر (المركز الجامعي أفلو، الأغواط، الجزائر)  
د. علّة المختار (جامعة الجلفة، الجزائر)  
د. فكروني زاوي (جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعبّاس، الجزائر)  
د. نجوى نايف عبد النّبي شكوكاني (الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا)  
د. هاني إسماعيل رمضان (جامعة غيرسون، تركيا)

### أعضاء لجنة التحكيم الاستشارية لهذا العدد:

- أ.م.د. جمال الدين محمد مزكي (جامعة المدينة العالمية، ماليزيا)  
د. أسماء سالم علي عربي (الجامعة الأسمرية، ليبيا)  
د. اليسع حسن أحمد (جامعة طرابلس، ليبيا)  
د. أيمن عايد (جامعة المدينة العالمية، ماليزيا)  
د. بن حجّوية حميد (جامعة مستغانم، الجزائر)  
د. سعيد علي (جامعة نغاونديري، الكاميرون)  
د. سيد علي ريان (جامعة سطيف، الجزائر)  
د. مسعودي طاهر (جامعة الجلفة، الجزائر)  
د. نوري محمد أحمد شقلايو (جامعة الزاوية، ليبيا)  
د. يزيد شويعل (جامعة يحي فارس، المدينة، الجزائر)

### التدقيق اللغوي:

- أ.م.د. ميعاد جاسم السراي (الجامعة المستنصرية، العراق).  
د. فطيمة ديلمي (المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ علم الإنسان والتاريخ، الجزائر)  
د. فاتن عدّي (جامعة قسنطينة 1، الجزائر).

# شروط النشر



تقبل المجلة الأبحاث والمقالات التي تلتزم الموضوعية والمنهجية، وتتوافر فيها الأصالة العلمية والدقة والجدية وتحترم قواعد النشر التالية :

- أن يكون البحث المقدم ضمن الموضوعات التي تعنى المجلة بنشرها.
- ألا يكون البحث قد نشر أو قدم للنشر لأي مجلة ، أو مؤتمراً في الوقت نفسه ، ويتحمل الباحث كامل المسؤولية في حال اكتشاف بأن مساهمته منشورة أو معروضة للنشر.
- أن تحتوي الصفحة الأولى من البحث على:
  - عنوان البحث باللغة العربية والإنجليزية.
  - اسم الباحث ودرجته العلمية، والجامعة التي ينتمي إليها، باللغة العربية والإنجليزية.
  - البريد الإلكتروني للباحث.
  - ملخص للدراسة في حدود 150 كلمة وبحجم خط 12، باللغة العربية والإنجليزية.
  - الكلمات المفتاحية بعد الملخص.
- أن تكون البحوث المقدمة بإحدى اللغات التالية: العربية، الفرنسية والإنجليزية
- أن لا يزيد عدد صفحات البحث على (20) صفحة بما في ذلك الأشكال والرسومات والمراجع والجداول والملاحق.
- أن يكون البحث خالياً من الأخطاء اللغوية والنحوية والإملائية.
- أن يلتزم الباحث بالخطوط وأحجامها على النحو الآتي:
  - اللغة العربية: نوع الخط (Traditional Arabic) وحجم الخط (16) في المتن ، وفي الهامش نفس الخط مع حجم (12).
  - اللغة الأجنبية: نوع الخط ( Times New Roman ) وحجم الخط (14) في المتن، وفي الهامش نفس الخط مع حجم (10).
  - تكتب العناوين الرئيسية والفرعية للفقرات بحجم 16 نقطة مثلها مثل النص الرئيسي لكن مع تضخيم الخط.
- أن تكتب الحواشي بشكل نظامي حسب شروط برنامج Microsoft Word في نهاية كل صفحة.
- أن يرفق صاحب البحث تعريفاً مختصراً بنفسه ونشاطه العلمي والثقافي.
- عند إرسال الباحث لمشاركته عبر البريد الإلكتروني، سيستقبل مباشرة رسالة إشعار بذلك .
- تخضع كل الأبحاث المقدمة للمجلة للقراءة والتحكيم من قبل لجنة مختصة ويلقى البحث القبول النهائي بعد أن يجري الباحث التعديلات التي يطلبها المحكمون.
- لا تلتزم المجلة بنشر كل ما يرسل إليها .

ترسل المساهمات بصيغة إلكترونية حصراً على عنوان المجلة:

social@jilrc-magazines.com

## الفهرس

### الصفحة

7

• الافتتاحية

6

9

• الفرادة الإنسانية والتصوّف في الفلسفة الوجودية، فاتن أحمد السكافي/الجامعة اللبنانية /المعهد العالي للدكتوراه، بيروت.

19

• التكوين المهني في الجزائر: الواقع والتحديات، محمد أنور زهراوي - بوشعور رضية /جامعة تلمسان، الجزائر

35

• أهمية تنظيم التوقيت المدرسي في مرحلة التعليم الابتدائي، لويذة معروف خلفان/جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، شفيقة داود/ جامعة جيلالي بونعام، خميس مليانة، الجزائر

51

• واقع الخدمات الصحية في مؤسسات الصحة العمومية وأثرها في تلبية حاجات السكان:دراسة ميدانية في مدينة وهران، الجزائر، بودور زمعلاش واري أحمد - بوراجة أمال/ جامعة وهران 2، الجزائر.

69

• نظرية الحضارة عند اسوالد اشبنجلر- مقارنة تحليلية في دورة الحضارة- بروال جمال/جامعة عنابة ، الجزائر.

87

• ما وراء الحجاب: قراءة في تحولات أنماط التحجب بالمغرب، إلياس بوزغاية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، المغرب.

95

• معيقات النشر العلمي في الوطن العربي، بلالي عبد المالك – أبرادشة مريم جامعة محمد مين دباغين ، سطيف 2، الجزائر.

105

• السببية وسرعة الضوء، محمد تونسي، جامعة عمار ثليجي الأغواط، الجزائر.

121

• السياسة البيئية الحضرية في الجزائر، بودية ليلى، جامعة تلمسان، الجزائر.

129

• الرّوايا المغربية في الفترة المعاصرة وعلاقتها بالدولة: زاوية الطريقة القادرية البودشيشية أنموذجاً، رشيد الاركو، جامعة محمد الأول، وجدة، المغرب.

## الافتتاحية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين:

بعون الله تعالى وسعي دؤوب من أسرة تحرير مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية صدر العدد الرابع والخمسين، وهو كسابقه حافل بشتى المواضيع والمقالات والدراسات القيمة، في حلّة مصفّفة ومنظمة ومضبوطة بقواعد علميّة دقيقة.

لقد احتوى هذا العدد على أبحاث و دراسات متنوعة ومختلفة باختلاف المتوجّهين لها من ناحية التخصص، وهذا كلّه لتحقيق هدف أسمى ألا وهو دفع البحث العلمي نحو تحقيق الجودة العلمية. و رجاؤنا الوحيد من قرائنا أن يزودونا بملاحظاتهم و اقتراحاتهم والتي تنير لنا الطريق و تساعدنا على التطوير.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل،،،

رئيس التحرير / د.جمال بلبكاي

تخلي أسرة تحرير المجلة مسؤوليتها عن أي انتهاك لحقوق الملكية الفكرية

لا تعبر الآراء الواردة في هذا العدد بالضرورة عن رأي إدارة المركز

جميع الحقوق محفوظة لمركز جيل البحث العلمي © 2019

## الفردانية الإنسانية والتصوّف في الفلسفة الوجودية

Human Uniqueness and Mysticism in Existential Philosophy

الباحثة فاتن أحمد السكافي/الجامعة اللبنانية/المعهد العالي للدكتوراه، بيروت، لبنان

ملخص :

هدف البحث الحالي إلى شرح جوهر الفلسفة الوجودية سواء المؤمنة أو المُلحدة عند ثلاثة من كبار الفلاسفة الوجوديين الفدّين : "سورين كيركجورد"، "مارتن هيدغر" و"جان بول سارتر"، من خلال أهم المفاهيم التي تناولها هؤلاء الفلاسفة في علاقتها بالفردانية الإنسانية والتصوّف تلاها خلاصة نقدية.

الكلمات المفتاحية: الفلسفة الوجودية، مفاهيم، الفردانية الإنسانية، التصوّف.

### Abstract:

The present research aims to explain the essence of Existential Philosophy Whether the believer or the atheist by three of leading Existential Philosophers: Soren Kierkegaard, Heidegger and Sartre, with reference to the most important concepts that this philosophy has addressed, in its relation with Human Uniqueness and Mysticism, followed by a critical summary.

**Key words:**Existential Philosophy, concepts, Human Uniqueness, Mysticism.

## مقدمة

إن مذاهب الفلسفة الوجودية تحتوي في طياتها العديد من المفاهيم التي توصلنا لمعاني متعدّدة في الحياة، مثل الله والكون والإنسان والحرية والقيم والاختيار والإرادة وغيرها، وكل فيلسوف يفسّر تلك المفاهيم تبعاً لقناعاته حول هذه المواضيع الهامة أو بمعنى آخر تبعاً لتجربته الخاصة. فالوجودي الملحد والوجودي المؤمن، لدى كل منهما تاريخ شخصي لكي يتبنّى الإلحاد أو الإيمان ولديه قناعاته الخاصة مهما حاول أن يكون موضوعياً. وتعتبر الوجودية المذهب الفلسفي الوحيد بعد سقراط وأفلاطون، الذي نظّم المعاني الوجودية بدءاً من "كيركجورد" الذي جعل الإنسان مسؤولاً عن ذاته وأفعاله واختياراته بالرغم من كونه شقيماً أو سعيداً أو واعياً أو غير واعٍ، وجلّ ما أراده هو تعريف الإنسان على نفسه، بنفسه ولكن من منطلقات دينية؛ ثم بعد ذلك تطوّرت الوجودية من خلال "سارتر" و"هيدغر"، كثورة إنسانية وجودية على الظلم والحروب والاستعباد، وقتل الإنسانية في الإنسان، ومعاملته كسلعة وجعله وسيلة لا غاية في حد ذاته، فالوجودية جعلت من الإنسان غاية الوجود الحيّة التي يجب أن يستخر كل شيء لخدمتها وليس العكس.

ترجع بذور الفلسفة الوجودية أولاً إلى الكاتب الدانماركي "سورين كيركجورد" وكان أكثر ما ميّز مذهبه هو إبراز قيمة الفرد الإنساني؛ ثم تتابع الفلاسفة الوجوديون الذين تعمّقوا في هذه الفلسفة، حتى أنهم اعتبروها كعلاج للعديد من الأمراض التي سموها الأمراض الوجودية كالفرغ الوجودي والجرح الوجودي... الوجوديون انقسموا بين ملحدّين ومتديّنين، ولكنهم اجتمعوا على مبادئ وجودية أساسية تشعر الفرد بقيمة وجوده خاصة من خلال "الفردية الإنسانية، التي تدعو الفرد للتخلّص من الماضي والتحرّر من كل القيود؛ دينية كانت أم اجتماعية. أثبتت الوجودية قدرتها على إخراج الإنسان من الميكانيكية إلى المعرفة الإنسانية التي يجب أن تحترم "الفردية" فردية الإنسان وفردية الشيء. فما يمرّ به العالم من صراعات وتسلّط ومعارك وثورات يُشعر الإنسان بالعجز والكآبة والقلق، ما يزيد الحمل عليه في هذا العصر المليء بالكوارث البشرية، وقدّمت الوجودية الحلّ بالعودة للـ"فردية" الإنسانية.

الفلسفة الوجودية اتفقت على المبادئ ولكنها اختلفت في التفاصيل، هي فلسفة ذاتية، الإنسان فيها له وجوده الخاص به ومعاناته الخاصة وهو ويرتبط بالزمان والمكان والظروف الحالية، فالإنسان صاحب تجربته الحيّة. كما أنّ الوجودية انتقدت العلم واتجاهاتها لاعقلية وصوفية إلى حدّ ما وانعزلت عن العالم والتاريخ مما لا يصفها بصفة الفلسفة المنظّمة الإيجابية، فهي في خليط متناقض خاصة في مواقفها من العالم الطبيعي ومن الإنسان بكونه كائناً اجتماعياً، وقد انبثقت الوجودية من زمن كان الإنسان فيه يشعر باليأس والقلق وفي حاجة لتبرير هذه المشاعر وتجاوزها بطريقة ما.<sup>1</sup>

نتناول في البحث الحالي أهم المبادئ والمفاهيم التي تناولتها الفلسفة الوجودية سواء المؤمنة أو الملحدة من خلال عرض مختصر لأراء ثلاثة من الفلاسفة الوجوديين الكبار هم: "كيركجورد"، "هيدغر" و"سارتر"، وكذلك علاقة هذه المفاهيم الفلسفة الوجودية بمفهوم الفردية الإنسانية والتصوّف، يتبعها خلاصة نقدية.

## الفردية الإنسانية والتصوّف في الفلسفة الوجودية

جعل "سورين كيركجورد" -أبو الوجودية- من الإيمان والمخاطرة التي يتطلّبها الإيمان - نموذجاً للتمسك الصادق والالتزام الحقيقي. والإيمان في نظره هو الحقيقة في أعلى صورها، لا لأنها حقيقة الله وليست حقيقة الإنسان، ولكن أيضاً لأنها تقتضي أعلى درجات الذاتية. فاليقين إذاً يبلغ ذروته في العجز عن الإثبات، بل إن ما يوجّه الإرادة هو اتفاق الحقيقة مع أعمق مطالب

<sup>1</sup> تيتلتش، بول (1981). الشجاعة من أجل الوجود. ترجمة: كامل يوسف حسين. (ط1). بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع 53.

الشخص، مع هذه الحقيقة الأخلاقية التي هي بالنسبة للفرد، الفرد الذي يكونه والذي يريد أن يكونه. إن اليقين لا يمكن أن يُستمد إلا من معاناة الحياة والعمل، لأن الذي يصدّق بالحقيقة ويقبلها ليس هو العقل الخالص بل الإنسان الموجود نفسه حيث هو موجود. فخاصية الوجود هي الاختيار، إن الوجود هو أن يختار الإنسان ذاته، إذ أن الواقع هو أن الإنسان لا يختار إلا نفسه، فكل اختيار "خارجي" إنما يكون مرتبطاً باختيار داخلي، بنسبة شيء أتبعه فأحقق ذاتي. إن ما هو مُعطى لي، ليس بـ"أنا" جاهزة قط، هي ليست ماهية أُخرجها من حيز الإمكان، إلى حيز الفعل، وإنما مجرد إمكانية. الوجود يسبق الماهية، فأنا- على نحو ما- الصانع لماهيتي الخاصة، وأنا إنما أكون موجوداً بالقدر الذي أحقق فيه هذه الماهية. وهذا يتم في المخاطرة عن طريق الاختيار، وهذا الاختيار هو مَرّ وقسري في الوقت نفسه. فالاختيار عند "كيركجورد" معناه أن "الأنا" لا بد لها أن تختار بصورة مطلقة، وأن تختار ذاتها طبعاً لما فيها من اللاتناهي والخلود، أي أنه ليس هناك من وجود حقيقي إلا أمام الله.<sup>1</sup>

يقول "هيدغر" في كتابه الوجود والزمان (1972) أن الوجود- في العالم، هو التحدي الأساسي للأنية وهو التحديد الذي يخطر ببالنا في المحلّ الأول حين نوجه انتباهنا صوب كينونة الوجود كما تتمثل لنا في هذه الحالة أو تلك من حالاتها، وبالتالي في استواء أمرها بالنسبة إلى هذه الحالات. ومن الممكن أن ننظر في ظاهرة الوجود- في العالم، متناولها من كليتها العينية، من ثلاثة جوانب: العالم، "وجود" الموجود، "والوجود-في".<sup>2</sup>

حين يتحدث "كيركجورد" عن الإنسان الفرد والذات؛ فهو لا يعتبرهما محض فكرة مجردة، بل فعلاً وجودياً في الحياة. فالإنسان؛ وببساطة لا يمكن أن يكون ذاتاً بنفسه. إذ أنّ هذه الذات تضم في طبيعتها عناصر متناقضة، ولهذا فإن الإنسان ليس حالة منفردة، أو يتجلّى في سلوك واحد، بل إنّه وحدة متناقضات بين النهائي واللاتناهي، بين الزمني المؤقت والخالد، بين الضرورة والحرية. وهنا كعنصر شدّ داخلي بين هذه العناصر، أي أن الإنسان لا يمكنه أن يختار بنفسه هذا العنصر ثم يتخلى عن الآخر، رغم أنه يسعى إلى ذلك، أي أنه في الواقع يسعى لكي يتجنّب أحد طرفي المعادلة، إلا أن العنصر أو الطرف الآخر في المعادلة سيظهر منتقماً لنفسه؛ إذ سيكشف عن نفسه بصورة أو بأخرى في سياق حياة الإنسان. ولهذا فإن هذه المعادلة، التي تشكل الذات بعناصرها المتناقضة، ستواصل وجودها. ولو تصورنا أن الإنسان يتغافل عن الخالد والأبدي، وينشغل بما هو زمني ومؤقت فقط، فإن الخالد والأبدي سيفرض مع ذلك نفسه عليه، وذلك لأن الإنسان مضطر لأن يكون له موقف من الأبدي وباختصار فإنه في حالة شد وتوتر دائمة بين الخير والشر، بين الحب والكراهية، بين الإيمان والكفر.<sup>3</sup>

اعتبر "هيدغر" أن الوجود الإنساني هو وحده المسؤول الأول والأخير عن جعل وجوده أصيلاً أو غير أصيل، ورفض كل محاولة لتأصيل الوجود الإنساني تأتي من الخارج، فإنه أي الإنسان يتعرّف على العالم وسائر الموجودات عبر استخدامه واستعماله لها، وجعلها موضوعاً لاهتمامه، لا بوصفه ذاتاً تتعرّف على الموضوع، كما أوضح مسؤوليّة الإنسان عن ضياع وجوده الأصيل بانغماسه في أنماط الحياة، الاستهلاكية، وأوضح أيضاً أن الوجود الإنساني يتمتّع بالأولوية المطلقة على الوجود.<sup>4</sup>

يرى "كيركجورد" أن الشيء الذي يمكنه أن يحزّر الفرد، وأن يشكل دعامة وقاعدة لحياته هو التأمل في حقيقة الله. إذ يقول: "إن الذي يفتقر إلى وجود الله في هذا العالم، سرعان ما يستولي عليه السأم من ذاته ونفسه، وقد أفاد هذا المعنى من خلال التعبير القائل السأم من جميع أبعاد الحياة." وأما في الرؤية الدينية فمن خلال التدبّر في الموت تفقد جميع المشاكل الدنيوية والمادية أهميتها، وبذلك يشعر المرء بأنه في حضرة الله، وبذلك فإن الفرد الذي يجد نفسه تابعاً لإرادة الله، سوف

<sup>1</sup> ريجيس، جوليفيه (1988). المذاهب الوجودية. ترجمة: فؤاد كامل. بيروت: دار الآداب. 40-38.

<sup>2</sup> ريجيس، مرجع سابق: 68.

<sup>3</sup> Olsen, Jakob V. (2008): Kierkegaard, kærlighed og kristendom, Credo, p.91-92.

<sup>4</sup> هيدغر، مارتن (2009). الوجود والموجود. ترجمة: جمال محمد أحمد سليمان. بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، 189.

تكتسب حياته بسبب حضور الله أهمية غير محدودة إن مثل هذا التأمل يجعل لحياته مضموناً، وإن هذا المضمون بالالتفات إلى أنه ناظر إلى هدف متعال وهو الله يتمتع بوحدة أيضاً<sup>1</sup>.

تتلاقى الصوفية والمذاهب الوجودية، خاصة عند "كيركجورد" و "هيدغر" حيث يلاحظ بينهما صلات عميقة في المبدأ والمنهج والغاية. ففي المبدأ كلاهما يبدآن من الوجود الذاتي، ويقيمان من أحواله مقولات عامة للوجود، وهما بالتالي يجعلان الوجود سابقاً عن الماهية، ضد كل فلسفة تصورية. فالأحوال عند الصوفي هي بمثابة الصفات والكيفيات عند الفيلسوف الطبيعي، لأنه يعترف بوجود حقيقي غير الوجود الذاتي، أو هو على الأقل يضع ترتيباً تصاعدياً فيجعل الوجود الذاتي فوق الوجود الفيزيائي. فمفهوم النزعة الصوفية ليس مجرد تحليلات نفسية شخصية لأحوال فردية تؤخذ على هذا الأساس النفسي الفردي، بل هي في جوهرها تحليلاً للوجود الذاتي بوصفه الوجود الحقيقي؛ كما تقول النزعة الوجودية تماماً. فالنزعة الصوفية تقوم على مبدأ الذاتية، بمعنى أنها لا تعترف بوجود حقيقي إلا للذات: "الذات المفردة". ولهذا لم يكن للوجود الخارجي عندها إلا مرتبة ثانوية: أي أنه لا يوجد إلا بوجود "الذات العارفة". ولهذا كانت مراتب السالكين في طريق الصوفية تسير جنباً إلى جنب مع مراتب الوجود، وسيرها هذا إنما يقصد به إحلال الوجود الذاتي شيئاً فشيئاً مكان الوجود الفيزيائي أو الخارجي. أي من خلال تجريد الذات من عالم الكون والفساد، وتستمر هذه العملية حتى يزول السؤى كله، فلا يبقى غير الذات وحدها مع مسؤوليتها الهائلة. وهذا هو المقصود بفكرة "الإنسان الكامل"، أي أن الوجود الأكمل هو الوجود الإنساني، لأننا ما دمنا في هذا نقول بوحدة الوجود. وهذه الفكرة تناظر الإنسان الكامل في الوجودية فكرة "الأوحد"، خصوصاً عند "كيركجورد": "أمام الله لن تكون إلا أمام نفسك... وحيداً مع ذاتك أمام الله". وهذه الفكرة كذلك أي الإنسان الكامل تجمع بين الصوفية والوجودية من حيث النزعة الإنسانية، لأن فيها تأليه الإنسان. والوجودية تضع الإنسان مكان الوجود المطلق حيث يقول "سارتر": "ليس ثمة كون غير الكون الإنساني، كون الذاتية الإنسانية"<sup>2</sup>.

كما يقول "هيدغر" أنه لا وجود مطلقاً لذات بلا عالم، لا توجد ذات منعزلة. يمكن أن تدرك دون "الأنا" الأخرى. من صميم الأنا إذن أن تكون وجوداً مع، وهذا الوجود في علاقة ب"أنيات" أخرى، هي التي تؤلف "عالمي" المحيط بي، من حيث أنها مندمجة في هذا العالم، ومقتربة مني نتيجة لاهتمامي بها، والتي أحملها معي، إن صحّ التعبير، كما تحمل الأرض الغلاف الجوي المحيط بها في المكان. إنني أقتسم العالم مع الآخرين، لا بمعنى أن الآخرين هم بقية الناس الذين يوجدون خارجي أنا، ولكن بمعنى أن الواحد يتميز عن الآخرين الذين يوجد بينهم أيضاً. وهكذا يكون الوجود في العالم بمثابة عالم مشترك. ويكون الوجود بالنسبة لي هو أن أوجد وجوداً مشتركاً. أي التمييز بين حالتين رئيسيتين وهي الانتباه إلى العالم المحيط بنا، وأن الآخرين هم بقية الناس الذين يوجدون خارجي أنا، بمعنى أن الواحد يتميز عن الآخرين ولكن يوجد بينهم أيضاً. ويضيف "هيدغر" أنه لا ينبغي أن نفهم الناس، على أنهم شيء شبيه بذات جمعية، تبسط جناحها على جمهرة الناس، والواقع أن مفهوم الناس تركيب وجودي ينتسب على أساس ظاهرة أصيلة، إلى المفهوم الإيجابي للأنية. إنهم كائن حقيقي هو "الأنا - الناس"، كائن غارق في الوجود بالاشتراك، مع احتفاظ الأنا بواقعها التام الذي يتألف من هذا الأعواز لعنصر الشخصية في ال" في": "أني موجود، ولكنني لم أعد ذاتي بمعنى ذاتي، وإنما الآخرون على صورة الناس"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup>Kierkegaard, Soren (1993). *Three Discourses on Imagined Occasions*, ed&trans. Howard V. Hong and Edna H. Hong, USA: Princeton University Press, 82-85.

<sup>2</sup>بدوي، عبد الرحمن (1982). *الإنسانية والوجودية في الفكر العربي*. الكويت: وكالة المطبوعات، 71-81.

<sup>3</sup>ريجيس، مرجع سابق: 75.

أما "سارتر" في كتابه الوجود والعدم، فيشير إلى أنّ الوجود لذاته يفقد نفسه في الخارج، نحو الوجود-في-ذاته، حين يسعى عبثاً للتطابق معه، إن الوجود في ذاته هو بمقتضى تركيبه متخارج أي أنه يجب أن يبحث عن وجوده في شيء آخر، سواء في العاكس إن كان انعكاساً، أو نفس الشيء الذي يعكسه، إذا كان هو عاكساً. وهنا يبدو التأمل من وجهة النظر هذه محاولة ثانية من الوجود لذاته لكي يسترد وجوده، أو لكي يدخل في باطن ذاته، ويؤسس نفسه بأن يكون بالنسبة إلى نفسه ما هو عليه: ذلك أن الوجود لذاته يحاول تحقيق هذا الشيء المستحيل وهو أن يجعل من الوجود الذي يفلت من بين أصابعه، والذي هو وجوده، نوعاً من "المعطى" الذي "يجب أن يكون ما هو عليه"، في نهاية الأمر، أي أن يكون كلاً مسترداً من التشتت الخارج عن الحالة الإستاتيكية: هذا هو أساس التفكير في الذات: هو يتألف من محاولة مزدوجة عنصرها معاً وفي وقت واحد وهما جعل الشعور موضوعاً والدخول في باطن الذات. والفشل هنا أمر لا مفر منه، وهو هذا التفكير في الذات، لأن محاولة الوجود لذاته لاسترداد نفسه بالعودة إلى ذاته لا تؤدي إلا إلى ظهور الوجود لذاته. فالتفكير في الذات يبين لنا على هذا النحو أن "الوجود لذاته يريد أن يؤسس نفسه في الوجود، ليس هو نفسه غير أساس لعدمه الخاص". وهو في الوقت نفسه وجود شكليين للزمانية "الأصلية" وهي التي تبين تركيب الوجود لذاته من حيث هو تزمّن أو تاريخية- والزمانية "النفسية" التي هي سلسلة واقعية من الوحدات أو الوقائع النفسية التي تتعاقب كما تتعاقب الأشياء. يريد "سارتر" هنا أن يميز بين التأملية الخالصة "الأنتولوجية" -إن صح التعبير- والتأمل المشوب الذي يكون "النفس" أي سلسلة الوقائع النفسية المترابطة: "الأنا" وحالاتها، وأفعالها، وفي الوقت نفسه مجموعة من الموضوعات الزمنية.<sup>1</sup> ف"سارتر" يشير إلى الحياة اليومية في التأمل المشوب، يشمل التأمل في ذاته، ذلك التأمل الخالص، وأن التأمل "النفسي، يشمل على الحاضر والماضي، ويحدّد المستقبل. ويعتبر أن الطبيعة الإنسانية توجد عند جميع البشر و بأن الإنسان يوجد أولاً، ثم يكون ماهيته بعد ذلك ويبنى مشروعه الحرّ الذي يكون وجوده؛ وبذلك فهو الذي يختار ماهيته. "سارتر" يؤكد أن الإنسان حرّ وحرّيته من نفسه ليست من خارجه، فالإنسان يخلق أفعاله، فالأحداث الكونية أنت تخلقها أو تختارها، فالحرية مطلقة.<sup>2</sup>

والفكرة الرئيسية التي تقوم عليها الوجودية، أي أن الوجود أسبق من الماهية، وأكبر منها حقيقة، نجد لها تعبيراً عند الصوفية، خصوصاً تلك التي عنيت ببيان الوجود المطلق والوجود العقلي للصورة في معارضتها للزعة المشائية. فالموجودات الخارجية عند التحقيق شيء واحد هو مطلق الوجود، والماهيات تعيّنات له، يختلف بها (أي الوجود المطلق) عند العقل وحوادث خاصة هي العيان الخارجة. فالوجود يسبق الماهية والوجود حقيقي، بينما الماهية مجرد اعتبار عقلي. والوجود الماهوي- وإن كان الإشراقيون أو بعضهم يميلون للقول أنه الله؛ فإن من المهم هنا أن نقرّر بأن استخدام لفظ "الأنية" المستخدم من قبل الوجوديين إنما هو يرجع للصوفية وحدهم، وهو عند الفلاسفة بمعنى الوجود دون تحديد، كما هو الأصل في معناه اليوناني. ولهذا دلالته الخاصة على تنبّه الصوفية إلى إيجاد هذه التفرقة بين الأنية والوجود المطلق، ثم بين الأنية وبين "الرتبة الذاتية" أي الوجود الماهوي عند "هيدغر". وإن للصوفية أيضاً تعبيراً آخر عن هذا الوجود الماهوي هو: "العيان الثابتة"، فهم يعرفونها بأنها "هي حقائق الممكنات في علم الحق تعالى". ومن الواضح أن تسميتها "بالأعيان إنما قصد بها تأكيد إضافة الوجود الحقيقي إليها، فهي ليست مجرد معقولات في عقل الله بل لها كيانها ووجودها الثابت. ونحن إن جردنا هذا التعريف من مضمونه الديني- ويحق لنا ذلك لأن من الممكن دائماً في التصوّف تحليل الاعتبارات الدينية إلى اعتبارات إنسانية خالصة- وصلنا إلى تعريف للوجود الماهوي عند "هيدغر" في صورة أولية ولكنها مع ذلك واضحة جداً. كما يلاحظ من خلال كلمة "أنية" بالمعنى الصوفي،

<sup>1</sup> سارتر، جان بول (1956). الوجودية فلسفة إنسانية من كتاب "الوجودية من ديستوفسكي حتى سارتر". قام بنشره فالتر كاوفمان (Cleveland, 1956, 153).

<sup>2</sup> تيتلتش، مرجع سابق، 53.

يقترّب منها اصطلاح صوفي آخر هو "مرآة الوجود". ولما كان الانتقال من الوجود الماهوي إلى الأنية في المذهب الوجودي عند "هيدغر" خصوصاً وعند الصوفية، إنما يتم بنفوذ العدم في الوجود الماهوي، لقد كان من الطبيعي أن تحتل فكرة العدم مكان الصدارة في كل بحث عن طبيعة الوجود عند الوجوديين. وهذا الموضوع يثير أسباباً للجدال من حيث الصلة بين الوجود المطلق والعدم لن ندخل فيه.<sup>1</sup>

والوجود تبعاً لـ "كيركجورد" معناه أن نعاني اليأس والقلق حتماً، وكل هذا وذلك الأمر مرتبط بالواقع وبإمكان الخطأ. على أنه بحكم أن الفرد يجد أنه مضطر إلى أن يختار وأنه لكي يختار لا بد له أن يخاطر، ولما كان الأمر كذلك فلا بد للفرد أن يعاني من اليأس. ومن المُحال أن نفلت من اليأس وهكذا ينتزع اليأس من الإنسان من نفسه باعتباره متناهيًا، ويعيده إلى ذاته حيث ما هو أبدى في تلك الذات. أما القلق فهو يسبق الخطيئة ويقترن بها بالإمكان والحريّة، وهو يعطي الوجود ما يميّزه، بل هو يكشف للموجود عن وجوده، والقلق يضع الإنسان أمام نفسه وجهاً لوجه باعتباره لم يوجد بعد، وإنما سيوجد بواسطة الجريّة، وهو الروح بمعنى ما، ما دام هو الحريّة. إنه يُنبئ بالكمال كما يُنبئ اليأس بالتحزّر. هو اشتهاً لما نخافه وخوف مما نشتهيّه.<sup>2</sup>

ويربط "كيركجورد" القلق بتكوين الإنسان الخاص بوصفه: جسداً ونفساً وتجمعهما الروح. فطريقة تكوين الإنسان ذاتها تجعله معرضاً للتوتر وهذا التوتر هو القلق ومهمة الإنسان هي إنجاز مركب الجسد والنفوس. وهي مهمة مشحونة بالقلق منذ بدايتها وإذن فالقلق خاصيّة تتسم بها الظاهرة البشرية فالحيوان لا يعرف شيئاً عن القلق لأن حياته جسدية خالصة! كذلك لا يعرف الملاك شيئاً عن القلق لأن حياته عقلية خالصة. أما الإنسان الذي يجمع بين الحس والعقل بين الجسد والنفوس فهو يعيش في ظل القلق.<sup>3</sup>

أما مفهوم "القلق Anxiety" -وهي الكلمة التي استخدمت في الترجمة الإنجليزية لكتاب "هيدغر" والتي ينبغي علينا أن نعترف أنها لم تكن ترجمة مقنعة-، فهي توحى بألوان القلق في الحياة اليومية وهي تعبّر عن ذلك الانفعال النادر والدقيق الذي أراد الوجوديون أن يثيروا إليه بهذه الكلمة. وعلى الرغم من استخدام كلمة واحدة هي القلق لتشير إلى ظاهرة يناقشها فلاسفة وجوديون مختلفون، فينبغي أن يكون واضحاً أن الكلمة لاتعني بدقة معنى واحداً عند كل كاتب يستخدمها. فكل من "كيركجورد"، و"هيدغر"، و"سارتر"، يفهم القلق على نحو مختلف بعض الشيء. ومع ذلك فهناك تقارب وثيق بينهم وقد اعترف الأخيران صراحة بأن الفكرة مستمدة من "كيركجورد"؛ حيث يقول "هيدغر": "إن من سار إلى أبعد مدى في تحليل مفهوم القلق هو "سورين كيركجورد". ويقابل "سارتر" بأوصاف القلق عند "كيركجورد" و"هيدغر"، ثم يقول: "أنها لا تبدو لنا متناقضة بل على العكس فكل وصف منها يتضمن الآخر... يتفق هؤلاء الفلاسفة جميعاً على أن القلق يكشف بطريقة خاصة عن الوضع الإنساني فهو عند "هيدغر"، الطريقة الأساسية التي يجد بها الفرد نفسه، ولاشك أن النظر إلى القلق على أنه مفتاح أساسي لفهم الوجود البشري ينطوي ضمناً على تلك الرؤية الوجودية والفينومينولوجية للوجدان.<sup>4</sup>

وفي أغلب الأحيان تبعاً لـ "هيدغر" يكون كل ما فينا مرتباً بحيث يخفي عن أنفسنا ما نحن عليه أساساً، ولا يظهر الشعور الأصلي في صورة الانتباه إلى أننا قُذِف بنا هناك، بل في صورة النفور من الوجود أو الانجذاب إليه. يتابع "هيدغر" في كتابه الوجود والزمان<sup>5</sup> بأن "الشعور الأساسي بأن الإنسان مرمي- هناك، أو الشعور بالقطيعة، أو بالنبذ. وهذا الشعور يرجع إلى

<sup>1</sup> بدوي، مرجع سابق، 71-81

<sup>2</sup> ريجيس، مرجع سابق، 44.

<sup>3</sup> ماكوري، جون (1982). الوجودية. ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام. عالم المعرفة. 183-182-185.

<sup>4</sup> ماكوري، مرجع سابق: 183-182-185.

<sup>5</sup> هيدغر في كتابه الوجود والزمان، 134-135.

تركيب الوجود نفسه، ولا ينشأ عن مجرد أمر عارض في طريقة الوصول للعالم بل ينشأ عن الوجود نفسه في عالمه الأنطولوجي (الوجودي العام). "فأنا- في الواقع- قد رُمي بي في هذا العالم دون اختيار من جانبي، بحيث أن الشعور بالقطيعة والعزلة تلتصق بوجودي بوصفة أعمق تعبير عن طبيعته، كما أنه يصاحبه دائماً. وهذا أشعر بأن الوجود لا يمكن أن يكون بالنسبة لي إلا ثمرة انتصار في معركة لا تنتهي. والواقع أن الأنية تظهر دائماً على أنها قدرة-على الوجود- وهي لا تكون أبداً شيئاً مغلقاً أو محصوراً في حدود. فهي عبارة عما تستطيع أن تكونه ، وهي توجد وفقاً لكيفية إمكاناتها.<sup>1</sup>

ولنعد إلى فكرة العدم في المذهب الوجودي عند "هيدغر فيقول: "إن الذي يكشف عن العدم في مذهبه هو الحالة العاطفية المعروفة بالقلق، إذ في هذه الحال نشعر بأننا معلقون، يحملنا القلق ، مشعراً إيانا بفرار الموجود بأسره وانزلاقه، الموجود الذي نحن من بينه، ولا وجود في هذا الانزلاق الشامل إلا للذات المحققة لحضورها في القلق، وإن كان حضوراً معلقاً في الهواء، وإذا بنا فريسة للعدم، فيرتج علينا القول لأن كل قول يؤذن بوجود، والموجود قد انزلق في هذا البحران".

وقد وُجِدَت تعاريف "للقلق" عند الصوفية تشبه تعاريف "هيدغر" ، وهي كانت نقطة البدء لاكتشاف أوجه التلاقي بين الصوفية والمذهب الوجودي ، سنذكر أحدها وهو للشيخ "أحمد ضياء الدين الكمشخاني النقشبندي": "القلق: وهو هنا تحريك الشوق صاحبه، بإسقاط صبره، وصورته في البدايات: تحريك النفس إلى طلب الموعود، والسامة عمّا سواه في الوجود، وفي الأبواب: قلق يضيّق الخلق فيبغض إلى صاحبه الحياة، ويحبب إليه الموت. وفي المعاملات: توحّش عمّا سوى الحق، أنس بالوحدة والتخلّي عن الخلق، وفي الأخلاق: الانخلاع عن الصبر والطاقة، لما يجد من التوقان للحق ولقائه... "ف"هيدغر" قد ربط بين الزمان والمكان عبر فكرة القلق، وينظر إلى الزمان على أنه نسيج الوجود. وأن الوجود بطبعه متزمّن بالزمان في كل أحواله، والحق أن الزمان عند الصوفية يغلب عليه أن يكون الزمان الوجودي وحده، لأنه تعبير عن حالات وجودية يكون هو لحمه لها. إن لفكر "كيركجورد" تأثير روحي ولكنه مستوحى من داخل العالم المسيحي الأوروبي ، والمهم هنا أن "كيركجورد" يبدأ من نفس الأسس التي يبدأ منها المتصوفة خاصة المسلمين، أي التاريخ الديني، ونقل حواصله إلى تجارب وجودية، بحيث تلعب القصص الدينية في تكوين المذهب الوجودي نفس الدور الذي تلعبه الأساطير الأفلاطونية في تكوين فلسفة أفلاطون.<sup>2</sup>

"سارتر وهيدغر" أخضعوا الوجودية إلى منهج فلسفي هو المنهج الفينومينولوجي أو الظاهرية التي ابتكرها الفيلسوف الألماني "أدموند هوسرل"<sup>3</sup> إضافة إلى استفادتهم -أي الوجوديون- من نتائج وقوانين مدرسة علم نفس الشكل "الغشتلطي"<sup>4</sup>. وهذه المنهجية عموماً ترتكز على ثلاث مراحل أساسية، الأولى: هي تعليق الحكماء والقصر أو الإرجاع الفينومينولوجياً إضعاف المسلمات وإيقاف حكم العقل وعزل التأثيرات الخارجية بما ذلك الله والعقل والمحيط ووضعها موضع شك أي بين قوسين بتعبير "هوسرل" (bracketin) وهي المرحلة التي تلائم كثيراً النتائج الوجودية من حيث التأسيس لنفي الماهية المسبقة ومن ثم ظهور الحرية المطلقة التي تفرض على الإنسان خلق ماهيته ومعانيه الخاصة... فالمرحلة الأولى إذن هي مرحلة تحررية إعدادية للمرحلة الثانية، مرحلة شعور الذات بما وضع بين قوسين أي الشعور بجميع الأحكام الممكنة والمختلفة دون أن ترتبط الذات بتلك الموضوعات وهي مرحلة إعدادية أيضاً ولكن للمرحلة الأخطر مرحلة إرتباط الذات بحكم من تلك الأحكام المختلفة عن

<sup>1</sup>"هيدغر" ، نفس المرجع، 76-77.

<sup>2</sup>بدوي، مرجع سابق، 88-105.

<sup>3</sup>الظاهراتية تعبر عن: "نضال هوسرل ضد التيارات الوضعية والمدارس الطبيعية التي تسلّلت منهاجها إلى علم النفس في أوروبا وأمريكا الشمالية ومحاولته عدم الوقوع في الميتافيزيقا التقليدية، متخذاً بمنهجيته تلك موقفاً وسطاً بين المذاهب الذاتية والمذاهب الموضوعية..."

<sup>4</sup>الغشتلطي مدرسة فينومينولوجية بدورها وسليمة الهوسرلية التي استقى منها الوجوديون ومن ورائهم البنيويون مفهوم للوعي القصدي ومنهجيتهم في الإدراك وخصوصاً آلية الحدس الغشتلطي.

طريق الحدس الغشطلطي. وميزة هذا الحدس أنه لا يتعرض للخطأ من حيث أن الذات قد تحرّرت من سبب الخطأ حين تحرّرت من الإرتباطات والأحكام ووضعتها بين قوسين. وهو حدس يقترب نوعاً ما من الكشف الصوفي حيث يقوم الحدس بتحليل الظواهر تحليلياً وصفيّاً فطريّاً ومن ثم الإرتباط بموضوع من موضوعات تلك الظواهر أو حكم من الأحكام ، وهو اختيار حتماً صائب أي بعكس التحليل العلمي أو الإستدلال العقلي! فكل شيء ظاهر أمام هذا الحدس ولا وجود لما هو باطني أو مخفي، فالغضب، الحقد، الخجل، المحبة، ليست هي حوادث نفسية مختبئة في وعي الآخر إنما على وجهه في حركاته وليست وراءها.. وأحكام مثل نافع، ضار، سيء، رديء يجب وصفها بالحدس وصفاً أميناً ساذجاً، كما يبدو للوعي أي يدرك بالقوى الوجدانية لا بالقوى المعرفية تماماً كما ندرك لون الزهرة أو رائحتها. لهذا فإن مفردات مثل تيار الوعي، حقل الوعي، هي مفردات مرفوضة في الفينومينولوجيا لأن جميعها تفترض وجود شيء خفي حاوٍ للموجودات كما يعني أيضاً وجود الفكر المحض والذي هو بدوره مرفوض بحكم أن الفكر هو دائماً فكر بشيء ما، وإدراك هذا الفكر يكون بحدس عفوي وساذج. فهي باختصار سيكولوجيا وصفية حدسية ليست تحليلية ولا تفسيرية.<sup>21</sup>

#### خلاصة نقدية :

ظهرت الوجودية كرد فعل على التيارات التي تعترف بأسبقية الخطئية على وجود الإنسان ، فأكدت بأن قيمة الإنسان من حيث هو فرد تعود إلى "حريته". وبدأت سلطة العقل تسقط، تزامنا مع ظهور المدرسة الظاهرانية في علم النفس وبدأ الإحساس باللامعقول والعبث وانتفاء المعنى وظهر الفكر الأكثر سوداوية وتشاؤمية في تاريخ الفلسفة برمتها، والذي يُعتبر بحق انعكاس للواقع المعاش حينها لتزامنها مع الحروب وتفاقم الخوف والقلق والإحباط. فالوجود هو كالغرفة المظلمة بتعبير "بول تيليتش"، فالعالم المظلم بويلاته وحروبه وظلمه خاصة للفردية الخاصة بكل فرد، وللكرامة الإنسانية ، وسيطرة الدين والتاريخ والمجتمع والحضارات والقيم المجتمعية المتوارثة، تلك الذات التي انتهكت قد أن الأوان لكي يكون لها فلسفة خاصة بها وحدها هي "فلسفة الذات"، التي ترفض الماضي وترفض التقليد، وترفض المجتمع، وهذا يُلاحظ أكثر عند "سارتر"، أما في خلفية "هيدغر" يقبع الطابع الصوفي الذي لا يهتم له "سارتر".

إنّ جدليّات الفلسفة الوجودية خاصة عند "هيدغر" و"سارتر" ، ربما تبتعد عن العقلانية والتنظيم والموضوعية، فمعرفة الذات في معناها الخاص تفترض المعرفة الواضحة الجليّة وفي نفس الوقت الواقعية، وهو ما يجعل الفرد أحياناً يتيه مع فلسفتهم ويشعر بأنّه يعود بالزمن إلى ذلك الوقت الذي كان مشتعلاً بالحروب والمآسي والسوداوية والتشاؤم واليأس والقتل والدماء والتعذيب والمعتقلات والاستعباد، حيث كان الفرد يعيش في ذلك الجو المشحون بالقلق والخوف والمعاناة والآلام. لكن هل يكفي أن نعيش فرديتنا الذاتية؟ أم يتطلب ذلك أن نعكس ذلك الداخل على كل ما حولنا ومن حولنا! فالفردية التي يجدر بنا الوصول إليها ، يجب أن تكون بمثابة الطريق الذي ينيّر لنا سُبُل التعامل القويم مع الآخرين من حولنا. فالآخر مثلي هو الحقيقة الوجودية الأخرى، فهل أتعامل معه كما تعاملت مع نفسي ، بفردانية خاصة به؛ كيف يكون ذلك؟ هل يكون بالنظر إليه كذات أخرى حرّة فردية، لها تجربتها الذاتية التي أتقبلها ولا أتجاوزها ، بمعنى أن لا تتعارض حريّتي مع حرّية هذا الآخر.

نجد في الوجودية مبالغات مُسرفة في بعض المفاهيم، فالدعوة الوجودية إلى المشاركة الوجدانية والعاطفية للألم قد تؤدي في بعض الأحيان للقنوط والإحباط، فهم يضعون الانفعال والحماسة فوق العقل أحياناً مما يُشعر الفرد بالخوف والفوضى والقلق. تؤكّد الوجودية بشكل خاص على مفهوم القلق، فالكل عانى ويعاني من القلق وهو الدافع الحقيقي للبحث عن كل ما

<sup>1</sup> زيناتي، جورج (1993). رحلات داخل الفلسفة الغربية. لبنان: دار المنتخب العربي، 100-101.

<sup>2</sup> شامبوردون، بورديو، باسرون (1933). حرفة عالم الاجتماع. ترجمة: نظير جاهل. بيروت: دار الحقيقة للطباعة والنشر، 176.

يجعل الفرد يتجَنَّب هذا القلق، أو يسيطر عليه رغم كل المصاعب التي تواجهه، فالإنسان تبعاً للوجوديين قد أُلقي في هذا العالم في ظلّ كل المخاطر التي قد تؤدي به إلى الفناء، وهو يعاني من القلق والألم واليأس بسبب كل ذلك وما عليه القيام به هو الاختيار. وهم يعتبرون أنّ الإيمان المطلق هو للوجود الإنساني والحرية للإنسان في أن يفعل ما يريد؛ فالوجودية تؤمن بالإنسان قبل كل شيء وهذه هي الفردية المطلقة.

إن صرخة الوجودية هي صرخة كل إنسان يبحث عن ذاته، كل إنسان يرغب بالتحرّر من القيود، قيود الأسرة، المجتمع، الدين، الطبقة، السياسة، قيود الحياة كلّها... الفرد من المنطلق الوجودي هو أكبر من المجتمع، ومن الدولة، ومن كل تلك القيود التي قيّد فيها، ذلك لأنه هو سرّ الوجود، هو الوجود بحد ذاته. فالوجود موجود فينا ونحن أسمى ما في هذا الوجود خاصة إن اعترفنا بوجودنا الذاتي المحرّر من التبعات الغيرية، وللوصول إلى الفرادة الإنسانية على الفرد نزع كل ما هو خارج عنه من ذاته، والاكتفاء بذاته.

لكن كيف يكون هذا النبذ للغيرية؟ وهل يتوافق مع القيم الأخلاقية في المجتمع؟ كيف سأعيش فردانياتي الذاتية بما يتوافق مع المسؤولية الأخلاقية؟ أي ضمير حي. إنّ الوجودية ضمن هذا الإطار لم تضع معايير محدّدة للأخلاق، تحدّد فيها الحرية المطلقة التي تحدّثت عنها، أنا حرّ ولكن الحرية يجب أن تحدّد عندما تتصلّ بالعلاقة مع الآخر ومع المجتمع؛ إن رفضي لتلاعب الآخرين بحقيقي الداخلي ورفض تدخلهم الماضية لا ينفي أن للآخرين حقوقاً أخلاقية يجدر بي مراعاتها وعدم تجاوزها. فما غفلت عنه الوجودية أن يكون، مع كل تلك المعاني الرائعة التي أطلقها، قانون أخلاقي ووجودي، يحدّد العلاقات البشرية، لأن الفرد هو فرد مع أفراد آخرين، وإن أراد الكل أن يكون حرّاً بالمطلق، فمن سيتحكّم حينها بتلك الحرية المطلقة عند الجميع؟

المؤمنون من الوجوديين يعتبرون أنّ الدين محلّه الضمير، أمّا الحياة بما فيها فمقودة لإرادة الشخص المطلقة، اليأس والقلق والإحباط باعتقادهم هي بسبب عدم الشعور بإيمان داخلي وقائي يجعل الفرد يتماسك في ظل الظروف القاسية، ويعتقد "كيركجورد" -الذي كان من كبار الوجوديين المتدينين-، بأهمية الدين لملا الفراغ الوجودي لدى البشر، وقد تم انتقاده من قبل الوجوديين الملحدين، لأن الإنسان بنظرهم هو من يختار القيود التي يريدونها وتلك التي يرفضها، والإنسان المتدين الذي لا يرى غير دينه هو إنسان غير حرّ، فالحرية هي في تقبّل الآخر، وفي تقبّل الذات؛ أي في تقبّل الاختلاف.

لا نستطيع إلغاء العوامل الفردية لدى الفلاسفة بشكل عام، فالتجربة الفردية لكل فيلسوف ميّزت فلسفته عن غيره من الفلاسفة، فهو لا يستطيع التحدّث عن فردية دون أن يشمل فرديته الخاصة ضمنها. إن الصورة المشوّهة التي طبعت ذاتنا بالآخر، هي ما يرفضه الوجوديون، ولكن مع النزعة نحو فردية مطلقة، وليس فردية معتدلة، بمعنى أنالفرد المستقل حرّ بكل ما يخصّه داخلياً، لديّه عالمه الداخلي الخاص به، ولكن دون أن ينسى وجود الآخر، واحترام هذا الوجود الغيري. الوجودية تذكر هذا الوجود للآخر بشكل أكيد وتؤكد عليه ولكنها لم تضع مبادئ واضحة ومحدّدة لذلك الوجود "الآخر".

من الوجوديين من تجمعهم نزعات صوفية تؤكد على وحدة الجوهر، فمهما تباعدت الأزمنة واختلفت الثقافات إلا أنهم في النهاية في رحلة بحث عن الحقيقة. إن النشأة في رحلة البحث دائماً تتشابه، بين البشر، ففي هذه الرحلة نجد المتصوفة، والفلاسفة، ؛ بدأوا رحلتهم كردّة فعل على واقع يرفضونه، واقع يؤلمهم، واقع يريدون تغييره، واقع مادي يهدّد كيانهم الإنساني، واقع جعل الإنسان مجرد أداة رخيصة في المجتمعات الحديثة! هنا تبدأ رحلة الهروب نحو عالم مُغاير، هو عالم الذات الباطنية التي تتصارع الآن ولكنها قابلة للعيش بتناغم وانسجام عندما تقترب من ذاتها. فالإنسان الأخلاقي المتصلّ بالله عند "كيركجورد" يشبه المريد الذي عرف، فوصل، فاتصل، عند الصوفية. والعيون عند "سارتر" التي يعتبرها الجحيم هي ذوات الآخرين التي يتعد عنها المتصوفة في خلوتهم ليكونوا مع الله بعيداً عن البشر.

لقد انتُقدت الفلسفة الوجودية المُحددة بشكل خاص لأنها باعتبار منتقديها قد أدت للفوضى والتفلّت واللاأخلاقية في المجتمعات. ولكن رغم كل الانتقادات للفلسفة الوجودية بشكل عام فهي تقدّم حقائق وجودية تغني الحياة بمعاني فلسفية عميقة والتي تُعتبر مدخلاً حقيقياً لمعنى حقيقي وثابت في الحياة. فالإيمان بحقيقة الوجود الفردي بل بمعنى الوجود هو البديل عن الفراغ واليأس والمعاناة والقلق. كل فرد يتميز بال "فرادة" التي تجعله قادراً على الاختيار والعيش بحريّة وإرادة. وبالطبع فإن الوجوديين قد توحدوا في المبادئ ولكن انقسموا في التوجّهات، فمنهم من أنكر وجود الإله الكامل المطلق ومنهم من عاد لهذا الإله المطلق المكمل للوجود. وهم جميعاً لم يبدأوا من فراغ فما تركه من هم قبلهم من علماء وفلاسفة كان المنطلق الأساسي لديهم لإكمال المسيرة ولو من خلال توجّهات مختلفة؛ ولا يمكننا إنكار تأثر بعضهم ببعض، وبتجاريمهم الشخصية! خلال رحلتهم الوجودية للبحث في أعماق ذواتهم، تكتشف من خلال نظرياتهم رحلتهم الذاتية الفردية مع عالمهم الذاتي والخارجي، ولكن بطريقتهم الفلسفية الممنهجة، وهم في نفس الوقت أبناء هذا العالم الذي طبعهم بوجوده الخاص من خلال تجارب وأحداث حياتهم الخاصة.

### قائمة المراجع:

#### العربية:

1. بدوي، عبد الرحمن (1982). *الإنسانية والوجودية في الفكر العربي*. الكويت: وكالة المطبوعات.
2. تيتلتش، بول (1981). *الشجاعة من أجل الوجود*. ترجمة: كامل يوسف حسين. (ط1). بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
3. ريجيس، جوليفيه (1988). *المذاهب الوجودية*. ترجمة: فؤاد كامل. بيروت: دار الآداب.
4. زيناتي، جورج (1993). *رحلات داخل الفلسفة الغربية*. لبنان: دار المنتخب العربي.
5. سارتر، جان بول (1956). *الوجودية فلسفة إنسانية من كتاب "الوجودية من ديستوفيسكي حتى سارتر"*. قام بنشره فالتر كاوفمان.
6. شامبوردون، بورديو، باسرون (1933). *حرفة عالم الاجتماع*. ترجمة: نظير جاهل. بيروت: دار الحقيقة للطباعة والنشر.
7. ماكوري، جون (1982). *الوجودية*. ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام. عالم المعرفة.
8. هيدغر، مارتن (2009). *الوجود والموجود*. ترجمة: جمال محمد أحمد سليمان. بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع.

#### الأجنبية:

9. Kierkegaard, Soren (1993). *Three Discourses on Imagined Occasions*, ed&trans. Howard V. Hong and Edna H. Hong, USA: Princeton University Press.
10. Olsen, Jakob V. (2008): *Kierkegaard, kærlighed og kristendom*, Credo.

## التكوين المهني في الجزائر: الواقع والتحديات

### Vocational training in Algeria: Reality and challenges

أ.د. بوشعور رضية / جامعة تلمسان

ط.د. محمد أنور زهراوي / جامعة تلمسان

#### ملخص:

يعتبر التكوين بالمفهوم العام والتكوين المهني خاصة إحدى الرهانات الأساسية والمرتكزات الضرورية لاكتساب الكفاءات المهنية، وازدادت أهميته مع مطلع القرن العشرين خاصة في الاقتصاديات المتطورة، أما في الجزائر وكغيرها من الدول النامية فلم يحظى التكوين المهني بالأهمية الكبيرة التي كانت تحظى بها المنظومات الأخرى إلا في السنوات الأولى التي تلت الاستقلال أين كان يشكل إحدى الدعائم الأساسية في القطاع الاقتصادي، لكنه غيب دوره لفترة طويلة شهدت في المقابل تطورا كميا كبيرا لنظام التعليم ما قلل من قيمته الاجتماعية والاقتصادية. لكن مع بداية الألفية (2003) أعيد رد الاعتبار للتكوين المهني إذ أصبح من الضروري تنميته لتلبية احتياجات سوق العمل من يد عاملة مؤهلة قادرة على مواكبة التغييرات الحاصلة، لكن رغم هذه الهيكلة والتحديث الذي شهده قطاع التكوين المهني إلا أنه لا زال يعاني من التبعية لنظام التعليم العام بل ويمثل وعاء لمخلفات هذا الأخير.

الكلمات المفتاحية: التكوين المهني، التنمية، المقاربة بالأهداف، المقاربة بالكفاءات، الجزائر.

#### Abstract:

Vocational training is considered one of the fundamental issues and essential elements in the acquisition of professional ability. It became important in the early twentieth century, especially in developed economies. In Algeria and in developing countries vocational training was not as important compared to other systems, except in the early years of independence. Where it is considered the main pillars of the economic sector, but has been, absent for a long time, which has led to a significant quantitative development of the education system. Which has reduced its social and economic value. However, at the beginning of the year 2000, vocational training was re-examined, as it was necessary to develop it to meet the needs of the labor market by employing a skilled work force able to cope with the changes.

**Key words:** Vocational training, Development, objective approach, ability approach, Algeria.

## مقدمة:

قبل عقد الستينيات من القرن الماضي كان الاقتصاديين يقسمون عوامل الإنتاج إلى ثلاثة عوامل أساسية وهي: الأرض-العمل-الرأسمال المادي، لكن مع بداية الستينيات توجه الاهتمام إلى نوعية اليد العاملة وخاصة إلى تعليم وتكوين وتدريب هذه الأخيرة، ومع ظهور مفهوم جديد وهو التنمية البشرية بدأ الاهتمام بالعنصر البشري من الناحية الاجتماعية والاقتصادية باعتباره نوع من أنواع رأس المال ووسيلة من وسائل التنمية وغايتها في نفس الوقت، لذا أصبحت الأمم الحديثة تعتمد إلى حد كبير على تطوير الفرد وتنظيم نشاطه، وبهذا يكون النمو الاجتماعي والاقتصادي السليم للمجتمعات مرهون بفاعلية تكوين وإعداد القوى العاملة.

يعتبر التكوين بالمفهوم العام والتكوين المهني خاصة إحدى الرهانات الأساسية ومن المرتكزات الضرورية لاكتساب الكفاءات المهنية، وازدادت أهميته مع مطلع القرن العشرين خاصة في الاقتصاديات المتطورة وحتى في البلدان النامية. والجزائر كغيرها من هذه الدول الحديثة الاستقلال والتي لازالت ترغب في الخروج من دائرة التخلف والدخول في بوتقة العولمة من باب اللحاق في أسرع وقت ممكن بركب الدول المتطورة وخاصة التطور الاقتصادي بإعطاء أهمية كبيرة لكل المنظومات التي تهدف إلى تطوير الفرد وجعله مؤهلا وقادرا على مواجهة التحديات التي يفرضها التطور العلمي والتكنولوجي أو ما يسمى بالعولمة، فمواكبة هذا الاتجاه الجديد لا يكون إلا ببناء القدرات الفردية وفق برامج تكوينية حديثة.

وتجسيدا لهذا المبدأ، ارتأينا لمعرفة واقع التكوين المهني في الجزائر، وجب علينا أن نعرض على المراحل التاريخية التي مر بها هذا القطاع بالتوازي مع نظام التعليم، باعتباره القطاع الثالث في المنظومة التربوية.

إذن فقد مر قطاع التكوين المهني في الجزائر بحقب زمنية منذ الاستقلال أين كان يشكل إحدى الدعائم الأساسية في القطاع الاقتصادي دون إغفال قيمته الاجتماعية في تلك الفترة، لكنه غيب دوره في فترات كبيرة خاصة وأنه لم يحظ بالأهمية البالغة التي حظي بها نظام التعليم الذي شهد تطورا كبيرا، ما قلل من قيمة التكوين المهني الاجتماعية والاقتصادية، أما عن القيمة الاجتماعية فتلك النظرة الدونية في المجتمع ومكانته في التراتبية الاجتماعية ضف إلى ذلك ارتباطه المباشر بنظام التعليم واستقباله إلا لمخلفاته من الفئات الأقل حظا أو المقصات من نظام التعليم، خاصة وأن هذا الأخير شهد ويشهد إصلاحات وتغيرات كبيرة بخضوعه الكامل لسلطة الدولة ما جعله يحظى بالقدر الكبير من الاهتمام من طرف الدولة والسياسات العمومية.

هذا الاهتمام الكبير الذي حظي به نظام التعليم في الجزائر والإصلاحات المتتالية خاصة الإصلاح التربوي الأخير سنة 2008 بإدخال التعليم بالممارسة (المقاربة بالكفاءات)، كان بمثابة الصدمة التي تلقاها قطاع التكوين المهني باستقباله لأعداد كبيرة من التلاميذ قدرة سنة 2008 أي سنة تعميق الإصلاحات ب 500000 تلميذ تخلى عن الدراسة، خاصة وأن هذه الأخيرة تعاني من نقص التعليم القاعدي، ما وضع قطاع التكوين المهني بين تحديين، أي بين إعادة تأهيل هذه المخرجات من الأفراد وبين تحسين قابليتهم للتشغيل في سوق العمل، في ظل النقص الكبير في التنمية والتنظيم الذي يعاني منه هذا القطاع. إذن ما هو واقع التكوين المهني في الجزائر؟ وما هو أثر الإصلاحات التربوية المتتالية وخاصة الأخيرة على هذا القطاع؟ وما هي التحديات التي يواجهها التكوين المهني في ظل الاحتياجات المتزايدة للاقتصاد الوطني في شكله الجديد؟

## 1 - التكوين المهني بين النظرية والواقع.

### 1 - 1 - التكوين كآلية لتحقيق التنمية.

لقد أسئ فهم التكوين وضيق مفهومه فاعتبر مجرد أعمال يقوم بها أو يؤديها المكون أو مجرد تطبيقات ميدانية روتينية ومجموعة من المهارات اليدوية، كما اعتبره البعض الآخر كمرادف لمصطلحات مثل التأهيل، التمهين التدريب... الخ، لكن التكوين كمفهوم فهو أعم وأشمل يهتم بالدرجة الأولى بنقل المعارف واكتساب سلوكيات متعلقة بنشاط معين، بل أبعد من هذا فهو يساهم في رفع القدرة على التفكير والتعريف بتقنيات و مداخل التسيير الحديثة من جهة ومن جهة أخرى التعريف بالمستجدات والتغيرات الحاصلة في المحيط بأبعادها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية فحسب Jardilier (1978) "فإن التكوين هو عملية تقوم بنقل مجموعة مترابطة من المعارف والمهارات تؤدي بالفرد إلى تغيير عام يسمح له بالقيام بوظائف متعددة"<sup>1</sup>، فالتكوين ليس مجرد آلية للحصول على مهارة وتطبيقها في ما بعد بل هو وسيلة للتنمية الاجتماعية والاقتصادية، تساهم في تحسين كمية ونوعية العمل المقدم، كما تعد هذه الوسيلة تأمينا ضد البطالة بسبب نقص التأهيل بسبب تطور المعرفة وضد عدم التكيف الناتج عن تطور الحرف والمهن"<sup>2</sup>، فهو يقع في قلب العلاقة بين النظام التربوي والتعليمي من جهة ومؤسسات سوق العمل من جهة أخرى، أي في تطبيق المهارات والخبرات المكتسبة، لهذا تبقى مفاهيم التكوين والتعليم ومفاهيم أخرى يصعب الفصل بينها إلا أن التكوين يعتبر معدلا للعلاقة السابقة الذكر ومحققا لأهدافها الاجتماعية والاقتصادية في نفس الوقت "فالتكوين انطلاقا من كونه عملية احتضانية لإمكانات الفرد وقدراته ومعارفه لجعلها تتوافق مع إمكانات وأهداف المجتمع والمؤسسة يتقاطع مع مفاهيم التربية والتعليم"<sup>3</sup>، فيمكن تعريفه على أنه هو " كل أوجه التعلم التي يتلقاها الفرد من مهارات وخبرات وقيم وسلوكات علمية"<sup>4</sup> إذن هو يهتم بالدرجة الأولى بنقل المعارف والمهارات اللازمة من أجل الأداء وهذا ما يؤكد Bernard Martory بقوله أنه "ضرورة التطور خلال الحياة المهنية تشدد من أهمية أفعال التكوين كوسيلة لتكليف وتنمية الإمكانات المتوفرة للمؤسسة وللتكوين إذا شيء آخر عن كونه إجباري قانونيا"<sup>5</sup> يربط Bernard M التكوين بالمسار المهني للفرد وهذا من أجل تحقيق أهداف المؤسسة فهنا يعتبر التكوين كنسق جزئي من العملية الإنتاجية الكلية لأي مؤسسة و هو شرط لاستمراريتها، لكن في مجال العمل، فالوظيفة الأولى للتكوين حسب "Condorcet"<sup>6</sup> هي أن نضمن لكل الأفراد في كل الأعمار معارف كلية، فالتكوين لا يرتبط بمجال العمل فقط بل بتحصيل أكبر قدر ممكن من المعرفة الانسانية.

يعود ظهور مفهوم التكوين إلى الفكر الإداري الفرنسي وهو يرمي في الأصل إلى التكوين الأساسي والأولي للمهارة والمعرفة كما يشير إليه في الفكر الإداري الإنجليزي كذلك "بالتدريب التعريفي أو التدريب الانضمامي للمؤسسة أو التدريب التوجيهي في المؤسسة"<sup>7</sup> أما في المفهوم الحديث فالتكوين "يأخذ بعد التوفيق في هذه العملية الاحتضانية للفرد وإمكاناته وقدراته مع إمكانات المؤسسة ومتطلباتها، ومع متطلبات المجتمع والمحيط وهي عملية أساسية لأنه ستبني عليه سياسات الإدارة، والعمالة

<sup>1</sup>Dominique Pouchard, Christiane Lagabriele et SaniaLaberon, Validation des acquis de l'expérience, une dynamique professionnelle ? Univ bordeaux, rapport de recherche, Mars 2011, p 13.

<sup>2</sup> ابراهيم عبد الله، أ. حميدة مختار، دور التكوين في تامين وتنمية الموارد البشرية، مجلة العلوم الانسانية، جامعة محمد خيضر بسكرة، العدد 7، فيفري 2005، ص 3.

صالح صالح، آمال شوتري، التكوين المهني بين خصوصية ومنطق الطلب، مقال منشور بدون سنة، ص 3.2  
نفس المرجع، ص 4.2

ابراهيم عبد الله، أ. حميدة مختار، مرجع سبق ذكره، ص 8.5

<sup>6</sup>Arlette Mucchielli-Bourcier, Apprendre à apprendre, repenser la formation, édition ESF ? Paris, 1999, p 11.

ابراهيم عبد الله، أ. حميدة مختار، مرجع سبق ذكره، ص 3.7

وسير المؤسسة... ودور حياة المشروع"<sup>1</sup>، ما نلاحظه أن الفكر الإداري الفرنسي والإنجليزي ركز في مفهوم التكوين على الجانب البراغماتي Pragmatique وإهمال الجانب الذهني Cognitif أو العائد ومدى مساهمته في الانتاج ودور حياة المشروع لكن التكوين مفهوم جوهري لم يكن يوما في خدمة المؤسسات ولا حتى في عوائدها فهدفه الأول هو فائدة الانسان \*Savoir-devenir يدخل ضمن الحريات الأساسية للفرد فلم يكن يوما لفائدة المؤسسة فحسب.

ارتبط مفهوم التكوين بحقبة زمنية كبيرة عرفت تحولات اجتماعية وثقافية وخاصة اقتصادية وهي الثورة الصناعية إذ نتج عنها التحول الكبير في نمط الانتاج، فبعد أن كانت أمة زراعية ريفية أصبحت أمة صناعية تعتمد في انتاجها بالدرجة الأولى على الآلة فكان لهذه الأخيرة تأثيرا كبيرا على المجتمع إثر تطور وسائل الإنتاج نتج عنه مبدأ التخصص في العمل الذي نادى به A. Smith أو تقسيم العمل الذي أخذ نقاشا واسعا عند الاقتصاديين منهم من ركز على الجانب أو البعد البراغماتي للتكوين نتج عنه مفهوم آخر وهو التكوين المهني، أما التيار الآخر فقد ركز على الجانب الذهني واعتبره استثمارا في الأسمال البشري على غرار E. Denison ، Gary Becker ، T. Schultz ، ومع بداية الستينيات من القرن الماضي برهن جل الاقتصاديين أن هناك علاقة إيجابية بين النمو الاقتصادي والأسمال البشري وهذا ما أظهرته معظم الدراسات الحديثة والتي انطلقت من فرضية مفادها أن تكوين وخبرة اليد العاملة تمثل شكلا من أشكال الأسمال البشري وأن الاستثمار في هذا الأخير عن طريق التكوين مثلا يكون له تأثير كبير على النمو الاقتصادي بشكل جيد مع مرور الزمن، هذا الذي أثبتته كل من T. Schultz E. Denison باعتبار أن "التعليم يساهم بشكل كبير مباشر في زيادة الدخل الوطني، وذلك عن طريق رفع كفاءته وإنتاجية العنصر البشري"<sup>2</sup>.

## 1 - 2 - التكوين المهني: المفهوم والنشأة.

يرجع ظهور التكوين المهني كمفهوم إلى القرن التاسع عشر مع بداية التشريعات الاجتماعية التي صاحبها تغيرات كبيرة في مفهوم تنظيم العمل من بينها التركيز على التكوين الكيفي للعمال واكتسابهم لمهارات وخبرات وحسب F. Taylor "تحويل الفرد إلى عامل فعال، قادر على تحليل المواقف"<sup>3</sup>، وهذا أصبحت النقابات تدعم المشاريع المؤدية للتكوين المهني، ومع التوسع الصناعي الكبير "أنشأت مدارس التكوين المهني بمفهومها الحديث على يد "دي وايت كلينتون" سنة 1809 بنيويورك ثمانتشرت هذه المدارس في كل المجالات الزراعية، التعليم، إدارة الأعمال، المحاسبة، الصحافة... فضلا عن فتح بعض المدارس أو الفصول المسائية للتكوين المهني سنة 1884 في نيويورك"<sup>4</sup> إلا أن مفهوم التكوين المهني لم يكن واضحا لكونه ارتبط بالدول المتطورة على غرار إنجلترا وأمريكا وألمانيا وفرنسا بالتحديد والتي شهدت وتشهد تطورا اقتصاديا بالدرجة الأولى أما في الدول النامية "والأقل نموا غالبا ما تكون

نفس المرجع، ص 3.

\* Dans le colloque des sciences de l'éducation d'Amiens en 1967 allait ajouter à la célèbre typique : Savoir, Savoir-faire, Savoir-être, l'indispensable dimension du Savoir-devenir, en proclamant :

« Dans la formation de demain, il ne s'agira plus essentiellement d'acquérir des connaissances, pas même d'apprendre à apprendre mais apprendre à devenir ». Ils ont créé un nouveau concept c'est le SAVOIR-DEVENIR. Arlette Mucchielli-Bourcier, Apprendre à apprendre, op cit, p 12.

<sup>2</sup> مركز دراسات الوحدة العربية، الجزائر: "إشكاليات الواقع ورؤى المستقبل" سلسلة كتب المستقبل العربي (64)، ط 1، بيروت، 2013، ص 33.

<sup>3</sup> Baillif Clarisse, une réévaluation du taux de croissances des gains liée à l'éducation en situation de déséquilibre sur le marché, thèse de DEA, Univ de Lille 1, 2002-2003, p 9.

صالح صالح، د. أمال شوتري، التكوين المهني بين خصوصية ومنطق الطلب، مرجع سبق ذكره، ص 3.

مهمات التعليم والتكوين التقني والمهني من واجبات الحكومة تمويلًا وإدارة وذلك لضعف اقتصادياتها وفي الدول متوسطة النمو حيث يكون الاقتصاد أكثر تطورًا تحتل الحكومة نصيبًا من التمويل ويرافق هذا التمويل مسؤولية التطور<sup>1</sup>.

يشكل التكوين المهني في الدول المتطورة إحدى الدعائم الأساسية الكبرى سواء في المجتمع حيث يعبر عن حرية الاختيار على المستوى الفردي والجماعي ما يمنحه قيمة اجتماعية من جهة، ومن جهة أخرى مساهمته الكبيرة في قطاع الانتاج إضافة إلى استقلاليتها عن القطاعات الأخرى، هذا الذي لم تستوعبه الكثير من الدول، و مواجهة لهذا الإهمام الحاصل في مفهوم التكوين المهني وجهت منظمة العمل الدولية في ستينيات العقد الماضي الدعوة لعقد مؤتمر حول هذا الموضوع والذي عقد في تونس "حيث بادرت تونس بترجمته إلى التكوين المهني و تم توزيع المسؤولية على عدة وزارات فاحتضنت وزارات الشؤون الاجتماعية بحالات المتسربين من التعليم الابتدائي وتكفلت وزارتي التربية والتعليم بمن التحقوا بالتعليم الإعدادي ولم يكملوا التعليم به وهكذا انشأت وزارة الشؤون الاجتماعية إدارة خاصة بالتكوين المهني<sup>2</sup>".

إذن لقد ضيق مفهوم التكوين المهني في الدول النامية وهذا لارتباطه بمنظومي التربية والتعليم فلم يكن يوماً كمؤسسة مستقلة وهذا لعدة أسباب اجتماعية، اقتصادية وحتى ثقافية، فالتكوين المهني يرتبط بقطاع التربية ليشكل وعاءاً للمتسربين من التعليم العام، و قطاع الانتاج من جهة أخرى، إذن فهو يقع في صلب العلاقة بين التعليم والانتاج هذا ما سيضعه بين تحديين، فالأول يتعلق بتحقيق الطابع الاحترافي للأفراد الساعين إلى التكوين للتقليص من حدة البطالة أما الثاني فيتمثل في تكوين أفراد مؤهلين وقادرين على تلبية احتياجات القطاع الاقتصادي.

فيعرف التكوين المهني على أنه "ذلك التعليم في نطاق ضيق والذي يرتبط بمهنة واحدة بوصفه ارتباطاً بالجانب العلمي ضمن ناحية واقعية معينة فهو ينصب على ذلك التكوين في مجال الحرف التي تتطلب قدراً كبيراً من المهارة والمعرفة والاستقلالية في الحكم والتقدير"<sup>3</sup> إذن فالتكوين المهني يركز على اكتساب مهنة أو حرفة وتطبيقها فيما بعد فهو "المدخل لأي عمل ذي طابع مهني يشمل عدة أنشطة حرفية... وذلك لمراعات أساليب العمل"<sup>4</sup> كما يعرف في بعض الدول العربية بالتدريب المهني أو الفني فيعرفه عادل حسن "أنه التدريب بمعناه الواسع عبارة عن عملية تعلم وتعليم تمكن الفرد من عمل معين و متقناً له، و متكيف معه... وللتدريب المهني عدة مدلولات تتقارب في المعنى بوجه عام، فهو يعبر عنه أحياناً بالإعداد المهني أو التكوين المهني أو التدريب الإعدادي أو التعليم الفني... ويتم التدريب المهني على حرفة واحدة يصل فيها مستوى المتدرب إلى درجة من المهارة والخبرة"<sup>5</sup> وينذهب في نفس الاتجاه Vincens. إلى اعتبار التكوين المهني "عملية تعلم تستهدف الحصول على بعض المهارات والكفاءات لفرد ما"<sup>6</sup>، إذن فالتكوين المهني حسب هذه التعريفات يربط بالجانب العملي لا بالجانب الذهني للفرد فهو قبل كل شيء عملية

<sup>1</sup> شادي حلي، واقع التعليم المهني والتقني ومشكلاته في الوطن العربي، دراسة حالة (الجمهورية العربية السورية)، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، عدد 28، تشرين الأول، 2012، ص 405.

<sup>2</sup> إيمان محمود دسوقي عويضة، المشكلات التي تواجه أعضاء جماعة التكوين المهني ودور خدمة الجماعة في مواجهتها، دار الوفاء، ط 1، 2011، ص 36.

صالح صالح، د. أمال شوتري، التكوين المهني بين خصوصية ومنطق الطلب، مرجع سبق ذكره، ص 3.

<sup>4</sup> إيمان محمود دسوقي عويضة، المشكلات التي تواجه أعضاء جماعة التكوين المهني ودور خدمة الجماعة في مواجهتها، مرجع سبق ذكره، ص 36. بلقاسم سلاطينية، سوسيولوجيا التكوين المهني وسياسة التشغيل في الجزائر، جامعة منتوري قسنطينة، عدد 10، 1998، ص 139.

<sup>6</sup> مجموعة من الباحثين، المدرسة: رهانات مؤسساتية واجتماعية، إنسانيات، المجلة الجزائرية في الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية كراسك - وهران، عدد مزدوج 60-61، أبريل-سبتمبر، 2013، ص 14.

معرفية والتي يؤكدتها Pierre Casse " هو العملية التي تهدف إلى تنمية القدرات المهنية من أجل زيادة كفاءتهم في إطار تنفيذ المهام الأدوار المتصلة بوظائفهم الحالية والمستقبلية فهو وسيلة لتنمية الموارد البشرية<sup>1</sup>.

لكن إذا انتقلنا من المفهوم إلى الواقع وحسب مجموعة من الدراسات فسنجد أن مفهوم التكوين المهني هذا يختلف اختلافا كبيرا سواء من حيث الموضوع أو من حيث المنهج بين الدول المتطورة والنامية والتي من بينها الجزائر كحقل تفكير، فالتكوين المهني لا يشكل إحدى الدعائم الرئيسية علم مستوى الاقتصاد أو على مستوى المجتمع، فهو لم يبنى أساسا لتلبية حاجيات السوق في التوظيف بل للتخفيف من حدة البطالة والتي أصبحت مع مرور الوقت هاجسا يهدد الاقتصاد الجزائري هذا من جهة، ومن جهة أخرى لتعديل في النظام التربوي أي لمن رسبوا في التعليم العام، لهذا يسمى بمؤسسة الحظ الثاني، فهو لا يعتبر وسيلة تنمية لأفراد المجتمع والاقتصاد على حد سواء وليس فقط من السلطات المعنية بل من طرف الأفراد أنفسهم فهم يبنون تمثلاتهم حول ووفق ما يجنيه من ورائه، فهذه التمثلات الاجتماعية والصور حول المهنة والمسار المهني التي يتم تكوينها من طرف الفرد هي قدرته على ضمان مكانة اجتماعية أو مكانة في " التراتبية الاجتماعية"<sup>2</sup> كما يقول Claude Dubar تحقق له دخل مستقر يضمن له نوعا من الاعتراف المهني والاجتماعي ما يمنحه "هوية مهنية"<sup>3</sup> كما يرى Claude Dubar et Pierre Tripier، لكن لا يمكننا معرفة واقع التكوين المهني في الجزائر إلا إذا وضعناه في سياقه التاريخي، فارتباطه بالنظام التعليمي واستقباله لمخرجاته (الفئات الأقل حظا في مواصلة الدراسة) جعله الحلقة الأضعف في المنظومة التربوية، فأى تغيرات أو إصلاحات على مستوى النظام التعليمي في الجزائر تأثر بشكل كبير على هذا القطاع، خاصة وأنه لم يحظى بذلك الاهتمام الذي يحظى نظام التعليم من طرف السلطات العمومية.

2 - واقع الإصلاحات التربوية وأثرها التكوين المهني في الجزائر.

2-1 - واقع المنظومة التربوية في ظل المقاربة بالأهداف.

عرفت الجزائر مرحلة كبيرة من التغيرات السياسية، الاجتماعية والاقتصادية يمكن اعتبارها تحولات طبيعية نسبة إلى حداثة الاستقلال، أو ما يطلق عليها مرحلة ما بعد الاستقلال، أنتجت هذه التحولات اختلالات كبيرة مست كل مؤسسات المجتمع أو النظام الاجتماعي عامة، وخاصة نظام التربية والتعليم والتكوين الذي سجل في السنوات الأخيرة نتائج غير مرضية جسدهته التراجعات الكبيرة في نوعية التعليم أدى إلى ضعف معدلات النجاح خاصة في المستويات الدراسية المتوسطة والثانوية، نقص التعليم القاعدي الذي يعاني من خلل فيمنهجية العمل أكثر من أي مستوى آخر إذ يعتبر هذا الأخير حجر الأساس لبناء رأس مال ثقافي للأفراد، وحسب إحدى الدراسات حول الوضعية التي مر بها نظام التربية والتعليم في الجزائر في ظل المقاربة بالأهداف التي أظهرت أن "أكثر من نصف التلاميذ الذين يخرجون من التعليم الثانوي بدون شهادة كفاءة في حين أن نسبة النجاح في البكالوريا العامة والتقنية يصل إلى 36% و 47% على التوالي"<sup>4</sup> هذه النتائج تعبر عن الأوضاع المتردية وعدم نجاعة نظام التربية والتعليم في منح مدخلاته رصيد معرفي ذو نوعية وهذا ما أكدته معدلات إعادة السنة حيث "تقترب من 11% في السنة الأولى من التعليم الأساسي و30% في السنة التاسعة من التعليم المتوسط، والأكثر ارتفاعا في السنة الثالثة ثانوي حيث

<sup>1</sup> Pierre Casse, la formation permanente, office de la publication universitaire, Paris, 1994, p 48.

<sup>2</sup> Claude Dubar, Pierre Tripier, sociologie des professions, par Philippe Charrier, l'homme et la société, n°134, Paris, 2015, p 163.

<sup>3</sup> Ibid., p 163.

<sup>4</sup> Insaniyat, L'école : enjeux institutionnels et sociaux, revue algérienne d'anthropologie et de sciences sociales CRASC, Oran, n° 60-61, avril – septembre 2013, (vol. 17, 2- 3), p 12.

تصل إلى 38%<sup>1</sup> هذه المعدلات تظهر لنا الخلل الكبير في الأجزاء المكونة لهذا النسق والمتمثلة إما في النوعية الكافية من المدرسين القادرين على منح تكوين راقٍ وتحفيز التلاميذ على الإبداع والتميز أوفي المناهج المعتمدة في التدريس، فضعف مستوى التعليم وتراجع مستوى التحصيل الدراسي لدى أغلب المتدربين في كل المستويات أصبح ميزة أو سمة يتميز وينفرد بها نظام التعليم في الجزائر جراء الإصلاحات والتغيير في براديجمات التعليم منذ الاستقلال وكثرت التشريعات وعدة أسباب لا يمكن حصرها في عوامل بيداغوجية (منهج التعليم، كفاءة الأستاذ، استيعاب التلميذ)، بل هناك عوامل خفية تحول دون السير الحسن للعملية التربوية و لعل أبرزها تطور العالم السوسيو-اقتصادي من خلال تبني نماذج جديدة مع عدم مراعات العوامل السوسيو-ثقافية للفرد الجزائري.

هذه الوضعية تعطينا دلالات على ضرورة تغيير في براديجم التعليم أي تغيير راديكالي لا يساهم في إعادة إنتاج النظام الاجتماعي القائم بل تغيير في بنية هذا النظام بتبني مقاربات جديدة تركز على نوعية وفعالية التعليم لخلق نوع من التوازن وتغليب الطابع الكيفي على الطابع الكمي، وهذا من أجل إعادة الدفع بعجلة التنمية إلى الأمام. وكما هو الحال في كل مراحل تطور النظام التعليمي في الجزائر، وبعد الإحساس بعدم جدوى الشكل التقليدي النظري لبرامج الإعداد وإهمالها للأداء، ما أدى إلى اتساع الهوة بين ما يتم تعلمه وبين التطبيق الممارسة وغيرها من الأسباب الأخرى، بادرت الجزائر إلى إصلاح المنظومة التربوية وهذا بدعوة من اليونسكو عام 2003 بتبني مقاربة جديدة ألا وهي المقاربة بالكفاءات *l'approche par compétence* ابدياً من المقاربة بالأهداف *l'approche par objectif* والتي تركز على عدة منطلقات أبرزها التغيير الجذري لمناهج التعليم وربط الثقافة المدرسية بالممارسات الاجتماعية أو ما يعرف بالتمهين *l'apprentissage* الذي يعتبر الهدف الأساسي لهذه المقاربة.

## 2 - 2 - المقاربة بالكفاءات كمنهج لإصلاح المنظومة التربوية.

ترتكز المقاربة بالكفاءات على التعلم وأي تعلم؟ التعلم الذي يؤسس على منح الفرد معرفة علمية وكيفية تفعيلها في الوسط الاجتماعي الذي هو جزء منه، فالمهم ليس تلقينه مجموعة من المواضيع الدراسية بل تعليمه كيف يمكنه استعمال قدراته الذهنية في حل مجموعة من المشاكل التي يعيشها، فهي تعتبر من آليات التنشئة الاجتماعية ووسيلة من وسائل الاندماج *Intégration* في المجتمع عن طريق التفاعل مع المحيط الخارجي يجعله عنصراً فاعلاً داخل هذا البناء الاجتماعي، ويعتبر *E. Durkheim* من الأوائل الذين درسوا برامج التعليم باعتبارها مواضيع اجتماعية وعلاقتها بحالة المجتمع الأنية والضغوطات الظرفية.

إذن فتبني هذه المقاربة الجديدة في نظام التربية يتطلب الانطلاق من الواقع، وهذا بمراعات طبيعة وقدرات الأفراد سواء من جهة التلميذ أو من جهة الأستاذ ضف إلى ذلك تطور العالم السوسيو-ثقافي والتحديات التي تفرضها العولمة والمتمثلة في الثورة التكنولوجية الجديدة، فلا يمكن تطبيق هذا النوع من الإصلاحات وخاصة في نظام حساس كنظام التربية والتعليم إلا انطلاقاً من الواقع الاجتماعي، فكل الاختلالات التي عانى منها هذا الأخير قبل فترة الإصلاح ما هي إلا انعكاسات للوقائع الاجتماعية في تلك الفترة، فمراعات الظروف السوسيواقتصادية للأفراد وضمن المساوات في الحظوظ بين التلاميذ في التحصيل الدراسي وإتمام التعليم الأساسي من العوامل الرئيسية لنجاح المشروع الإصلاحي، لهذا اتخذت الوزارة المعنية هذه العوامل والمتغيرات بعين الاعتبار وخاصة التمييز بين الجنسين، الأصل الاجتماعي، الأصل الجغرافي.

هذا من حيث البعد السوسيو اقتصادي لهذه المقاربة أما من حيث البعد المعرفي فهي تعتمد على النزعة أو الفلسفة البراغماتية الواقعية (والتي كان لها التأثير الكبير على المستوى التربوي) والتي تركز على النشاط السوسيو-مبني الذي يسمح للمتعلم

<sup>1</sup>Ibid. p 12.

بالدخول السريع والتكيف مع الحياة العملية "لأنه لا قيمة لأي معرفة لا يمكن استعمالها وتطبيقها في الحياة الحاضرة والمستقبلية"<sup>1</sup>.

وفي هذا الإطار فإن المرتكزات الأساسية التي تعتمد عليها المقاربة بالكفاءات هي العلاقة بين "المكتسبات التكوينية والوضعية المهنية التي تعتمد على العلاقة بين المكتسبات المعرفية والنشاط السوسيو- مهني الذي ينتظر المتعلم على المردودية التي أصبحت ترتبط بمقياس القابلية للتكيف السريع مع المهام الطارئة والمتجددة"<sup>2</sup>، باعتبار التعليم عملية إنتاجية ويشكل شكلا من أشكال رأس المال، هذا الذي يمثل تحديا كبيرا للأنظمة التعليمية والتي "تواجه اليوم تحديا كبيرا في تراكم المعلومات والفعاليات الداخلية والخارجية، ويقصد بالفعاليات الداخلية تلك المعارف الضرورية التي تؤهل التلميذ للانتقال من مستوى لآخر، أما الفعاليات الخارجية فتعني التفكير في نظام التقويم"<sup>3</sup>، وهذا الذي اعتمدت عليه الوزارة و المتمثلة في رفع مستوى التأطير وتحسينه في مراحل العملية التربوية، إدارة، توجيها وتقييما، لبلوغ أهداف الإصلاح التي تسعى إلى بناء منظومة متناسقة ومتكاملة تستجيب لكل التغيرات الحاصلة في الحقل التربوي والتعليمي.

تعمل المقاربة بالكفاءات على "تجاوز الجانب النظري لتتجسد في الواقع الفعلي الاجتماعي للمتعلم، ومن هنا تتمثل وظيفتها الاجتماعية (...). أي أن المقاربة بالكفاءات الاجتماعية هي تعبئة الكفاءات المختلفة ودمجها داخل وخارج المدرسة بحيث يصبح المتعلم كموطن بعد الحصول على هذه الكفاءات قادرا على مواجهة مختلف مشاكل الحياة، ومستعدا للاندماج الاجتماعي"<sup>4</sup>، ووفقا لهذا المبدأ و/ أو هذه المبادئ أسست المقاربة بالكفاءات كمنهج جديد يربط الثقافة المدرسية بالواقع الاجتماعي أي بالمجتمع من أجل ترسيخ قيم المواطنة، لكن إن تطبيق أي برنامج أو إصلاح لا يخلو من الانتقادات والنقائص خاصة في مرحلة تطبيقه وعلى غرار العديد من الإصلاحات في الجزائر وخاصة الإصلاح الهيكلي، تعرضت الإصلاحات الأخيرة في المنظومة التربوية للعديد من الانتقادات حيث أكدت العديد من الدراسات على فشلها سواء من خلال المنهج أو الموضوع، فلا زالت تشكو منظومة التربية والتعليم من ارتفاع نسب التسرب وغياب نوعية المخرجات خاصة في الآونة الأخيرة.

## 2 - 3 - النتائج والانعكاسات على قطاع التكوين المهني.

تعرضت المنظومة التربوية للعديد من الانتقادات سواء في مرحلة تطبيق الإصلاحات أو بعد ذلك من طرف العديد من المهتمين بهذا الحقل من علماء السياسة، الاجتماع، الاقتصاد، وهذا لجملة النتائج التي ترتبت عنها فيذهب البعض إلى اعتبار أن هذه الإصلاحات فوقية لم تستشر فيها الجهات المعنية، فالمطلوب هو توسيع النقاش والتشاور Concertation من خلال خبراء محليين وأجانب لوضع أطر نظرية لمدرسة جزائرية يمكن مقارنتها بمدارس علمية، ويذهب البعض الآخر إلى اعتبار أن هذه الإصلاحات جاءت لتكريس هيمنة لغة معينة على كافة اللغات فباعتماد اللغة الفرنسية وتثبيت هيمنتها كلفة ثانية بعد العربية رغم تراجعها الكبير في مجال البحث العلمي يشكل ترسيخا ليس لهيمنة لغة فحسب بل لإعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية التطبيقية ومحاولة تعميق الهوية بين فئات المجتمع وخلق التطبيقية التي جاءت المدرسة الجزائرية ومنذ الاستقلال من أجل القضاء على هذا النهج التربوي عن طريق ديمقراطية التعليم.

<sup>1</sup> راضية ويس، المقاربة بالكفاءات ماهيتها ودواعي تبنيها في المنظومة التربوية الجزائرية، مجلة البحوث والدراسات الانسانية، جامعة سكيكدة، العدد 11-2015، ص 96.

<sup>2</sup> مجلة إنسانيات، المدرسة: رهانات مؤسساتية واجتماعية، المجلة الجزائرية في الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية، مرجع سبق ذكره، ص 67. المرجع نفسه، ص 68.

مجلة إنسانيات، المدرسة: رهانات مؤسساتية واجتماعية، المجلة الجزائرية في الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية، مرجع سبق ذكره، ص 70.

فإذا كانت المقاربة بالكفاءات كموضوع تركز في محتواها على المساوات في الحظوظ والعمل الجماعي إلا أنها كمنهج تهدف إلى فردنة التعليم، الذي يتوقف على قدرات الفرد وبناء الفرد لا الجماعة، وهذا للتفاوت بين الأفراد المتعلمين من حيث القدرات الذهنية، فكل فرد يتعلم حسب قدراته وإمكاناته فلا يمكننا بأي حال من الأحوال إغفال الفروق الفردية، وهذا الذي أظهرته بعض المؤشرات والتي تعتبر مركزية في الحكم على نجاعة هذه المقاربة من عدمها ولعل أبرزها التسرب المدرسي، فنصف مليون تلميذ يتخلون كل سنة عن الدراسة، نتائج الدراسة التي أجريت من طرف مركز البحث CENEAP في بداية سنة 2008، حيث أظهرت الدراسة أنه أكثر من "500000 تلميذ أقصوا من نظام التعليم في المقابل قدرة نسبة التمدريس الوطني حسب وزارة التربية والتعليم ب 97%، أما عن نسبة التسرب المدرسي فقد ب 2.5%"<sup>1</sup>، مع تفاوت نسبة التسرب حسب كل طور من أطوار التعليم.

وحسب نفس الدراسة CENEAP أن السبب الأبرز الذي يحول بين مواصلة أو التخلي عن الدراسة من طرف التلاميذ هو العامل السوسيو-اقتصادي من جهة والبرامج التعليمية من جهة أخرى، حيث قدرة نسبة التخلي\* عن الدراسة "بسبب البرامج التعليمية في الابتدائي ب 30%، أما عن العوامل الأخرى مثل التركيز والمشاكل مع الأساتذة فقدر ب 50% و 60% على التوالي"<sup>2</sup> أما عن العامل السوسيو-اقتصادي والذي يعتبر المهم الذي يؤثر في كل العوامل الأخرى فحسب نفس الدراسة أن "3 ملايين تلميذ ينحدرون من أسر فقيرة و هذا لاستفادتهم من المنح التي تقدمها الدولة كإعانة على تكاليف التعليم و التي تقدر ب 3000 دج"<sup>3</sup> فهي منحة رمزية لا يمكنها بأي حال من الأحوال تغطية تكاليف التعليم، خاصة عند الطبقات المتدنية الدخل في وقت أصبح فيه التسرب والتخلي عن الدراسة ظاهرة اجتماعية تتفاقم و تتطور مع مرور الوقت، حيث تكتسي هذه الظاهرة مدلولات من حيث كونها متعلقة من جهة بالتطبيق الخاطئ للمقاربة بالكفاءات ومن جهة أخرى بنمط التنمية المشوه الذي أفرزها التقسيم الدولي للعمل وشرطهم الأساسي إصلاح النظم التعليمية خاصة في دول العالم الثالث.

في هذا السياق لم تعد ظاهرة التسرب المدرسي والتراجع في نوعية التعليم من مهام وزارة التعليم كمؤسسة بل أصبحت أكثر من أي وقت مضى من مهام كل مؤسسات المجتمع بدون استثناء لتحقيق ما يسمى بمفهوم العدالة ليست العدالة بالمفهوم القانوني ولا بالمفهوم السياسي فقط بل أعم من ذلك بالمفهوم الاجتماعي، والتي تفضي إلى إرجاع مبدأ التفاوت هذا في خدمة المساوات، فالتفاوت في الذكاء بين التلاميذ ونسب الاستيعاب هي شيء طبيعي لا يمكن إنكاره، لكن التفاوت الاقتصادي هو غير ذلك فهو يتعلق بالمستوى الاجتماعي الذي هو نتاج الأفراد.

## 2 - 4 - المقاربة بالكفاءات: هل هي إصلاح أم تمييز؟

<sup>1</sup>Ayadi Yasmine, Un demi-million d'élèves quittent annuellement l'école Déperdition scolaire, pas moins dangereuse que l'analphabétisme, journal le jour d'Algérie, édition du 02/11/2009.

\* Les abandons se situent autour de 5,3% en 2007/2008 alors qu'ils étaient de 5,1% en 2006/2007. Ces abandons affectent plus de garçons (7,5%) que de filles (5,9%). Ils représentent 1,8% dans le primaire et s'élèvent à 10,6% dans le cycle moyen en 2007/2008 dans l'enseignement obligatoire par rapport au cycle secondaire Le taux des abandons s'est réduit de deux points et se situe à 16% en juin 2008 soit le même rythme que celui de 2006. Les garçons enregistrent un taux de 18,1% et les filles 14,5%. Rapport national sur le développement humain. coopération avec le PNUD, sous la direction du Conseil National Economique et Sociale CNES. Algérie 2008. p 28.

<sup>2</sup>Ayadi Yasmine, Op cit. p 1.

<sup>3</sup>Ibid. p1.

إن التوجه إلى إصلاح المنظومة التربوية هو التوجه إلى إصلاح المجتمع، باعتبار المنظومة التربوية النواة الرئيسية في المجتمع، فالإصلاح هنا يكون بمواجهة كل المعوقات الاعتباطية (الطبيعية والاجتماعية)، لأجل إعطاء كل فرد فرصة حقيقية، فرصة التعليم، التكوين، ونقصد بالمعوقات الاعتباطية الطبيعية والاجتماعية هو مبدأ التفاوت و/ أو الفارق بين الأفراد (التلاميذ) في الذكاء، في المستوى المعيشي كما أشرنا سابقا، وهذا الذي يؤكدته Rawls\*. إحد فلاسفة العقد الاجتماعي المعاصرين الذي يدعو إلى منح المتواضعين في قدراتهم الاجتماعية والطبيعية فرصة أكبر، وهذا بتخصيص نصيب أكبر من الموارد لصالح تعليمهم ورعايتهم وخلق أجواء تربوية تسمح للجميع بأن يرتقي بمشروع حياته، وكما يدعو إلى التعامل مع التربية ليس بمنطق الفعالية والرفاهية بل "أن للتربية دور آخر هو يمثل أهمية هذين المعيارين أو أكثر أقصد - يقول جون رولز - التربية في سبيل جعل الشخص قادرا على تذوق ثقافة مجتمعه و على لعب دوره داخله، وبالتالي إعطاء كل فرد الثقة فيقيمته الخاصة"<sup>1</sup> يركز جون رولز على المجتمع المؤسس على الحرية الديمقراطية، أي الحرية الحقيقية التي تسعى إلى تحقيق ما يسميه بالسلع الاجتماعية الأولية أو الخيرات الاجتماعية الأولية Primary Social Goods والتي تتمثل في الحريات الأساسية وفرص الحصول على وظائف اجتماعية إضافة إلى الامتيازات السوسيو-اقتصادية المتنوعة، ويرجع تفوق الفرد راجع إلى عدالة المؤسسات الاجتماعية فالمؤسسة حسب جون رولز "هي عادلة فقط عندما لا تقوم بأي تمييز تعسفي بين الأفراد في تخصيص الحقوق و الواجبات، وعندما تحدد توازنا مناسباً بين المطالب المتنافسة على الفوائد الاجتماعية"<sup>2</sup>، يركز جون رولز على الحرية الحقيقية "وليست الصورية كما هي عند هايك وتوافقها مع السمة الأساسية للعدالة الاجتماعية"<sup>3</sup> وهذا باعتماده على نمطين في التفكير، يتمثل الأول في فلسفة العقد الاجتماعي الذي جاء به توماس هوبس وبعده جون لوك وجان جاك روسو وإيمانويل كانط، أما الثاني فيتعلق بالتفكير الليبرالي النفعي عند هيوم وأدم سميث وجريسي بنثام وجون ستيوارت ميل، إذ تعتمد هذين المقاربتين نوعين مختلفين من التفكير، حاول جون رولز وضع مقاربة العدالة إلا أنه لم يتخطى مبدأ العدالة الاجتماعية المثالي، أو كما يسميه Sen بالمؤسسية المافوقية أو المؤسسات المثالية وذلك بتركيزها على المؤسسات أكثر من اهتمامها بالواقع الفعلي للأفراد ووفقا لهذا الطرح إذا نظرنا إلى التفوق والنجاح وال فشل في المنظومة التربوية الجزائرية كمؤسسة، فهي غير ذلك، فالرسوب والتسرب المدرسي هو رسوب اجتماعي بالدرجة الأولى، إذا يمكننا القول أن المؤسسة التربوية لم تكن عادلة لأنها لم تحقق المبدأ الأول والمتمثل في التمييز التعسفي الذي يفضي إلى اللامساوات وعدم تكافؤ الفرص، فالنسبة للراسبين لم يتبقى لهم فرصة التكوين (إن يمكن تسميتها فرصة) مع العلم أن 60% من الراسبين في المنظومة التربوية يذهبون مباشرة إلى التكوين المهني، لا كخيار ولا كفرصة، وإنما كحتمية تفرضها المستجدات السوسيو اقتصادية والتي يعبر عنها Sen وAmartya شكل من أشكال الحرمان من القدرات الأساسية والتي تفضي إلى مفهوم اللامساوات حيث يمثل هذا الأخير عند Sen "عدم تحقيق القدرات الأساسية لدى فئات معينة من المجتمع، حيث من الممكن درء حالات التفاوت هذه ومنح القدرات الأساسية لكل فرد في المجتمع

\* جون رولز (1921 - 2002)، فيلسوف أمريكي وأستاذ الفلسفة السياسية في جامعة برينستون، أكسفورد، هارفرد، يعتبر من منظري ومؤسسي الليبرالية الجديدة ومن فلاسفة العقد الاجتماعي المعاصرين، اهتم بالعدالة الاجتماعية، ومن أبرز مؤلفاته نظرية العدالة سنة 1971 التي لاقت اهتماما كبيرا خاصة في المجال الاقتصادي والاجتماعي.

محمد هاشمي، نظرية العدالة عند جون رولز: نحو تعاقد اجتماعي مغاير، دار توبقال، المغرب الأقصى، ط 1، 2014، ص 101.

<sup>2</sup> مراد ديان، اتساق الحرية الاقتصادية والمساواة الاجتماعية في نظرية العدالة، أو استقراء معالم النموذج الليبرالي المستدام لما بعد الربيع العربي، 2014 ص 14.

المرجع نفسه، ص 14.

بشكل مساو<sup>1</sup> إذ يعتبر Sen وعلى خلاف جون رولز أن ما يهم لتحقيق العدالة هو ليس تحقيق السلع الاجتماعية الأولية\*، وإنما في كيفية الانتفاع من هذه السلع الاجتماعية الأولية عن طريق القدرات الأساسية للفرد.

### 3 - التكوين المهني بين التقليدي والحديث.

إذا كان التكوين المهني يشكل اليوم إحدى الرهانات الأساسية ومن المرتكزات الضرورية لاكتساب الكفاءات المهنية وحرية تحقيق القدرات الأساسية في الاقتصاديات المتطورة في إطار النموذج الليبرالي الذي يتمحور في الأساس على مركزية الفرد وأصالته داخل البناء الاجتماعي، فإنه إلى حد الآن يعاني من نقص التنمية في كونه قطاعا تابعا لمنظومة التربية والتعليم (يضم التلاميذ الذين تحصلوا على نتائج سيئة ولم يستطيعوا بلوغ إما التعليم المتوسط أو الثانوي أو التعليم العالي) Réside la faille، فأى محاولة إصلاح أو تحديث تمس بالمنظومة التربوية تؤثر مباشرة على هذا القطاع، وخير دليل على ذلك تأثره الكبير في السنوات الأخيرة التي شهدت تطبيق المقاربة بالكفاءات والتي اعتبرت بمثابة الصدمة التي تلقاها قطاع التكوين المهني، من خلال استقباله لأعداد كبيرة من مخلفات نظام التعليم خاصة وأنها تعاني من نقص التعليم القاعدي والإعدادي، كما أشرنا سابقا.

ونتيجة لهذا التهميش وسوء التنظيم الذي عانى ويعاني منه قطاع التكوين المهني، كانت الدعوة إلى تحديده ورد الاعتبار له سنة 2008، ومن ثم إعادة ربطه بوزارة التكوين والتعليم المهنيين MFEP سنة 2011 وتكييفه مع التحولات الاقتصادية الحالية، إذ أصبح من الضروري تنميته لتلبية احتياجات الاقتصاد الوطني الذي يشهد تحولا بنويا، منمنط الاقتصاد الإداري إلى اقتصاد السوق، حيث يتطلب هذا الأخير يد عاملة مؤهلة قادرة على مواكبة تحولات سوق الشغل، والتي لا تتأتى إلا بالتكوين والرسكلة Recyclage عن طريق التكوين المتواصل لتنمية مهارات الأفراد و اكتساب كفاءة تمكّنهم من ضمان موطن عمل والمحافظة عليه أو ما يسمى بقابلية التشغيل (Employabilité).

أوجدت هذه التحولات الحاصلة على مستوى الاقتصاد بإعادة تنظيم المؤسسات العمومية وتطور المؤسسات الخاصة PME/PMI تغيرات كبيرة البنية المؤسساتية للتكوين والتعليم المهنيين سواء من حيث الهياكل والبنى القاعدية، أو من حيث الفروع والتخصصات، حيث تم تقسيم نشاط التكوين المهني إلى قسمين "التكوين المهني الأولي والتكوين خلال فترة التشغيل أو التكوين المتواصل، فالتكوين الأولي المجاني يقدم في مراكز عمومية وهدفه الأساسي الاستجابة إلى حاجيات تحدها بطاقة التكوين المهني، أما فيما يخص التكوين في طور التشغيل فإن المعطيات تشير إلى أن 80% من الخدمات يقوم القطاع الخاص بضمائها، في حين أن القطاع العام لا يضمن إلا أقل من 20% من الخدمات<sup>2</sup>، هذا ما يبرز التطور الكبير للقطاع الخاص خاصة في السنوات الأخيرة مقابل تراجع القطاع العام، هذا من حيث النشاطات، أما من حيث الفروع، فقد اشتمل التكوين المهني على فرعين أساسيين قبل مرحلة الإصلاح وهما "التكوين يجري في مراكز التكوين المهني والتمهين (CFPA)، وتكوين يجري على مستوى المعاهد المتخصصة للتكوين المهني (INSFP) ومعاهد التكوين المهني (IFP) والتي تتمثل مهامها في رفع مستوى

<sup>1</sup>مراد ديان، اتساق الحرية الاقتصادية والمساواة الاجتماعية في نظرية العدالة، أو استقراء معالم النموذج الليبرالي المستدام لما بعد الربيع العربي، مرجع سبق ذكره، ص 21.

\* يقدم أمارتيا سن على نقد مفهوم السلع الاجتماعية الأولية في نظرية العدالة عند جون رولز أو الصيغة الراولزية لمبادئ العدالة، حيث تصبح هي المسألة المركزية في الحكم على العدالة التوزيعية، هذا الذي يعتبره سن من الغلطات الشائعة عند جون رولز، إذ يعتبرها سن "السلع الاجتماعية الأولية" ليست إلا وسائل لأشياء أخرى لا سيما الحرية. أمارتيا سن، فكرة العدالة، ت: مازن جندلي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2010، ص 342.

<sup>2</sup>مجلة إنسانيات، المدرسة: رهانات مؤسساتية واجتماعية، المجلة الجزائرية في الأثرولوجيا والعلوم الاجتماعية، مرجع سبق ذكره، ص 18.

المكونين للقطاع<sup>1</sup>، جاءت هذه الهيكلية بعد الإحساس بضرورة هذا القطاع في الحياة الاقتصادية والاجتماعية ودوره الكبير في تلبية احتياجات المؤسسات. ووفق المخطط الوطني لدعم التشغيل والحد من بطالة الشباب تم إعادة توجيه التكوين وفق منطق الطلب.

### 3 - 1 - التطور الكمي للتكوين المهني في الجزائر.

وتتكون منظومة التكوين والتعليم المهنيين في الجزائر حاليا من:

أ - المؤسسات التابعة لوزارة التكوين والتعليم المهنيين (MFEP)<sup>2</sup> والتي تضم 1200 مؤسسة بقدرة استيعاب تقدر بـ 500000 متكون، والتي تتكون من 745 مركز تكوين وتمهين (CFPA) و 346 ملحقة (100 معهد متخصص في التكوين المهني (ISFP) والتي تضم 20 ملحقة. وفي سنة 2010 ضم هذا الصنف من التكوين 219000 متربص في التكوين الإقامي، و 247000 في التكوين عن طريق التمهين بمدة تكوين تصل إلى ثلاث سنوات في حين تنضم هذه المؤسسات دروس مسائية لـ 21000 متربص، كما يضم نمط التكوين عن بعد 35000، كما تخصص هذه المؤسسات دروس خصوصية لـ 55000 femme en zone rurale و 19000 gau foyer بالنسبة لـ 50 مؤسسة.

ب - مؤسسات التكوين التابعة لبعض الوزارات (الفلاحة، السياحة، الصناعة التقليدية، الصحة، ... الخ)<sup>3</sup> والتي تتوفر على حوالي 13000 مقعد بيذاغوجي موزعة على 50 مؤسسة.

ج - مؤسسات التكوين التابعة للمؤسسات الكبرى العمومية والخاصة<sup>4</sup>، التي أشرنا لها في أنماط التكوين والتي تعتمد على التكوين المتواصل أثناء العمل، كـ ETRHB، SIM، CEVITAL، NEDJMA، SAIDAL، ERCC، SONALGAZ، SONATRAC.

د - مؤسسات التكوين التابعة للمؤسسات الخاصة التابعة لـ<sup>5</sup> Association Nationale des Etablissements de Formation (ANEFA) والتي تضم حوالي 600 مؤسسة حيث قدرت قدرة استيعابها لـ 13000 متربص سنة 2013، إلا أنها لم تتمكن من استيعاب إلا 50%، وهذا راجع إلى إعادة هيكلة هذا الفرع طبقا للمرجعية القانونية التي نص عليها القانون الصادر سنة 2008 والذي يؤكد على تطبيق قانون الاعتماد (المؤسسات المعتمدة)\*.

لم تقتصر هذه التغيرات التي شهدتها ويشهدها التكوين المهني على التغيير على مستوى البنى القاعدية ورفع نسبة الاستيعاب أو على مستوى الشراكات المبرمة مع المؤسسات الاقتصادية، بل تم تدعيمها سنة 2012 بخلق مجموعة من التخصصات الجديدة، إضافة إلى تحديث التخصصات التقليدية التي تدخل ضمن اقتصاد المعرفة لمواكبة الاحتياجات المتزايدة للاقتصاد في ظل

نفس المرجع، ص 201.

<sup>2</sup> Cartographie de la gouvernance de la formation professionnelle en Algérie, gouvernance pour l'employabilité en méditerranée, rapport préparé par, Jean- Raymond Masson, cordonnée par l'ETF, sous la direction de la fondation européenne pour la formation, 2014, p8.

<sup>3</sup> Ibid. p8.

<sup>4</sup> Ibid. P8.

<sup>5</sup> Ibid. p8.

\*Ce réseau a été restructuré en référence à la loi de 2008 et à l'application de normes plus exigeantes dans les décisions d'agrément ; c'est ainsi qu'en, 2012, 1900 établissements ont vu leur agrément retiré pour non - respect des normes. De fait, ce secteur peine à se moderniser et souffre d'un manque d'investissement. Ibid. p8.

اقتصاد معلوم يحتاج إلى يد عاملة مؤهلة بمعايير عالمية تنافس اليد العاملة الأجنبية، لهذا باشرت وزارة التكوين والتعليم المهنيين سنة 2012 بخلق "123 تخصص من بينها 54 تخصص جديد و69 تخصص تم إعادة تعديله وتحديثه"<sup>1</sup>، وتتبع هذه التخصصات مجموعة من الفروع والشعب المهنية الجديدة حيث بلغ عددها "22 شعبة مهنية مع إعادة تخصصين جديدين (صناعة بترولية، مناجم) إضافة إلى مجموعة من التخصصات المرتبطة خاصة بالمجال الصناعي (المناجم، الطاقات المتجددة، الاتصالات، صناعات بترولية، النظافة وحماية البيئة، حماية الغابات،... الخ)"<sup>2</sup>. وقد أفرز هذا التحديث على مستوى الفروع والتخصصات تنوع في مستويات التأهيل لضمان تكافؤ الفرص للفئات الأقل حظا، إذ يكلل كل مستوى تكويني بشهادة نجاح تمكنه من ضمان منصب شغل، وتضمن منظومة التكوين والتعليم المهنيين للمتكونين الحصول على شهادة تأهيل وفق 05 مستويات<sup>3</sup>:

المستوى الأول: شهادة التكوين المهني المتخصصة (CFPS)

المستوى الثاني: شهادة التأهيل المهني (CAP)

المستوى الثالث: شهادة خبير مهني (CMP)

المستوى الرابع: شهادة تقني (BT)

المستوى الخامس: شهادة تقني سامي (BTS)

3 - 2 - تمويل التكوين المهني في الجزائر.

يبين الجدول التالي نسبة الإنفاق ونصيب هذه المنظومة من الدخل المحلي من سنة 1982 إلى سنة 2013<sup>4</sup>.

| السنة           | 1982 | 2004 | 2009 | 2010 | 2011 | 2012 | 2013 |
|-----------------|------|------|------|------|------|------|------|
| مجموع الإنفاق % | 0.14 | 1.36 | 0.99 | 1.11 | 1.06 | 1.09 | 1.09 |

Source : ministère de finance

بعد كل هذه الاستراتيجيات لا يزال هذا القطاع يعاني من نقص الإنفاق رغم الزيادة المعتبرة التي شهدتها ابتداء من سنة 2010 إلا أنه لم يتعدى 1%. لكن هنا يمكننا الإشارة إلى وجود اختلاف كبير فيما يخص إنفاق الدولة والإنفاق الحكومي، فحسب تقرير (ETF) الاتحاد الأوروبي حول التكوين المهني في الجزائر 2014، "أن نسب تمويل التكوين والتعليم المهنيين في

<sup>1</sup> (MFEP) Ministère de la Formation et de l'Enseignement Professionnelle, NOMENCLATURE : des branches de la formation professionnelle, (arrêté n° 91 du définissant la nomenclature des branches professionnelles et spécialités de la formation professionnelle et finissant la liste des spécialités), Alger, Edition 2012, p 4. WWW.mfep.gov.dz.

<sup>2</sup> Ibid. p 3.

<sup>3</sup> Ibid. p6,

<sup>4</sup> Ibid. p14.

الجزائر ارتفعت سنة 2012 لتصل إلى 8% من الناتج المحلي الخام مقارنة بـ 4.3% و 3% في سنة 2007<sup>1</sup>، وحسب نفس التقرير فإن تمويل منظومة التكوين والتعليم المهنيين يعتمد على عدة مصادر، فإلى جانب تخصيص المشاريع من طرف الدولة والتي تتمثل في الميزانية المتعلقة بالتسيير وميزانية التجهيز، هذا فيما يخص ميزانية الدولة، مع العلم أن تمويل منظومة التكوين والتعليم المهنيين لا يقتصر على مصدر واحد للتمويل، بل يلجأ التكوين إلى التمويل الدولي حيث لا تستطيع الحكومة أن تمول تكوين الكفاءات الضرورية لنموذج الاقتصاد الحديث، لهذا يكون التمويل "عبر التعاون الثنائي و/أو المتعدد الأطراف للمشاريع الرامية إلى النمو المتزايد للقطاع ... ويبقى الاتحاد الأوروبي واحد من أهم المتدخلين في هذا المجال عن طريق برنامج (ميدا 1 وميدا 2)\* في مشاريع عديدة لها صلة بتنمية الموارد البشرية وقيادة وهندسة التكوين والتعليم المهنيين وربطه بطلب المؤسسات في مجال التأهيل المهني"<sup>2</sup>. كان هذا نتيجة التوجه الجديد للدولة الجزائرية التي كانت أولى بودره سياسة التصحيح الهيكلي المفروضة من صندوق النقد الدولي، والتي تهدف إلى تحرير الاقتصاد الجزائري بفك ارتباط الدولة بالمجال الاقتصادي والاكتفاء بدور الحماية المعروف بالنموذج الليبرالي على خلاف دولة الرعاية في النموذج الاشتراكي، ما يؤدي إلى زيادة الانفتاح على العالم الخارجي.

خاتمة:

بعد التطرق إلى كل المساهمات الفعلية والاستراتيجيات المعمول بها لتحديث التكوين والتعليم المهنيين وإعطائه أهمية كبيرة، ورد الاعتبار له باعتباره من المنافذ الناجحة للاستثمار في المورد البشري واستغلال الطاقات البشرية بصفتها نوع من أنواع رأس المال، تبقى الإشكالية المطروحة والحلقة الأهم هي نقص التمويل، وهو الشيء ذاته الذي كان يعاني منه قطاع التكوين المهني قبل سنوات الإصلاح. من جهة أخرى تبقى نظرة المجتمع للتكوين المهني من العوامل التي ساعدت على فقدانه للقيمة الاجتماعية التي يحظى بها التعليم العام باعتبار التكوين المهني القطاع الثالث من المنظومة التربوية. إذا فلا يمكن بأي حال من الأحوال خلق القيمة الاقتصادية للتكوين المهني ما لم نمحّه قيمة اجتماعية التي تجعله ينافس التعليم العام. فتطوير التكوين المهني وتحديثه لا يكمن في المنشآت القاعدية والبرامج بل يرقى إلى مستويات أكبر من ذلك.

قائمة المراجع:

المراجع باللغة العربية:

- 1) إبراهيم عبد الله، حميدة مختار، دور التكوين في تثمين وتنمية الموارد البشرية، مجلة العلوم الانسانية، جامعة محمد خيضر بسكرة، العدد 7، فيفري 2005.
- 2) صالح صالح، آمال شوتري، التكوين المهني بين خصوصية ومنطق الطلب، مقال منشور بدون سنة.

<sup>1</sup> Cartographie de la gouvernance de la formation professionnelle en Algérie, gouvernance pour l'employabilité en méditerranée, Op.cit. p 13.

\* يتعلق برنامج ميدا 1 بدعم تأهيل التكوين المهني والمؤسسات أي فيما يخص تجهيزه من خلال البنى القاعدية من جهة، وتطوير المؤسسات 1999 – 2004، 38 مليون أورو كدعم، أما برنامج ميدا 2، الذي يرمي إلى دعم وتطوير التكوين المهني في قطاعات السياحة والنسيج والتقنيات الجديدة للإعلام والاتصال 2003 – 2007: 50 مليون أورو من الدعم. أنظر: مجلة إنسانيات، المدرسة: رهانات مؤسساتية واجتماعية، مقالة بعنوان، التكوين المهني ودعم التشغيل في البلدان المغاربية: إصلاحات وسيرورات اجتماعية، من إعداد نورية بن غبريط وآخرون، ص 23.

<sup>2</sup> مجلة إنسانيات، المدرسة: رهانات مؤسساتية واجتماعية، المجلة الجزائرية في الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية، مرجع سبق ذكره، ص 23.

- (3) مركز دراسات الوحدة العربية، الجزائر: " إشكاليات الواقع ورؤى المستقبل "، سلسلة كتب المستقبل العربي (64)، ط 1، بيروت، 2013.
- (4) شادي حلي، واقع التعليم المهني والتقني ومشكلاته في الوطن العربي، دراسة حالة (الجمهورية العربية السورية)، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، عدد 28، تشرين الأول، 2012.
- (5) إيمان محمود دسوقي عويضة، المشكلات التي تواجه أعضاء جماعة التكوين المهني ودور خدمة الجماعة في مواجهتها، دار الوفاء، ط 1، 2011.
- (6) بلقاسم سلاطينية، سوسيولوجيا التكوين المهني وسياسة التشغيل في الجزائر، جامعة منتوري قسنطينة، عدد 10، 1998.
- (7) مجموعة من الباحثين، المدرسة: رهانات مؤسساتية واجتماعية، إنسانيات، المجلة الجزائرية في الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية كراسك – وهران، عدد مزدوج 60-61، أبريل-سبتمبر، 2013.
- (8) راضية ويس، المقاربة بالكفاءات ماهيتها ودواعي تبنيها في المنظومة التربوية الجزائرية، مجلة البحوث والدراسات الانسانية، جامعة سكيكدة، العدد 11-2015.
- (9) محمد هاشمي، نظرية العدالة عند جون رولز: نحو تعاقد اجتماعي مغاير، دار توبقال، المغرب الأقصى، ط 1، 2014.
- (10) مراد دياني، اتساق الحرية الاقتصادية والمساواة الاجتماعية في نظرية العدالة، أو استقراء معالم النموذج الليبرالي المستدام لما بعد الربيع العربي، سنة 2014.
- (11) أمارتيا سن، فكرة العدالة، ت: مازن جندلي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط 1، 2010.
- المراجع باللغة الفرنسية:

- 1) Dominique Pouchard, Christiane Lagabriele et SaniaLaberon, Validation des acquis de l'expérience, une dynamique professionnelle ? Univ bordeaux, rapport de recherche, 2011.
- 2) Arlette Mucchielli-Bourcier, Apprendre à apprendre, repenser la formation, édition ESF ? Paris, 1999.
- 3) Baillif Clarisse, une réévaluation du taux de croissances des gains liée à l'éducation en situation de déséquilibre sur le marché, thèse de DEA, Univ de Lille 1, 2002-2003
- 4) Pierre Casse, la formation permanente, office de la publication universitaire, Paris, 1994.
- 5) Claude Dubar, Pierre Tripiet, sociologie des professions, par Philippe Charrier, l'homme et la société, n°134, Paris, 2015
- 6) Insaniyat, L'école : enjeux institutionnels et sociaux, revue algérienne d'anthropologie et de sciences sociales CRASC, Oran, n° 60-61, avril – septembre 2013, (vol. 17, 2- 3).
- 7) Ayadi Yasmine, Un demi-million d'élèves quittent annuellement l'école Déperdition scolaire, pas moins dangereuse que l'analphabétisme, journal le jour d'Algérie, édition du 02/11/2009.

8) Rapport national sur le développement humain، coopération avec le PNUD، sous la direction du Conseil National Economique et Sociale CNES، Algérie 2008.

9) Cartographie de la gouvernance de la formation professionnelle en Algérie, gouvernance pour l'employabilité en méditerranée, rapport préparé par, Jean- Raymond Masson, coordonné par l'ETF, sous la direction de la fondation européenne pour la formation, 2014.

10) (MFEP) Ministère de la Formation et de l'Enseignement Professionnelle, NOMENCLATURE : des branches de la formation professionnelle, (arrêté n° 91 du définissant la nomenclature des branches professionnelles et spécialités de la formation professionnelle et finissant la liste des spécialités), Alger, Edition 2012.  
[WWW.mfep.gov.dz](http://WWW.mfep.gov.dz)

## أهمية تنظيم التوقيت المدرسي في مرحلة التعليم الابتدائي

L'importance de l'organisation de l'emploi du temps dans l'enseignement primaire

أ.د. لويذة معروف خلفان/جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر

شفيقة داود/ جامعة جيلالي بونعامة، خميس مليانة، الجزائر

### ملخص :

يظهر من خلال هذا المقال بأن الفرد بصفة عامة و المتعلم بصفة خاصة يخضع لتواترات دورية و هي تواترات بيولوجية و نفسية تؤثر على حياته وعلى أدائه وعلى سلوكياته ،فهي التي تحدد أوقات خصبة أين تكون الوظائف البيولوجية والنفسية تبلغ أقصى حد و هذه تمثل في الأوقات الخصبة للعمل والدراسة ، و أوقات عقيمة أين تكون تلك الوظائف في أدنى حدّها ، و هذا ما بيّنته ميداني الكرونونفسية و الكرونوبيولوجية .

و عليه توجب احترام وتيرة المتعلم المدرسية سواء أن كان في مدة النوم التي يقضيها في الليل،و في تغيراته اليومية و الأسبوعية لنشاط الفكري لديه ، و كذا في الأنشطة التي يقوم بها خارج المدرسة . وهذا بهدف تنظيم التوقيت المدرسي بشكل يخدم وتيرته و احترامها من اجل تحقيق جودة التعليم.

الكلمات المفتاحية : تنظيم التوقيت المدرسي، المتعلم ،الانتباه ،النوم، النشاطات خارج المدرسة.

### Resumé :

Cet article montre que l'individu en général et l'élève en particulier est soumis à des tensions rythmes périodiques, qui sont des tensions rythmes biologiques et psychologiques affectant sa vie, ses performances et son comportement, qui déterminent des périodes fertiles où les fonctions biologiques et psychologiques sont maximales et qui sont en ces temps fertiles pour travailler et étudier. Aussi il y a des temps stériles où ces fonctions sont minimisées, comme il est prouvé dans les domaines de chronopsychologie et de chronobiologie. Et pour cela , il est nécessaire de respecter le rythme de l'élève, que ce soit le temps de son sommeil et son attention, ainsi ses activités extra scolaires, dans le but de proposer des emplois du temps qui respectent les rythmes chronopsychologique et chronobiologique pour atteindre une éducation de performance .

**Mots clés :** organisation de l'emploi du temps , élève , attention, sommeil, activistes extra scolaires.

## مقدمة :

يعتبر تنظيم التوقيت المدرسي من أهم مواضيع الساعة التي لفتت نظر المنظومة التربوية سواء في الجزائر أو في الدول الأخرى، وهذا نظرا لأهميته في تحقيق التجديد التربوي و الرفع من الجودة، و ذلك بعد عدة من المحاولات العديدة التي تقوم بها الوزارة الوطنية منذ 2011 و المساهمات المعتبرة لفرقة بحث الوتيرة المدرسية برئاسة الباحثة معروف و التي نظمت الملتقى الدولي الأول حول الموضوع (ماي 2011)، حيث توصلنا إلى قراءة تحليلية معمقة لما يعتمد من جداول زمنية في مؤسساتنا تجعلنا نقف على تناقضات عدة بين ما يؤكدده مجال الوتيرة المدرسية تنظيرا و ما هو واقع المعاش (كبرمجة العطل و الأنشطة)، وكما أن تنظيم التوقيت المدرسي يعد كإحدى دعائم التحديث والتغيير، و شكلا من أشكال الرفع من المردودية، فاستعمال الزمن و استثماره في تدبير المكان و المادة الدراسية يمثل أحد أسس تحسين جودة التعليم.

### 1- تعريف التوقيت المدرسي :

تشير وزارة التربية الوطنية (2005) إلى أن التوقيت أو استعمال الزمن أو الزمن البيداغوجي عبارة عن عمل تربوي، بيداغوجي هام يسمح لمجموعة من الأجيال التربوية بالمؤسسة بممارسة أنشطة بيداغوجية و تربوية تحت إشراف مجموعة من المدرسين المعنيين لهذا الغرض ، و يتم ذلك في أوقات محددة و أماكن معينة ، و أنه يتفاعل مع ثلاثة عناصر أساسية : العنصر البشري (المدرس و المتعلم) ، عنصر الزمن ( الوقت)، و عنصر المكان (القاعات الدراسية العادية و المتخصصة).

لذا فالتوقيت عملية بالغة الأهمية في سير المؤسسة التربوية ، وخاصة من حيث النشاط البيداغوجي و يجسد فيها التعليمات و المواقب الرسمية الخاصة لكل مادة و إجراءات تطبيقها في الميدان على شكل وحدات بيداغوجية موزعة على مختلف أيام الأسبوع بالتساوي و بالمنهجية ، لتكون لصالح المتعلم و في خدمته اذ يمثل محور العملية التعليمية<sup>1</sup>.

و كما يرى المعهد الوطني للبحث في التربية ( INRE ) ( 2011 ) أنه يمكن النظر الى الزمن الدراسي حسب رأي الباحثين من وجهين :

- الوجه الأول : يتمثل في كمية الحجم الساعي اليومي و الاسبوعي و السنوي الرسمي و في كيفية توزيعه .
  - الوجه الثاني : يتمثل في نوعية التعليم الممنوح للمتعلم من خلال علاقة مضايمين أنشطة التعليم بتعليمات المتعلمين<sup>2</sup> .
- وعليه يتم قياس فعالية الزمن الدراسي على المتعلمين من خلال الرابط بين المدة الاجمالية لزمان دراستهم الدراسي و النجاح . و هذا ليس معناه أن الحجم الساعي الأكبر هو الذي يحقق أفضل النتائج قد يكون العكس ، و انما يعود الى المحتوى و الى احترام الوتيرة البيولوجية و النفسية للمتعلم.

### 2- أهمية تنظيم التوقيت المدرسي :

يكتسي تنظيم الوقت المدرسي أهمية كبيرة في حياة المؤسسة التربوية مما يحقق من الأهداف في اطار تنظيم النشاطات لمشروع المؤسسة و التي تلخصها وزارة التربية الوطنية ( 2005 ) الى ما يلي :

<sup>1</sup>- وزارة التربية الوطنية ( 2005 ) : وحدة التسيير البيداغوجي ، المعهد الوطني لتكوين مستخدمي التربية و تحسين مستواهم ، سند تكويني لفائدة مديري مؤسسات التعليم الثانوي و الاكمامي . الجزائر ، ص 23-24 .

<sup>2</sup>- بحث و تربية ( 2011 ) : مجلة جزائرية للبحث التربوي يصدرها المعهد الوطني للبحث في التربية ، عدد 1 ، جويلية ، الملف الوتيرة المدرسية ، التنظيم الجديد للزمن الدراسي في مرحلة التعليم الابتدائي ، ص 9 .

- التحكم في النظام و حسن التسيير للموارد البشرية و المادية و المالية .
- تنظيم و استغلال كل الطاقات البشرية و الوسائل التعليمية استغلالا امثل .
- ضمان تطبيق التعليمات و التوجيهات الرسمية .
- خلق التكامل و الانسجام و التوازن في استعمال كل الوسائل المادية و البشرية و الهياكل و تحقيق الأهداف المبرمجة .
- خلق التوازن و الانسجام بين مختلف النشاطات التربوية .
- توفير كل الشروط الموضوعية لأداء النشاطات التربوية .
- حسن استغلال كل الامكانيات و الوسائل العلمية و التعليمية لإجراء الأعمال التطبيقية .
- ضمان التحكم في توظيف الفائض من القاعات في تنظيم النشاطات الثقافية و الحصص التدعيمية .
- حسن التحكم في النظام الداخلي للمؤسسة و المرافق الاجتماعية .
- تحسين و تطوير أداء الفعل التربوي للمعلمين و تثمين جهودهم .
- السماح بتأطير المتعلمين لممارسة مختلف الأنشطة المبرمجة .
- التنظيم الجيد لخدمات المعلمين يؤدي الى محاربة ظاهرة الغيابات عندما تؤخذ بعين الاعتبار حاجة الموظف لنصف يوم في الأسبوع لقضاء أموره الشخصية .
- تسهيل عملية الرقابة و المتابعة و التقويم .
- رفع المردود المدرسي و التحصيلي .
- يضمن للنشاطات البيداغوجية و التربوية حقها في التنظيم بين الوحدات التربوية<sup>1</sup>.
- 3- اهداف تنظيم التوقيت المدرسي ( الزمن البيداغوجي ) :

إن تنظيم التوقيت المدرسي يعد من بين العوامل المساهمة في نجاح المتعلمين ، وعليه كان لا بدّ من الاهتمام بتنظيم الأنشطة التعليمية التعلمية في اليوم والأسبوع و السنة الدراسية و توزيعها وفق معايير تربوية تهدف أساسا إلى ضمان توازن أفضل للمتمدرسين والحفاظ على صحتهم الجسمية والنفسية مما يؤدي بالضرورة إلى الرفع من نوعية التعليم وتحسين عملية التعلم ومردوديته .

- وبناء عليه، فإن دليل تنظيم التوقيت المدرسي أو الزمن البيداغوجي في المدرسة الابتدائية وضع أساسا لتحقيق جملة من الأهداف الأساسية أهمها و التي تلخصها وزارة التربية الوطنية (2009) في النقاط الآتية:
- تقليص وتجنب هدر الوقت المخصّص للدراسة بالقضاء على العوامل المتسببة في ذلك .
- مساعدة المديرين على حسن توظيف المؤسسات التربوية بشكل يسمح باستغلال كل الزمن الدراسي السنوي ، وكل الفضاءات المتوفرة لتحقيق الأهداف المسطرة .
- خلق توازن بين نشاطات المتعلم داخل المدرسة وخارجها ، مع توزيع فترات الدراسة و الراحة ، وتنوع الأنشطة بشكل يسمح بالتدرّج في سير عملية التعليم و التعلّم<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> - وزارة التربية الوطنية (2005) : وحدة التسيير البيداغوجي ، المعهد الوطني لتكوين مستخدمي التربية و تحسين مستواهم ، سند تكويني لفائدة مديري مؤسسات التعليم الثانوي و الاكمامي . الجزائر ، ص 31-32 .

<sup>2</sup> - وزارة التربية الوطنية (2009) : دليل تنظيم الزمن البيداغوجي في المدرسية الابتدائية ، المفتشية العامة ، الجزائر ، ص 1 .

الى جانب ذلك ، يشير المعهد الوطني للبحث (INRE) (2011) مجموعة من الأهداف التي تهدف الى تحقيق التكامل بين وتيرة المتعلم و التوقيت المدرسي و اهمها ما يلي :

- ضرورة مواكبة التطورات الحاصلة في العالم المتقدم تربويا فيما يخص الوتيرة المدرسية ، خصوصا ما أضافته العلوم النفسية و التربوية الجديدة ، مثل الكرونونفسية والكرونوبولوجية ، من أفكار و حقائق علمية لها أثر فعال في بناء منظومة ووقتية مدرسية ناجعة .

- مراعاة المنظومة الزمنية الدراسية المعمول بها لدى الدول المتقدمة كفرنسا وفنلندا ... الخ من الدول ، خاصة فيما يخص الحجم الساعي الدراسي و نظام المنطقية ، خصوصا كون الجزائر بلد شاسع المساحة ، مترامية الأطراف ، تتنوع فيها المناخات و الظواهر الفلكية .

- التعرف على الواقع الميداني الحقيقي لتأثير التوقيت المدرسي في الواقع الاجتماعي و المردود الدراسي لمتعلم الجزائري.

- التفكير العلمي و الموضوعي من أجل وتيرة مدرسية تضع مصلحة المتعلم الجزائري محورا و غاية لها .

- تذبذب حالات التمدرس المرتبطة بالمواقف الحالية من جهة ، و في الخصائص السوسيو ثقافية لكثير من المناطق النامية للوطن من جهة ثانية و هذا يعود الى عدم احترام الوتيرة المدرسية<sup>1</sup>.

وعليه ، فان التوقيت المدرسي ( الزمن البيداغوجي ) يهدف الى تحقيق مجموعة من الاهداف أهمها : السير الحسن للمؤسسة التربوية ، استغلال الامكانيات البشرية و المادية وفق خطة محكمة تساعد على التفاعل الديناميكي المستمر طيلة السنة الدراسية و هذا من أجل تحقيق التوافق النفسي الاجتماعي و الدراسي للمتعلم وصولا إلى تلبية حاجياته النفسية و البيولوجية له .

#### 4- أنواع الزمن البيداغوجي :

لتنظيم التوقيت المدرسي يجب مراعاة نوع الزمن و الذي يتنوع من حصة لأخرى ، و التي ينقسم الى أربعة أزمنة، و الجدول التالي يوضح ذلك<sup>2</sup>:

<sup>1</sup> - بحث و تربية ( 2011 ) : مجلة جزائرية للبحث التربوي يصدرها المعهد الوطني للبحث في التربية ، عدد 1 ، جويلية ، الملف الوتيرة المدرسية ، التنظيم الجديد للزمن الدراسي في مرحلة التعليم الابتدائي . ص 27\_ 28 .

<sup>2</sup> - وزارة التربية الوطنية ( 2009 ) : دليل تنظيم الزمن البيداغوجي في المدرسية الابتدائية ، المفتشية العامة ، الجزائر ، ص 9 .

جدول رقم (1) : يمثل أنواع الزمن البيداغوجي .

| أهمية الزمن  | نوع الزمن البيداغوجي |
|--|----------------------|
| و هو المقرر لتنفيذ المناهج التعليمية الرسمية من طرف الوزارة التربوية .                       | الزمن الرسمي         |
| ما ينفقه المدرّس في حجرة الدرس مع المتعلمين لتنفيذ المناهج التعليمية المعتمدة .              | الزمن الفعلي         |
| هو الزمن المخصص للدراسة ولكنه لا يستخدم للتعلم وإثما ينفق في الانتظار و التنقل و ضبط القسم . | الزمن الضائع         |
| وهو ما ينفق في تطبيق المناهج إلى جانب أنشطة الدعم والمعالجة والتقويم و الأنشطة اللاصفية .    | الزمن الكلي          |

ومن أنواع الزمن البيداغوجي المشار اليه في الجدول السابق ، وعن الدراسة الحالية ما يهم الامر هو الزمن التعلم الفعلي ، و التي تشير اليه وضيحي ( 2013) هو مجموع الاسباع المقررة للدراسة خلال العام الدراسي ، بحيث يجب أن تكون عدد الاسباع و الايام المقررة للدراسة معروفة و محددة وموحدة بالنسبة للمعلمين و المتعلمين و موزعة على جميع المواد الدراسية ، و تكمن أهمية تحديد زمن التعلم الفعلي ، في دوره المحوري لتأمين استفادة المعلمين من كل الحصص المقررة ، في كل مادة دراسية خلال العام الدراسي ، والحيلولة دون ضياعها أو هدرها ، ولكن يجب الاخذ بالاعتبار ضمان استثمار زمن التعلم الفعلي كزمن للتعلم<sup>1</sup> .

و على هذا الأساس ، يعتبر زمن التعلم الفعلي عنصراً مؤثراً في النظام التعليمي ، حيث يعد حسن استثمار الوقت المخصص لهذه العملية من انجع السبل في تحقيق جودة التعليم ، و احراز افضل النتائج في الممارسات التدريسية ، و إدارة زمن التعلم التي تعتمد على التخطيط المنظم لأيام العام الدراسي ، و وفق الية تلتزم بها كافة الإدارة المدرسية ، و لاشك أن الالتزام بهذا التنظيم يضمن توفير الزمن اللازم للتعلم ، مما يمكن المتدربين من اكتساب الكفايات التعليمية المنشودة ، و يكفل لتحقيق جودة مخرجات التعليم .

<sup>1</sup> - وضيحي بنت سيف الجهوري ( 2013) : المناهج الدراسية و زمن التعلم الفعلي ، القلم ، صحيفة تربوية إلكترونية ، ص 1 .

و منه، مما يسمح بتنظيم العام الدراسي في النظام التعليمي ، و ذلك بتحليل عدد الايام ، الساعات التدريس، ايام الامتحانات، و الاجازات للعام الدراسي الواحد ، يعني ذلك من خلال هذا النظام يتم تقسيم السنة الى وحدات زمنية<sup>1</sup>.

#### 5- أساسيات لتنظيم التوقيت المدرسي في المرحلة الابتدائية :

توضح وزارة التربية الوطنية (2009) من أساسيات لتنظيم التوقيت يجب مراعاة النقاط التالية تفاديا مشاكل التعليمية و التعلمية تماشيا مع المقاييس الدولية لتحسين أفضل لشروط التمدرس و محاربة الفشل المدرسي و هي كما يلي :

- تخصيص أمسية يوم الثلاثاء للأنشطة اللاصفية ، و لتنظيم حصص الدعم البيداغوجي خصوصا لتلاميذ السنة الخامسة ابتدائي و للتنسيق بين المعلمين و للتكوين .
- توفير فضاء زمني ضمن التوقيت الأسبوعي لأنشطة المعالجة التربوية في مواد التعلّم الأساسية ( اللغة العربية ، الرياضيات، اللغة الفرنسية).
- اعتماد حصص ذات 45 د في كل الأنشطة التعليمية ، ضمانا للفعالية و تجنباً للرتابة و الملل.
- تقسيم اليوم الدراسي إلى أربع فترات زمنية (عدا يوم الثلاثاء فترتين فقط) كل فترة تتضمن حصتين تعليميتين، و تعقب كل فترة استراحة مدتها 15 دقيقة .
- تخصيص مدة 15 د. في بداية كل يوم دراسي أي (من 8 إلى 8 و 15 د ) لنشاط التربية الخلقية على أن يسند لمعلم اللغة العربية أو معلم اللغة الفرنسية أو الأمازيغية.
- الحرص على توحيد مواعيد دخول التلاميذ إلى المدرسة و خروجهم منها مراعاة للانسجام في تنظيم الزمن البيداغوجي<sup>2</sup> إلى جانب ذلك ، يشير المعهد الوطني للبحث في التربية (INRE) (2011) من أساسيات تحقيق جودة التعليم ما يلي:
- التوزيع المتوازن للفترات المخصصة للدراسة و الفترات المخصصة للراحة ، مراعاة المعطيات المتعلقة بالوتيرة المدرسية في استعمال الزمن الدراسي ، توافق الحجم الساعي السنوي مع محتويات المناهج الدراسية المقررة ، ترقية و تنمية النشاطات اللاصفية باعتبارها بعدا مكملا للنشاطات التعليمية ، مما يضمن النمو الشامل للمتعلم بكل ابعاده التربوية.
- توزيع أفضل لساعات التدريس اليومية و الأسبوعية و السنوية ، و هذا ما بينته الدراسات الكرونوبولوجية و الكرونونفسية أن هناك تغيرات في النشاط الفكري لدى المتعلمين أثناء اليوم بسبب تأثير الوتيرة البيولوجية ، و أثناء الأسبوع بسبب تأثير استعمال الزمن الدراسي. كما أن عطلة نهاية الأسبوع تؤثر سلبا في أداءات كل التلاميذ في اليوم الأول بعد العودة إلى الدراسة .
- احترام الأوقات الضعيفة و الأوقات قوية في اليوم فيما يخص الانتباه لدى المتعلمين : ارتفاع للأداءات طوال فترة الصباحية ، ثم انتكاسه أثناء فترة الغذاء ، ثم عودة إلى الارتفاع بعد الظهر<sup>3</sup> .
- وعليه، من معايير لإنجاح عملية تنظيم التوقيت المدرسي بصفة عامة و بصفة خاصة بالجزائر و هذا حسب تجارب كل من Montagner & Testu اللذان ينصبان على وجوب :

<sup>1</sup> - وضي بنت سيف الجهوري (2013): المناهج الدراسية و زمن التعلم الفعلي ، القلم ، صحيفة تربوية الكترونية ، ص 2\_1 .

<sup>2</sup> - وزارة التربية الوطنية (2009) : دليل تنظيم الزمن البيداغوجي في المدرسية الابتدائية ، المفتشية العامة ، الجزائر ، ص 5 .

<sup>3</sup> بحث و تربية (2011): مجلة جزائرية للبحث التربوي يصدرها المعهد الوطني للبحث في التربية ، عدد 1 ، جويلية ، الملف الوتيرة المدرسية ، التنظيم الجديد للزمن الدراسي في مرحلة التعليم الابتدائي ، ص 9 - 17 .

- احترام عدد فترات العمل ( 5 فترات ) و عدد فترات الراحة ( 4 فترات ) .
- أن لا يتعدى الحجم الساعي السنوي ( 936 ) ساعة .
- أن لا تتعدى أقصى مدة يومية للدراسة 6 ساعات .
- أن لا يتجاوز الحجم الساعي الدراسي الأسبوعي 27 ساعة .
- أن يكون أقصى عدد أيام الدراسة الأسبوعية 5 أيام .
- أن لا تقل مدة العطل الصغيرة عن 10 أيام <sup>1</sup> .

#### 6- علاقة تنظيم التوقيت المدرسي بالوتيرة المدرسية ( مدة النوم ، الانتباه و النشاطات خارج المدرسة ) :

يوضح المعهد الوطني للبحث في التربية ( INRE ) ( 2011 ) أنه يمكن تعريف الوتيرة المدرسية من جانبين و هما : الجانب الأول هو التداول المنتظم لأوقات الراحة و النشاط الذي تفرضه المدرسة ، أي تنظيم الزمن الدراسي من خلال جداول التوقيت و رزنامة العطل و أما الجانب الثاني يتمثل في التغيرات البيولوجية و الفيزيائية و النفسية للطفل و المراهق أثناء التمدريس <sup>2</sup> .

وكما تضيف معروف ( 2008 ) إلى وجود عوامل بيولوجية و نفسية لها ارتباط بتغيرات زمنية. فاعتبرت الساعة الدراسية الأولى من الفترة الصباحية و المسائية عقيمة من حيث توظيف القدرات المعرفية ، بينما ترتفع الفعالية المعرفية على الساعة الحادية عشرة و على الساعة الرابعة بعد الزوال. و هذا يعود الى وجود تغيرات تطراً على أنماط الأداءات اليومية و الأسبوعية للانتباه و للسلوكات داخل القسم مع إبراز أهمية احترام مدة النوم الليلي و برمجة النشاطات خارج المدرسة للمتعلم <sup>3</sup> .

و هذا ما تؤكد دراسة معروف و خلفان ( 2008 ) المعونة الوتيرة المدرسية مفهوم مهم ، التي تهدف في تهيئة جداول التوقيت اليومية و الأسبوعية من منظور كرونونفسي و كرونوبولوجي ، حيث تبين أن الوظائف الفيزيولوجية للطفل و الراشد تخضع لتغيرات تواترية مصدرها ساعة داخلية تعدل يوميا حسب العوامل الدورية للمحيط كالتناوب ليل – نهار. فالضوء يعتبر متزامنا أساسيا للوتيرة اليومية ، بينما يعتبر جدول التوقيت متزامنا محيطيا يمكن أن ينسجم مع وتيرة الأطفال. وقد بين الباحثون أن النوم عامل ضروري للصحة الجيدة و لسرعة و نوعية التعلم. كما تبين من الدراسات الكرونوبولوجية و الكرونونفسية ، أن هناك أوقاتا في اليوم المدرسي للانتباه و للأداء و للفعالية المدرسية و للتكيف للحالة المدرسية و النوم الليلي و النشاطات خارج المدرسة <sup>4</sup> .

مما سبق يظهر بأن هناك عوامل يجب أخذها بعين الاعتبار عند تنظيم التوقيت المدرسي من أجل وضع تنظيمه بشكل يساعد المتعلم على استعمال قدراته في التعلم بسهولة. لذا توجب على المسؤولين في احترام وتيرة الطفل عند تنظيمهم للوقت المدرسي و ذلك بالرجوع إلى النتائج التي توصلت إليها البحوث الكرونونفسية و الكرونوبولوجية.

<sup>1</sup> - نفس المرجع ، ص 64 .

<sup>2</sup> - نفس المرجع ، ص 9 .

<sup>3</sup> - معروف لويزة ( 2008 ) : أثر نمط تنظيم الوقت المدرسي على كل من الانتباه و السلوك و مدة النوم الليلي و النشاطات خارج المدرسة عند تلاميذ المرحلة الابتدائية ( السنة السادسة ) ، رسالة دكتوراه في علوم التربية ، جامعة الجزائر 2 ، ص 25 .

<sup>4</sup> - بحث و تربية ( 2011 ) : مجلة جزائرية للبحث التربوي يصدرها المعهد الوطني للبحث في التربية ، عدد 1 ، جويلية ، الملف الوتيرة المدرسية ، التنظيم الجديد للزمن الدراسي في مرحلة التعليم الابتدائي ، ص 35 .

1-6-مدة النوم : يرى كل من أسعد و كحلة ( 2009) أن النوم حالة وظيفية حيوية هامة لها اهميتها في استعداد النشاط ، وحفظ الاتزان الداخلي اللازم لإمداد الجسم و العقل بالطاقة اللازمة لمواصلة القيام بعمله<sup>1</sup>. و هذا ما توصلت اليه الدراسات و الأبحاث حيث الحرمان من النوم بشكل عام ( كامل ) يؤثر سلبا على الجانب النفسي للفرد، فانه يؤدي على المدى القصير الى انخفاض قوة الانتباه و في النشاط العام ككل ، كما أنه يزيد من امكانية حدوث الارتباك ، كذلك تقل القدرة على الاداء خاصة اداء المهام التي تتطلب أكثر من ( 10 – 15 ) دقيقة من الانتباه، و النقص في دقة و زمن أداء المهام اليومية و تزداد الأخطاء عند أدائها .

و قد أفادت بعض التجارب بأن انقاص النوم الى 3 ساعات يؤدي الى نقص المقدرة على القيام بالعمل ، و كذلك تتأثر قدرات التذكر و التعلم ، و كما معروف أن ما يتعلمه الفرد من معرفه و معلومات في المساء فانه يستقر في الذاكرة الى الصباح اليوم التالي هذا اذا نام لمدة كافية ، غير أن هذا الحفظ و الاستقرار في الذاكرة يمكن أن يقل كثيرا اذا ما تعرض الفرد للأرق أو الإقلاع عن النوم لسبب أو لأخر<sup>2</sup> .

يرى مولر ( 2008 ) إن تحديد القسط الكافي للنوم لا يخضع لقاعدة عامة ، حيث ان لكل فرد دورة خاصة و حاجات متغيرة حسب الظروف ، و حسب العمل الذي بذله خلال النهار، و الحالة الصحية له ، و تكون مدة النوم أطول كلما كان الفرد اصغر سنا<sup>3</sup> ، و يكون النوم المريح اذا نتج عنه في اليوم التالي التوازن ، و الراحة الجسمية و النفسية .

ومنه ، إن عدد ساعات النوم ليس مقياسا للنوم المريح أو الحصول على الراحة الجسدية و الذهنية ، و التي تختلف بين الأفراد ، و ربما تختلف لدى الفرد من وقت لأخر ، كما أنها تتأثر بالعامل الوراثي تأثيرا كبيرا ، و هذا ما يوضحه Testu (1992) أنه تختلف مدة النوم من فرد لأخر ، فهناك من تكون مدة النوم أطول بمقارنة مع الآخرين ، فهي ميزة محددة وراثيا و لكن يمكن التكيف معها و ذلك بتحكم في تواتراتهم<sup>4</sup> ، وهذا ما تدعمه بعض الدراسات ، الى أن مدة النوم تتراوح لدى الأفراد بين ( 4 الى 10 ) ساعات ، مما يدل أن مقدار ما يحتاجه الفرد للنوم تقررره عدة عوامل منها متعلقة بالعوامل الشخصية و منها متعلقة بالعوامل الذاتية.

يرى Testu (2011) فاحترام الوتيرة شرط هام للنجاح . فإذا لم نحترم -مثلا -المدة المخصصة لنوم الطفل، فمعناه أننا لا نحترم توازنه . و بالتالي يكون سلوكه غير طبيعي خارج المدرسة و خصوصا داخلها، سيكون غير منته وشاردا أو متعصبا.

إنها ليست بتاتا الظروف التي تسهل التعليم و تعليماته، إذن يجب محاولة أخذ هذا بعين الاعتبار إنه أساسا واجب الأولياء ، لكن هناك أيضا جانب من المسؤولية على أصحاب القرار، فلا تجب برمجة دخول مدرسي باكرا جدا في الصباح ، دخول يقلص من فترة النوم، كما لا ينبغي أيضا إعطاء واجبات منزلية<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> - أسعد طارق و كحلة ألفت ( 2009 ) : النوم ، مشكلات ، التشخيص ، العلاج ، إيتراك للطباعة و النشر و التوزيع ، القاهرة ، ص 13 .

<sup>2</sup> - على كاظم محفوظ ( 2014 ) : قياس اضطراب النوم لدى طلبة المرحلة الاعدادية ، مجلة كلية التربية الاساسية ، جامعة بابل ، العدد 15 ، ص 283 .

<sup>3</sup> - مولر ماري ( 2008 ) : لنتمتع بنوم حقيقي ( ترجمة فرح عوني ) ، الرياض ، مكتبة الرشد ، ص 34 .

<sup>4</sup> - Testu .F. ( 1992 ) : Rythmes et blouses , centre régional de documentation pédagogique de Picardie , France , p 27

<sup>5</sup> - بحث و تربية ( 2011 ) : مجلة جزائرية للبحث التربوي يصدرها المعهد الوطني للبحث في التربية ، عدد 1 ، جويلية ، الملف الوتيرة المدرسية ، التنظيم الجديد للزمن الدراسي في مرحلة التعليم الابتدائي ، ص 22 .

وكما تؤكد Délvolvé (2010) بأن النوم ليس مضيعة للوقت ، وإنما هو تشكيل التوازن مما يسمح باسترجاع القوى العقلية و الجسمية للفرد ، و ذلك في أي الوقت ، احتراماً للساعة البيولوجية و للدورة السركرادية ، لأن في بعض الأحيان يكون الارهاق عند الطفل أكبر من الارهاق عند البالغ .ولهذا عدم السماح للطفل بالنوم يعني منعه من القيام بعمله بفعالية ومنعه من حياة اجتماعية متوازنة وعرقلة نموه البيولوجي والنفسي<sup>1</sup> .

أما عن القيلولة ، هي فترة النوم التي تحدث ما بين صلاة الظهر ، و حتى صلاة العصر<sup>2</sup> ، و قد قيل أن القيلولة تزيد العقل ، حيث روي عن محمد عن أبيه قال : نومة نصف النهار تزيد في العقل<sup>3</sup> و انها ضرورية للتوازن النفسي و الفيسيولوجي للطفل عامة و المتعلم خاصة.

وعلى هذا الأساس ، يؤثر نقص النوم على المتعلم في جميع نواحي حياته ، فهو أحد الأسباب التي تؤدي الى ضعف التحصيل الدراسي ، و المشاركة الصفية ، و الغياب عن المدرسة ، و الشعور بالتعب و نقص في الطاقة و الحيوية ، و صعوبة التركيز و الانفعال و الغضب السريع ، و الطيش في التصرفات ، هذا بالإضافة الى عدم شعور بالراحة في يوم الدراسي ، لذا هناك حاجة ماسة الى النوم الكافي و هذا ما تؤكدته دراسة bahamman& al (2010) ، و التي هدفت الى التعرف على العلاقة بين عادات النوم و الاستيقاظ و الأداء الأكاديمي لدى طلاب كلية الطب بجامعة الملك سعود في المراحل : الأولى ، و الثانية و الثالثة ، فأوضحت النتائج ان قلة النوم في الليل ، أو النوم في ساعة متأخرة خلال ايام الاسبوع و عطلة نهاية الاسبوع ، و زيادة النعاس اثناء النهار ترتبط سلباً بالأداء الأكاديمي للطلاب<sup>4</sup> .

وهذا ما أشار اليه كل من Fostinos & Testu (1996) فالنوم وظيفة ضرورية لحياة الفرد خاصة عند الاطفال و المراهقين ، و يرتبط ذلك بسلوكياتهم المتكيفة من خلال نتائج لادائهم الجسمية و الاكاديمية ، و لا يتعلق الأمر بالقول ان الذين ينامون كثيراً هم أكثر أداءات ، وانما يعود الى ذلك لاحترامهم لمدة النوم الضرورية لكل مرحلة على راحتهم الجسمية و الأكاديمية<sup>5</sup> .

وما يمكن استخلاصه ، إن ما تسببه الحرمان أو نقص أو قلة من النوم ( النوم البطيء أو النوم المتناقض ، أو النوم الكامل ) يترتب عليه الكثير من السلبيات في أداء لدى المتعلم ، فإنها تؤثر على عملية التعلم و الانتباه و مقدار ما تستطيع الذاكرة خزنته أو استرجاعه ، كما تؤثر سلباً على مزاجه و في أداءه للمهام ، و هذا ما يؤكدته Testu (1992) إن النوم ضروري للوظيفة الإنسانية إما على المستوى الفيزيولوجي و إما على المستوى النفسي ، فالنوم هام للنمو الجيد و صحة الطفل بصفة عامة و المتعلم بصفة خاصة<sup>6</sup> .

<sup>1</sup> - Délvolvé .N. ( 2010 ) : Stop à l'échec scolaire , l'ergonomie au secoure des élèves . de boeck , France , p37 .

<sup>2</sup> - البيلاوي ايهاب ( 2010 ) : اضطرابات النوم ، المشكلة ، الاسباب ، العلاج ، الرياض ، دار الزهراء للنشر و التوزيع ، ص 19 .

<sup>3</sup> - الحنبلي محمد ( 2002 ) : غذاء الالباب شرح منظومة الاداب ، الطبعة الثانية ، بيروت ، دار الكتب العلمية ( تحقيق محمد الخالدي ) ، ص 28 .

<sup>4</sup> - على محفوظ كاظم ( 2014 ) : قياس اضطراب النوم لدى طلبة المرحلة الاعدادية ، مجلة كلية التربية الاساسية ، جامعة بابل ، العدد 15 ، ص 43 .

<sup>5</sup> - Fostinos.G & Testu . F. ( 1996 ) : Aménager le temps scolaire , théories et pratiques , hachette édition , paris , p 48 .

<sup>6</sup> - Testu .F. ( 1992 ) : Rythmes et blouses , centre régional de documentation pédagogique de Picardie , France .p 27

## 2-6-الانتباه :

إن المهارات التي يتعلمها الأطفال في المدارس مثل القراءة والكتابة ،وتعلم الحساب، وتعلم المفاهيم، والأداء الحركي، والسلوك الاجتماعي جميعها تتطلب منهم إدراك المثيرات السمعية والبصرية واللمسية، من أجل القيام بالمهارات المعرفية اللازمة للمهارات السابقة، والاستجابة لها إما لفظيا أو حركيا .

ومنه، فإن الانتباه هو أحد المهمات الرئيسية لتعلم جميع المهارات التعليمية السابقة. لأن التركيز على المهارة سمعيا أو بصريا أو لمسيا يسهل و يسرع عملية الإدراك و بالتالي تعلم المهمة أو المهارة.

وعليه ، يجب أن يتكيف وقت التعلم مع قدرات كل طفل، علما أن اليوم الدراسي لطفل عمره 3 سنوات يختلف عن يوم دراسي لطفل عمره ما بين (10\_11 سنوات ) .و في الأخير، يجب أن يحصل كل الأطفال على أوقات ترفيه و استراحة أكثر، لأن هذه الأوقات تساعدهم على امتلاك بنية قوية و إنتاج (مردود دراسي) جيد .كما أن المدرسة مخصصة أيضا لإيقاظ و دعم الإبداع و العمل المشترك. فعندما يكون الطفل في بداية التمدريس(6-7) سنوات ، فالنشاط المهم هو تعلم القراءة ، لذا يجب وضع زمن تعلم القراءة في الوقت الأقوى ، أما التعلمات التي لا تتطلب اهتماما كبيرا فيجب برمجتها في أوقات يكون فيها الطفل اقل انتباها<sup>1</sup>.

كما أثبت fraisse (1980) من خلال بعض الأبحاث أن الذاكرة قصيرة المدى تكون أحسن في الفترة الصباحية، بينما تكون درجة الحفظ بالنسبة للذاكرة طويلة المدى أحسن عندما يكون التعلم في الليل، رغم أن درجة حرارة الجسم عادية. كما يظهر من خلال أبحاث أخرى أن الدافعية يمكن أن تتدخل في ذلك ، رغم وجود تعديل يومي بقاعدة بيولوجية<sup>2</sup>.

والانتباه الحقيقي يقاس بمدى ملائمة الاستجابة ، اذ ان نسبة (5 – 10 %) من الأطفال يعانون من ضعف الانتباه و قصر مدته ، و أن طفل السادسة لا يستطيع أن يلم بمجموعة من الأفكار التي تكون كلا واحدا ما لم تكن ضئيلة العدد و بسيطة التركيب ، فمن الصعب عليه ان يستوعب امرا من اربعة تكوينات مثل افتح الباب و اذهب الى الغرفة و اغسل يديك و اطغئ الانوار ثم ابحث عن القلم ، و غالبا ما يغفل عن عنصر أو اثنين من هذه المكونات بسبب قصر مدى الانتباه و ليس بسبب عدم التذكر<sup>3</sup>.

وتزداد قدرة الطفل على الانتباه الارادي في عمر (7 – 11) سنة لذا فقد وجد العلماء بوجوب تدريب الطفل على الانتباه عندما يبلغ هذا السن و توجيه انتباهه اراديا لفترات<sup>4</sup>.

وفي هذا الإطار، واصل الباحثون في دراسة وتيرة الأداء عند المتعلم ، ويمكن الإشارة إلى النموذج الكلاسيكي الذي حدده (Gates) لم يستوى الأداء خلال اليوم والذي اعتمده علماء آخرون كأرضية اساسية ، الى جانب النماذج الاخرى التي تدرس التغيرات اليومية للأداءات الفكرية و التي يمكن تلخيصها الى ما يلي :

<sup>1</sup> - بحث و تربية ( 2011) : مجلة جزائرية للبحث التربوي يصدرها المعهد الوطني للبحث في التربية ، عدد 1 ، جويلية ، الملف الوتيرة المدرسية ، التنظيم الجديد للزمن الدراسي في مرحلة التعليم الابتدائي ، ص 24 .

<sup>2</sup> -Fraise .P( 1980) : Elément de chronopsychologie, Le travail Humain , p 86.

<sup>3</sup> - شيفر شالز و ميلمان هوراد ( 1996 ) : مشكلات الاطفال المراهقين و أساليب المساعدة فيها ، ترجمة نسيمه داود و نزية حمدي ، منشورات الجامعة الاردنية ، عمان ، ص 29 .

<sup>4</sup> - منصور عبد المجيد سيد و الشريبي زكريا محمد ( 1998 ) : علم النفس الطفولة ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ص 298 .

- حسب ( GATES ) ( 1916 ) : في أوائل القرن الماضي استخلص (GATES) (1916) الملمح اليومي للفعاليات، من خلال الاختبارات البسيكوتقنية التي أجراها على مجموعة من المتدربين .
- من الساعة (8) إلى الساعة (9) ← الأداء الفكري منخفض .
- من الساعة (9) إلى الساعة (10) ← مستوى الأداء في حالة ارتفاع مستمر .
- من الساعة (11) إلى الساعة (12) ← مستوى الأداء في أقصى ارتفاع .
- من الساعة (12) إلى الساعة (16) ← مستوى الأداء منخفض .
- على الساعة (16) ← مستوى الأداء في حالة ارتفاع من جديد <sup>1</sup> .
- حسب (BOURDON) ( 1926 ) : بعد ذلك ، أشار (BOURDON) (1926) إلى أن ما كان يسميها بالطاقة الذهنية تتطور أثناء النهار ووفقا له ، فإن هذه الطاقة تزايد ابتداء من الاستيقاظ حتى تبلغ الحد الأقصى حوالي (10\_11سا) ثم يحدث هبوط عند الظهر، إما قبل أو بعد وجبة الغداء .بعد ذلك تزداد هذه الطاقة حتى تبلغ حدها الأقصى الثاني في فترة ما بعد الظهر ثم تضعف أخيرا في المساء .
- حسب (TESTU) ( 1994 ) : ووفقا لأعمال (TESTU) ( 1994 ) ، و بعد أن قام باختبارات على مجموعة كبيرة من التلاميذ تتراوح أعمارهم بين 6 و 11 سنة ، لاحظ أن الأداء الانتباهية تزايد من بداية صبيحة الدراسة إلى نهايتها، و تراجع خلال استراحة الظهيرة ( Creuxpost prandial ) فراغ ما بعد الأكل ، ومن ثمة ترتفع من جديد في فترة ما بعد الظهيرة . و عليه اقترح تسمية هذا الملمح الملمح الكلاسيكي . وسيشكل هذا الملمح القاعدي من الآن فصاعدا مرجعا للتحقق من التطابق بين الوتيرة الخاصة بالطفل و الوتيرة التي يحدثها المحيط .
- حسب المستوى البيداغوجي :
- وعلى المستوى البيداغوجي، يعتبر هذا الملمح نقطة معلية لتكييف النشاطات مع وتيرة التلاميذ . ولذا يفترض أن ترمج التعليمات الجديدة أو النشاطات التي تتطلب الانتباه و التركيز بين الساعة ( 9:30 و 11:30 ) مراعاة لوتيرة الطفل؛ و أن تخصص بداية الصبيحة و بداية ما بعد الظهر لنشاطات أخف ، أكثر ألفة و تحكما . وأن ترمج بداية التعلّمات على الساعة 9 صباحا سواء للأطفال أو المراهقين، مما يحدث تعديلا مهما في مدة نومهم .و أن ترمج نشاطات أكثر تطلباً للجهد الفكري بعد الظهيرة عند الأطفال من 7 إلى 8 سنوات، شرط احترام استراحة الظهيرة المنظمة بدقة إلى غاية الساعة 15:00 ذلك لأن استئناف النشاط لديهم يظهر بشكل واضح <sup>2</sup> .

<sup>1</sup>- معروف لويزة (2008) : أثر نمط تنظيم الوقت المدرسي على كل من الانتباه و السلوك و مدة النوم الليلي و النشاطات خارج المدرسة عند تلاميذ المرحلة الابتدائية ( السنة السادسة ) ، رسالة دكتوراه في علوم التربية ، جامعة الجزائر 2 ، ص 12 .

<sup>2</sup> - بحث و تربية ( 2011 ) : مجلة جزائرية للبحث التربوي يصدرها المعهد الوطني للبحث في التربية ، عدد 1 ، جويلية ، الملف الوتيرة المدرسية ، التنظيم الجديد للزمن الدراسي في مرحلة التعليم الابتدائي ، ص 54 .

لقد تم تناول التغيرات اليومية و الاسبوعية للانتباه بشكل كبير و بينت الدراسات بأن هذه التغيرات تتبع نفس المنحنى في اليوم و أظهر كل من (1990) Dévolvé و (2000) Feunteun بأن في اليوم الدراسي يتبع الانتباه و الفعالية الفكرية على النحو التالي: الفعالية تتزايد من بداية الصبيحة الى نهايتها و تنخفض في منتصف النهار ثم تتزايد مرة أخرى بعد الظهر<sup>1</sup>.

و هذا ما يؤكد عدد كبير من الباحثين و من بينهم Testu على أن أحسن النتائج الخاصة بالانتباه هي التي تظهر بين 10 صباحا و 12 زوالا و بين الساعة 16 و 18 مساء عند تلاميذ الابتدائي<sup>2</sup>.

و على هذا الأساس ، يستنتج أن الانتباه يتغير خلال الأسبوع و اليوم ، ففي اليوم يعرف ارتفاع في بداية اليوم ، و ينخفض في منتصف النهار و يرتفع في نهاية الظهر ، أما في الأسبوع فيكون منخفض في بداية الأسبوع و يبدأ في الارتفاع ليصل الى أقصى حد في نهاية الأسبوع .

ويستخلص مما سبق، ان الانتباه عبارة عن آلية أساسية في الوظيفة العقلية لدى المتعلم، له تأثير عميق على الأنشطة العقلية كعمليات التعلم والتفكير، وحل المشكلات، والإدراك والتذكر الذي يتمثل في قدرة على انتقاء مثير معين والاستمرار في التركيز عليه لمدة معينة، بدونه لا يمكنه أن يقوم بأي النشاط المطلوب منه مما يؤثر على أدائه المعرفي وينتج عنه تشتت أو قلة أو اضطراب في عملية الانتباهية .

### 6-3-النشاطات خارج المدرسة :

توضح عميرة (2002) ان الانشطة اللاصفية هي ذلك الجزء من المنهج الكلي الذي يضمن خبرات لا تقدم عادة في الفصل الدراسي ، و هي لا ترتبط بمقررات معينة و لكنها يمكن أن تثرها و توسع افاقها و تعمق الأفكار و الخبرات التي تكتسب فيها كما أنها تسهم في التربية الشاملة للمتعلم جسميا و معرفيا و مهاريا ووجدانيا<sup>3</sup>.

وعليه ، تبينت فاروق القهوجي (2010) الى أن La forge (1999) يوضح ان الأنشطة التي تمارس خارج المدرسة المبرمجة وغير المبرمجة من طرف الادارة المدرسية تساعد المتعلم في حمايته من الآثار السلبية لأوقات الفراغ ، كما أنها توفر الفرصة لاكتشاف مواهبهم و تنميتها ، وكما أنها من ناحية أخرى تساعده على تحمل ضغوط المدرسة و اطلاق طاقتهم واكتشاف مقدراتهم و اهتماماتهم ، وتؤثر على أدائه في المدرسة مما تجعله يشعر بالقدرة على الانجاز و التعلم<sup>4</sup>.

وبالتالي ، يشير اللقائي (1999) أنه من الخطأ كل من يتصور أن العملية التعليمية التربوية تحدث داخل الفصل المدرسي فقط ، فقد ثبت علميا أن حوالي 80 % مما يتعلمه المتعلم يكون من خارج الفصل المدرسي ، بل و خارج المدرسة ذاتها ، و هذا الامر يتفق مع الفكرة التربوية الاساسية التي تؤكد على أن عملية التربية هي تربية من أجل الحياة ، و من ثم يجب أن تكون في الحياة و ممارسة لمواقف حياتية ، و هذا الى أن التعليم يكون سطحيا و قليل القيمة ، و لا فعالية له ، اذا ما تم عن طريق الاسلوب التقليدي ، ذلك الاسلوب القائم على السلبية و عدم المشاركة و محدودية مصادر المعرفة ، و اقتصرها على كتاب

<sup>1</sup> -Janvier . B, Testu . F(2005): Développement des fluctuations journalières de l'attention chez les élèves de 4 à 11 ans, Enfance, n2,p49 .

<sup>2</sup> -Dévolvé .N. (2005) : Tous les élèves peuvent apprendre , hachette livre , paris ,p49 .

<sup>3</sup> - عميرة ابراهيم بسيوني (2002) : النشاط الطلابي مفهومه و تصنيفاته و ضوابطه و مكانه من المنهج المدرسي و أهدافه التربوية ، جامعة الملك سعود ، ص 55 .

<sup>4</sup> - فاروق القهوجي سناء (2010) : أثر الانشطة العلمية اللاصفية في مستوى التحصيل الدراسي في مادة علم الاحياء ، رسالة ماجستير في علوم التربية ، جامعة بابل العراقية ، ص 52 .

المدرسة و تركيز جهود المعلم و المتعلم على استيعاب ما جاء بالكتاب المدرسي دون مناقشة أو مشاركة أو عمل أو نظر في امكانية تطبيق كل ما هو نظري في الواقع الاجتماعي الذي يعيشه و الذي سيمارس حياته فيه بعد ذلك لسنوات طويلة<sup>1</sup> ، والذي بدوره يوضح على أهمية النشاطات خارج المدرسة و التي تساهم على اكتساب مهارات الاتصال لدى المتعلم في مراحلها الأولى ، والتدريب عليها ، كحسن القراءة ، التحدث و الاستماع .

وفي هذا المجال يرى مختار (1999) بهذا الخصوص ، حتى نقي أطفالنا من مخاطر الهروب لأبد من وجود نشاط مدرسي متنوع و مثير و يهيء للأطفال الفرص المتعددة للنمو الاجتماعي السليم ، و اشباع حاجاتهم الى المساهمة مع الغير و التعاون ، و تكوين علاقات سوية خارج دائرة الاسرة<sup>2</sup> ، و هذا يعني النشاط التي تمارس خارج المدرسة وسيلة ناجحة لمعالجة مشكلة الهروب من المدرسة.

يشير نصرالله (2000) أنه تعتبر التربية الحديثة باتجاهاتها المتعددة النشاط اللاصفي (النشاطات خارج المدرسة) ، هي أهم الجوانب التي يجب أن يرتكز المنهج المدرسي عليها كوسيلة لا غاية ، لأنه يساعد في بناء الجوانب المختلفة المهمة للمتعلم ، كالنواحي النفسية و الاجتماعية و القيم الحركية و الجمالية ، كما أنها تعمل على بناء الجوانب المعرفية و التحصيلية و الاكاديمية ، لكن في معظمها ليست مبرمجة في التعليم و لا يهتم بها العاملون في مجال التربية لعدم معرفتهم و خبرتهم لها أو لعدم مقدرتهم على التعامل مع مثل هذه الأنشطة ، لأن المناهج المقررة في المدارس مناهج تقليدية تهتم بتنمية الذاكرة و الاعتماد عليها ، و تهمل تطوير جوانب التفكير الابداعية للمتعلمين ، و تهتم التربية الحديثة بالعمل خارج الصف و تعتبره جانبا مهما و اساسيا ، يحقق معظم الأهداف من خلال القيام بأنشطة تلقائية و عفوية خارج الصف<sup>3</sup>.

وهذا ما تؤكدته دراسة Little (2004) على أن الاشتراك في الأنشطة اللاصافية مهم من أجل تطوير مهارات كثيرة ضرورية للقرن الحادي و العشرون ، مثل الخبرة في تحديد و حل المشكلات و مهارات التواصل و المهارة في الأساسيات في المجالات كافة<sup>4</sup>. وكما يضيف Rickinson (2004) ان التعلم خارج جدار الصف في العالم الحقيقي يوفر فرصا رائعة لكل من المتعلمين و المعلمين للتعلم الحقيقي . انه يزود المتعلمين بالعديد من الفوائد على صعيد المرح و المتعة و تطوير الشخصية و الطموح ، اضافة الى تحقيق انجاز أفضل في المادة نفسها<sup>5</sup>.

الى جانب ذلك ، بينت دراسة هينسلي (1976) التي استهدفت في الكشف عن العلاقة بين ممارسة الأنشطة الحرة و النمو الشخصي و الاجتماعي و التحصيل الاكاديمي للطلاب ، و قد أكدت نتائج الدراسة ان الطلاب الحاصلين على درجات عالية من أصحاب التحصيل الجيد كانوا من المشاركين في الانشطة المدرسية الحرة أكثر من غيرهم<sup>6</sup>.

1- أحمد اللقائي : (1984) : المناهج بين النظرية و التطبيق ، الطبعة الثالثة ، عالم الكتب ، القاهرة ، ص 205 \_ 220 .

2- مختار منير (1999) : مشكلات الاطفال السلوكية و الاسباب و طرق العلاج ، الطبعة الاولى ، دار العلم و الثقافة ، القاهرة ، ص 130.

3- نصر الله عمر (2000) : النشاط المدرسي و التعلم ، مجلة الرسالة ، العدد 9 ، المعهد الاكاديمي لإعداد المعلمين العرب ، كلية بيرل ، (ص 205 - 219) ، ص 206 .

4- فاروق القهوجي سناء (2010) : أثر الانشطة العلمية اللاصافية في مستوى التحصيل الدراسي في مادة علم الاحياء ، رسالة ماجستير في علوم التربية ، جامعة بابل العراقية ، ص 50 .

5- نفس المرجع ، ص 50 .

6- أبوعبد الله (2014) : الموسوعة الثقافية المدرسية لطلاب المرحلة الابتدائية ، العدد 9 ، فارس النشاط المدرسي ، الطبعة الاولى ، دار الحكمة للطباعة و النشر و التوزيع ، ص 56 .

و كما جاءت دراسة طوطاوي عن النجاح المدرسي في التعليم الالزامي (2011) التي توصلت بان انخفاضت نسبة النشاطات في التعليم الابتدائي للتنظيم الجديد من 12,04% إلى 7% من الحجم الساعي الأسبوعي لكل المواد المبرمجة في هذا المستوى، مع الإشارة إلى أنها تضم التربية التشكيلية و التربية الموسيقية. و زاد انخفاض هذه الحصص خلال العام الدراسي 2008 إلى 6% و نفس الملاحظة بالنسبة للتربية البدنية و الرياضية في التنظيم الجديد من 4% إلى 3%<sup>1</sup>.

والذي يعني بأننا نرهق هذا المتعلم بالحجم الساعي الأسبوعي أو السنوي، و نرهقه أكثر حين نطالبه بالوظائف المنزلية لكل المواد في البيت، مع تعددها في هذه المرحلة، و لا ننسى أيضا البيئة أو المحيط الاجتماعي الذي يعيش فيه هذا المتعلم. ألا نحاول بهذا جعل المتعلم ينفر من المدرسة التي أصبحت بالنسبة إليه مكانا للأعمال الشاقة، بالتالي يشعر بعدم قدرته على تحقيق نجاحه المدرسي. كما انها توصلت في النهاية و ما توصل اليه التحقيق الدولي سنة 2003 و المقارنة الدولية التي قامت بها منظمة (OCDE) ، و التي اعتبرت النظام التربوي الفنلندي كأحسن نظام مقارنة بكل الدول الأعضاء فيها، حيث كان تلاميذها الأوائل في القراءة و الرياضيات وحل المسائل.

وفي الأخير ، ما يميز النظام التربوي الفنلندي هو غياب التقييم، و أيام الدراسة القصيرة، و أهمية الموسيقى و الفنون و الرياضة، إضافة إلى (10) أسابيع عطلة في الصيف، و وجبة غذاء مجانية في المدارس الابتدائية الإلزامية (7-16) سنة. كما تعتبر المدرسة امتدادا للبيت و ليس مكانا باردا مملوءا بالنواهي<sup>2</sup>.

و لذلك على واضعي المنهاج أن يكثروا من الأنشطة المدرسية داخل الفصل و خارجه و أن يضعوا في خططهم الوقت الكافي لممارسة الأنشطة المختلفة ، و يجب النظر الى النشاط على أنه جزء من المنهاج و أن يكون له هدف محدد مرغوب و واضح عند المدرس و التلاميذ و أن يتعرف المدرس من خلاله على ميول التلاميذ و جوانب شخصياتهم ليتمكن من توجيههم و الإشراف عليهم<sup>3</sup>.

بالجملة ، لاشك في أن الطفل سواء من المنزل ، أو في الشارع كان يتمتع بقسط كبير من الحرية و التلقائية فيما يفعل و فيما يتحرك ، فعلى المدرسة أن تبقى له على هذه الحرية ، و أن تهنيء له الكثير من الفرص التي ينشط فيها نشاطا تلقائيا حرا مثيرا لميوله و اهتماماته ، ان الوقت الذي يترك فيه الطفل نشاطه التلقائي الحر ليس وقتا ضائعا ، فقد يتعلم من مثل هذا النشاط أكثر مما يتعلم من النشاط المقصود بعينه ، الاجباري ، الذي يفرض عليه فرضا .

خاتمة :

وما يمكن استخلاصه، من أجل تحسين خدمات المؤسسات التربوية و جعل المناخ المدرسي أكثر مرونة و خصوبة لعملية التعلم والتعليم ذلك بإعطاء أهمية لمفهوم الوتيرة المدرسية كونها تهتم بجانبين أساسيين ، الأول يعمل على تنظيم الزمن الدراسي ، والثاني يهتم بالتغيرات البيولوجية و النفسية التي تطرأ على المتعلم ، مما يسمح أن نقول ان هناك علاقة وطيدة بين تنظيم التوقيت المدرسي و وتيرة المتعلم .

<sup>1</sup> - Colloque international (2011) : Le système éducatif et l'échec scolaire ( approche chronopsychologique ) , université tizi ouzou , département des sciences sociales , p 552 .

<sup>2</sup> - نفس المرجع ، ص 559 – 560 .

<sup>3</sup> - شنش محمد و اخرون (1989) : المدرسة الابتدائية ، أنماطها الاساسية و اتجاهاتها العلمية المعاصرة ، الطبعة الثانية ، دار القلم الكويت ، ص 127 .

### قائمة المراجع:

#### الكتب:

- 1- بو عبد الله (2014): الموسوعة الثقافية المدرسية لطلاب المرحلة الابتدائية، العدد 9، فارس النشاط المدرسي، الطبعة الاولى، دار الحكمة للطباعة والنشر والتوزيع.
- 2- أحمد اللقاني (1984): المناهج بين النظرية والتطبيق، الطبعة الثالثة، عالم الكتب، القاهرة.
- 3- أسعد طارق وكحلة ألفت (2009): النوم، مشكلات، التشخيص، العلاج، إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.
- 4- البيلاوي إيهاب (2010): اضطرابات النوم، المشكلة، الاسباب، العلاج، الرياض، دار الزهراء للنشر والتوزيع.
- 5- الحنبلي محمد (2002): غذاء الالباب شرح منظومة الاداب، الطبعة الثانية، بيروت، دار الكتب العلمية (تحقيق محمد الخالدي).
- 6- شنشني محمد و اخرون (1989): المدرسة الابتدائية، أنماطها الاساسية واتجاهاتها العلمية المعاصرة، الطبعة الثانية، دار القلم الكويت.
- 7- عميرة ابراهيم بسيوني (2002): النشاط الطلابي مفهومه وتصنيفاته وضوابطه ومكانه من المنهج المدرسي وأهدافه التربوية، جامعة الملك سعود.
- 8- مختار منير (1999): مشكلات الاطفال السلوكية والاسباب وطرق العلاج، الطبعة الاولى، دار العلم والثقافة، القاهرة.
- 9- منصور عبد المجيد سيد والشريبي زكريا محمد (1998): علم النفس الطفولة، الطبعة الاولى، القاهرة، دار الفكر العربي.
- 10- مولر ماري (2008): لنتمتع بنوم حقيقي (ترجمة فرح عوني)، الرياض، مكتبة الرشد.
- 11- سناء فاروق القهوجي (2010): أثر الأنشطة العلمية اللاصفية في مستوى التحصيل الدراسي في مادة علم الاحياء، رسالة ماجستير.
- 12- لويزة معروف (2008): أثر نمط تنظيم الوقت المدرسي على كل من الانتباه والسلوك ومدة النوم الليلي والنشاطات خارج المدرسة عند تلاميذ المرحلة الابتدائية (السنة السادسة)، رسالة دكتوراه في علوم التربية، جامعة الجزائر 2.
- 13- بحث وتربية (2011): مجلة جزائرية للبحث التربوي يصدرها المعهد الوطني للبحث في التربية، عدد 1، جويلية، الملف الوتيرة المدرسية، التنظيم الجديد للزمن الدراسي في مرحلة التعليم الابتدائي.
- 14- شيفر شالز و ميلمان هوراد (1996): مشكلات الاطفال المراهقين وأساليب المساعدة فيها، ترجمة نسيم داود ونزية حمدي، منشورات الجامعة الاردنية، عمان.
- 15- على محمود كاظم (2014): قياس اضطراب النوم لدى طلبة المرحلة الاعدادية، مجلة كلية التربية الاساسية، جامعة بابل، العدد 15.

16- نصر الله عمر (2000) : النشاط المدرسي و التعلم ، مجلة الرسالة ، العدد 9 ، المعهد الاكاديمي لاعداد المعلمين العرب ، كلية بيرل ، ص 205 – 219 ) .

17- وزارة التربية الوطنية ( 2005 ) : وحدة التسيير البيداغوجي ، المعهد الوطني لتكوين مستخدمي التربية و تحسين مستواهم ، سند تكويني لفائدة مديري مؤسسات التعليم الثانوي و الاكمامي . الجزائر .

18- وزارة التربية الوطنية ( 2009 ) : دليل تنظيم الزمن البيداغوجي في المدرسية الابتدائية ، المفتشية العامة ، الجزائر .

19- وضي بنت سيف الجهوري ( 2013 ) : المناهج الدراسية و زمن التعلم الفعلي ، القلم ، صحيفة تربوية الكترونية .

1- Colloque international ( 2011 ) : Le système éducatif et l'échec scolaire ( approche chronopsychologique ) , université tizi ousou , département des sciences sociales .

2- Délvolvé .N ( 2010 ) : Stop a l'échec scolaire , l'ergonomie au secoure des élèves . de boeck , France .

3- Délvolvé .N ( 2005 ) : Tous les élèves peuvent apprendre , hachette livre , paris .

4- Fostinos.G & Testu . F. ( 1996 ) : Aménager le temps scolaire , théories et pratiques , hachette édition , paris .

5- Fraisse .P( 1980 ) : Elément de chronopsychologie, Le travail Humain.

6- Janvier . B, Testu . F ( 2005 ) : Développement des fluctuations journalières de l'attention chez les élèves de 4 à 11 ans, Enfance, n2.

7- Testu .F. ( 1992 ) : Rythmes et blouses , centre régional de documentation pédagogique de Picardie , France

واقع الخدمات الصحية في مؤسسات الصحة العمومية وأثرها في تلبية حاجات السكان  
دراسة ميدانية في مدينة وهران، الجزائر  
أ.بودور زمعلاش واري أحمد•أ.د. بوراجة أمال/ جامعة وهران 2، الجزائر

The reality of health services in health public institutions and its effects in meeting the inhabitants  
needs, the Field study in Oran city, Algeria

boudour zemallach ouarri ahmed /Dr.Bouradja amel / University of Oran 2 / Algeria

## ملخص:

يعد النظام الصحي الركيزة الأساسية التي يبني عليها تطور الأمم و تقدمها من حيث الرفاهية الاجتماعية، فانطلاقا من هذا النظام يتم الاستجابة لحاجات السكان و الحفاظ على صحة المواطنين، كما تحتل الخدمات الصحية أهمية كبيرة بحيث تسعى جميع الدول إلى تطويرها وتحقيق غايتها عن طريق توفيرها لجميع أفراد المجتمع. انطلاقا من هذا سنحاول معرفة واقع الخدمات الصحية في المؤسسات الصحية العمومية ببلدية وهران وأثرها في تلبية حاجات السكان.  
الكلمات المفتاحية: الصحة، الحاجات الصحية، الخدمات الصحية، التغطية الصحية.

## Abstract:

The health system is the cornerstone on which the development and progress of nations are built in terms of social welfare, from this system. The needs of population and the health of citizens are addressed; health services are of great importance so that all countries seek to develop them and achieve their goals by providing them to all members of society. Based on this we will try to know the reality of services in the public health institutions of the municipality of Oran and its impact on meeting the needs of population.

**Key words:** the health, health needs, health services, medical insurance.

## مقدمة:

إن الاهتمام بالخدمات الصحية، والعمل على جعلها في المستويات المطلوبة التي تنال رضا المتلقين لها وتحقق حاجاتهم هي أولوية يجب أن يسهر على تحقيقها أي نظام مؤسسي سواء على المستوى الكلي أو الجزئي، غير أن إصدار الأحكام عن مستويات الأداء لا يتم إلا بإتباع أساليب علمية ومنهجية تمكن دراسة درجات الفعالية والإحاطة بمختلف حيثياتها لتكوين صورة واضحة ودقيقة تؤدي إلى جوانب القوة ومكامن الخلل ومحاولة تحسينها وتصحيحها. على الرغم من ذلك يعد قياس مستوى الخدمات من بين المواضيع الحديثة نسبياً خاصة في المجال الصحي، ولا يزال تقييم الخدمات الصحية وتحديد مستويات أدائها موضوع نقاش وجدل بين الباحثين وأصحاب الاختصاص.

مما لا شك فيه فإن الخدمات الصحية هي أكثر الخدمات التي يكون على عاتق الدولة توفيرها للسكان بالمستويات المطلوبة والمستهدفة، ولذلك فهي تسعى دوماً إلى تحسينها وتطوير مستوياتها بالبحث في مختلف الأساليب والآليات التي تمكن من تحقيق ذلك، وبالتالي تحقيق المنفعة للفرد بصورة خاصة والمجتمع بصفة عامة.

في ظل اهتمام معظم الدول بالخدمات الصحية وفق أساليب وأنظمة مختلفة، اهتمت الجزائر بتحسين مستوى خدماتها الصحية من خلال برامج وسياسات إصلاحية مختلفة.

مرت سياسة إصلاح المنظومة الصحية في الجزائر بعدة مراحل منذ الاستقلال إلى يومنا هذا، كانعكاس للظروف التي سادت في كل مرحلة على حدا، سواء الظروف السياسية والاقتصادية وحتى الاجتماعية والبيئية، ولكل سياسة عناصرها وأهدافها. إلا أن الهدف الرئيسي هو تطوير نوعية الخدمات الصحية باعتبار الصحة هي أهم ما يملكه الفرد.

أصبحت الخدمات اليوم تكتسي أهمية خاصة، وهي في طريقها لتصبح جزءاً لا يتجزأ من الاقتصاديات المتطورة، وأضحت المؤسسات على اختلاف أنواعها وشتى تخصصاتها منفتحة على جمهور الزبائن لتأمين الخدمات التي يحتاجونها حتى أصبح هناك نمو سريع ومتزايد في الخدمات و صار من الممكن القول بأننا نعيش في ظل ما يعرف "بمجتمع الخدمات" وما حصل من نمو وتطور انعكس بشكل واضح على الخدمات الصحية وطرق تقديمها.

و باعتبار أن المستوى الصحي لأي مجتمع مقياساً لدرجة تقدمه، تبقى الخدمات الصحية دوماً بحاجة إلى تقييم دوري ومستمر يكون الهدف منه اكتشاف الانحرافات السلبية عن المستوى المطلوب والمستهدف للخدمة وتحديد أمثل الأساليب وأكثرها تلاؤماً مع المشاكل والتحديات التي يجب تصحيحها ومواجهتها.

وفي هذا الإطار تكون الإشكالية الرئيسية لموضوع بحثنا كالتالي:

ما هو واقع الخدمات الصحية المقدمة من طرف المؤسسات الصحية العمومية ببلدية وهران؟

من خلال الإشكالية الرئيسية يمكن صياغة التساؤلات الفرعية كما يلي:

- ما مدى الإقبال على خدمات المؤسسات الصحية العمومية؟
- هل الخدمات الصحية المقدمة تستجيب للحاجات الصحية للمرضى في ظل هذه المشاكل؟
- ما هي أسباب تدني الخدمات الصحية في المؤسسات الصحية العمومية؟

### فرضيات الدراسة:

- سوء التسيير سبب في تدهور الخدمات الصحية بمؤسسات الصحة العمومية ببلدية وهران.
- تؤثر نوع الطبقة الاجتماعية في تردد المبحوثين على مؤسسات الصحة العمومية ببلدية وهران.
- سوء الاستقبال و التوجيه سبب في تدني الخدمات الصحية بمؤسسات الصحة العمومية ببلدية وهران.

### أهمية الدراسة :

تتوقف أهمية أي بحث على أهمية الظاهرة المدروسة وعلى قيمتها العلمية والعملية ومدى إسهامها في إثراء المعرفة النظرية من جهة والميدانية من جهة أخرى و تكتسب هذه الدراسة أهمية خاصة لأنها تتناول موضوع حساس ألا وهو الخدمات الصحية ، و ذلك لما لهذه الأخيرة من انعكاسات على عافية الفرد وسلامته الجسمانية و العقلانية من جهة و أثارها على الجوانب التنموية الاجتماعية و الاقتصادية لأي بلد من جهة أخرى بالإضافة إلى ذلك فإن للخدمات الصحية جانباً وقائياً توعوياً يهدف إلى تجنب وقوع الأوبئة و الأمراض أو انتشارها، يضاف إلى ذلك النمو الديمغرافي، في كثرة الأمراض و الحوادث مما يتطلب مضاعفة الجهود سواء البشرية، المادية وحتى المعنوية والبحثية. كما أن الصحة عامل مهم لقيام الإنسان علماً أن تدني الخدمات الصحية يهدد السلم الاجتماعي بحيث يجب الحفاظ على الصحة وهذا بتأمين الحاجات الصحية للسكان.

### الإجراءات المنهجية للدراسة:

إن البحث الاجتماعي لا يتمثل في جمع المعلومات النظرية و الإطلاع على البحوث والدراسات التي تناولت المشكلة فقط، و إنما يعتمد على العمل الميداني الذي يمكن الباحث من جمع المعلومات من المجتمع الذي يقوم بدراسته. فمحاولة إثبات الدراسة النظرية بالدراسة العلمية الميدانية من أهم مساعي البحث العلمي لملا الفجوة القائمة بين الدراسة النظرية و الواقع بغية تحقيق أهداف الدراسة و التحقق من فرضياتها من خلال مجموعة من الأدوات و الإجراءات التي تساعدنا للوصول إلى تباين العلاقة بين متغيرات الدراسة.

### - المجال المكاني والبشري للدراسة:

تم استخراج عينة الدراسة بالاعتماد على قاعدة بيانات الإحصاء العام للسكان و السكن في الجزائر سنة 2008 باعتبارها الأكثر حداثة لان الجزائر تجري الإحصاء العام للسكان و السكن كل 10 سنوات، فلحسن الحظ الحصول على هذه القاعدة و لسوئه إجراء هذه الدراسة بالاعتماد على قاعدة بيانات عمرها 8 سنوات. حتى تكون الجودة معياراً لهذه العينة تم استخراج عينة تتكون من 500 أسرة موزعة على مختلف أحياء بلدية (وهران 12 مقاطعة إدارية) والتي تتمثل في مجملها دائرة وهران<sup>1</sup>.

### - المجال الزمني للدراسة:

الفترة الأولى: تم من خلالها معاينة المقاطعات الإدارية خلال الفترة الزمنية الممتدة ما بين أفريل إلى جوان 2016.

1- قاعدة البيانات الخاصة بولاية وهران، الإحصاء العام للسكان والسكن في الجزائر 2008.

الفترة الثانية : تم من خلالها الزيارة المباشر و مقابلة أفراد العينة المحددة خلال الفترة الزمنية الممتدة ما بين (أوت 2016- فيفري 2017). بحيث تعد هذه الفترة طويلة جدا وتنقص من مصداقية البحث ولكن هذا نظرا للظروف المادية التي تضطر الباحث لاتخاذ هذه الفترة الزمنية الطويلة.

يتضمن المجال الزمني فترة النزول إلى الميدان، ومن المعروف أن هذه الفترة تتوقف على نوعية الدراسة وأهدافها، وعليه فقد تمت الدراسة الميدانية على فترتين توزعت كالتالي:

#### 1 / المرحلة الأولى:

##### - الدراسة الاستطلاعية

تعتبر الدراسة الاستطلاعية المرحلة المهمة و الخطوة الفعالة و المنظار الذي يكشف الواقع في البحث العلمي، نظرا لارتباطها بالميدان فمن خلالها يتأكد الباحث من وجود عينة الدراسة ومعرفة بعض حثيات الميدان بالتركيز على إمكانية إجراء البحث بشكل سهل يخلو من المشاكل، العمل على أخذ كل الاحتياطات في حال وجود صعوبات للتمكن من إتمام البحث بسلام. بحيث تمت الدراسة الاستطلاعية التي أجريت على عينة مكونة من 30 أسرة خارج العينة الكلية في شهر جويلية (2016-2017).

##### - نتائج الدراسة الاستطلاعية

إن نتائج الدراسة الاستطلاعية خطوة مهمة نحو دراسة ميدانية أكثر دقة، لأن الدراسة الاستطلاعية تعمل على التقليل من أخطاء البحث الميداني من خلال تجربة في الميدان لمن لم يسبق لهم الخروج إليه حتى يتمكنوا من اخذ فكرة عن ميدان العمل، كما تفيد في اكتشاف ميدان الدراسة و اختبار الاستمارة ومعرفة مدى تجاوب المبحوثين وفهمهم للأسئلة المطروحة في الاستمارة حتى يتم تصحيح أو إلغاء و ربما إضافة أسئلة أخرى خدمة للدراسة من جهة، و حتى لا يتلقى من يجري البحث صعوبات وعراقيل قصد إنهاء البحث في الوقت المحدد و توفير الجهد من جهة أخرى. ثم إن الدراسة الاستطلاعية تهدف إلى تأكيد وجود عينة الدراسة من عدمها على أرض الواقع، و مدى سهولة أو صعوبة التواصل مع أفرادها للعمل على تحضير خطة عمل أثناء إجراء البحث على العينة الكلية.

#### 2 / المرحلة الثانية:

بعد التأكد من وجود عينة الدراسة من خلال الدراسة الاستطلاعية، ثم الشروع في تطبيق الدراسة التي دامت 07 أشهر تقريبا من أوت 2016 إلى فيفري 2017، حيث تم زيارة الأسر في مساكنهم ملأ الاستمارات و أحيانا تترك الاستمارات مع العودة إلى استرجاعها في وقت لاحق عندما لا يستطيع المبحوث استقبال الباحث داخل البيت، بعدما تم جمع كل الاستمارات ثم الشروع في عملية التفرغ قصد تحليل تلك النتائج وفق ما يقتضيه موضوع البحث.

وسائل جمع معلومات الدراسة الميدانية :

### - الاستبيان (الاستمارة):

هي أداة لجمع المعلومات المتعلقة بموضوع البحث عن طريق استمارة معينة تحتوي على عدد من الأسئلة مرتبطة بأسلوب منطقي مناسب، يجري توزيعها على أشخاص معينين لتعبئتها.<sup>1</sup> وقد جرت العادة في تصميم استمارة البحث أن تحصر العناصر الرئيسية التي يتشكل منها محتوى موضوع الدراسة في شكل أبعاد ومحاور.

ففي إستمارة هذه الدراسة حاول الباحث طرح كل الأسئلة التي تبادرت في الأذهان و كان لها رابط بموضوع البحث، كما تم القيام بتصحيح بعض الأسئلة و حذف أسئلة أخرى فور إجراء الدراسة الاستطلاعية. كما احتوى على عدة أسئلة سهلة و بسيطة في تناول كل المبحوثين.

وقد قسمت استمارة الدراسة إلى ست محاور:

- محور حول خصائص المسكن.

- محور حول المعلومات الشخصية للمرأة و الرجل.(رب الأسرة و المسؤول عن صحة أهل البيت)

- محور خاص بتردد المبحوثين على المؤسسات الصحية العمومية.

- محور خاص بالمشاكل الصحية التي يعاني منها سكان بلدية وهران.

- محور خاص بواقع الخدمات الصحية في بلدية وهران.

- محور خاص بآراء المبحوثين حول الخدمات الصحية المقدمة في المؤسسات الصحية العمومية.

كما تم الاعتماد في غالبية هذا الاستبيان على الأسئلة المغلقة، فكانت الأسئلة تتناوب بين أسئلة مغلقة ذات اقتراحين "نعم" أو "لا"، و أسئلة مغلقة متعددة الاقتراحات إذ يمكن للمبحوثين اختيار إجابة واحدة أو أكثر، وهذا ليتسنى تحليلها بشكل جيد وواضح خدمة لأهداف الدراسة.

### - أدوات التحليل الإحصائي:

نظرا لكبر حجم عينة الدراسة الميدانية فلا يمكن أن نقوم بتحليل نتائجها ذات العدد الكبير بطريقة العد اليدوي، لذا كان يلزم اختيار البرنامج الذي يسهل على الباحث كثيرا في تحليل و تفسير نتائج الدراسة، كان البرنامج الإحصائي المعروف بالحزم الإحصائية للعلوم الاجتماعية (طبعته 20) الأداة التي اختيرت و تم الاعتماد عليها في تحليل نتائج البحث الميداني الذي اجري قصد الكشف و التعرف على واقع الخدمات الصحية للسكان في ظل احتياجاتهم الصحية، و هذا باستعمال المنهج الإحصائي الذي يتماشى مع طبيعة الموضوع المعالج.

### نتائج الدراسة الميدانية:

#### 1 - توصيف العينة:

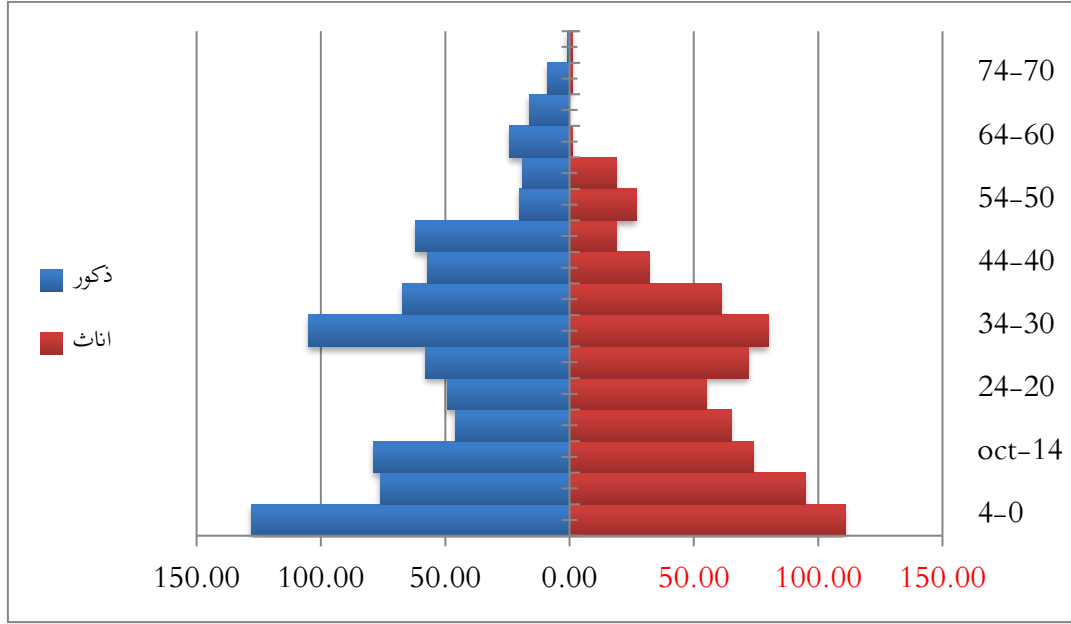
#### أ - توزيع مفردات العينة حسب العمر و الجنس

تتكون عينة الدراسة من 500 أسرة مستجوبة، من حيث الجنس بحيث قدرت نسبة الذكور بـ 53.37% و 46.63% بالنسبة للإناث. أما حسب العمر فقد بلغ العمر الوسيط لمفرداتها 24 سنة و المنوال 18 سنة، أما بالنسبة لمتوسط العمر

<sup>1</sup> - يحي مصطفى عليان، عثمان محمد غنيم، مناهج وأساليب البحث العلمي النظرية و التطبيق، الطبعة 01، دار صفاء للنشر و التوزيع، عمان، 2000، ص 82.

لكلا الجنسين معا فقدر بـ 25 سنة: 27 سنة للذكور و 23 سنة للإناث مما يعني إنها ضمت في غالبيتها فئات شابة (شباب). و حسب الفئات العمرية فقد قدرت نسبة الأطفال الأقل من 5 سنوات بـ 15.63%، مقابل 21% بالنسبة للفئة " 05-14 سنة" و 4% للأشخاص البالغين "60 سنة فأكثر".

الشكل 1: الهرم السكاني لعينة الدراسة.

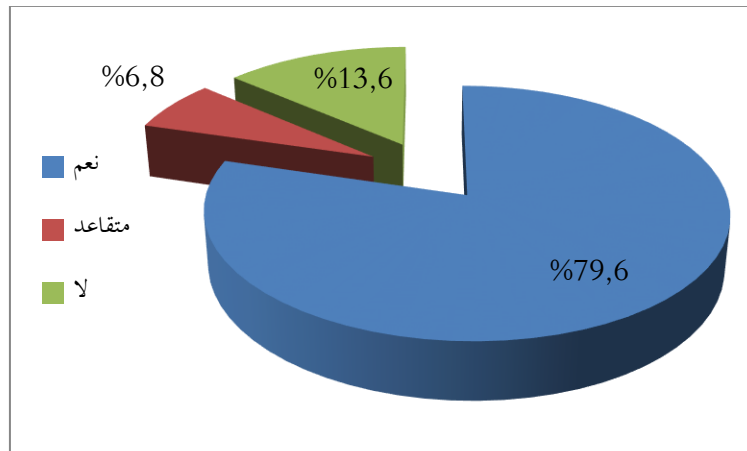


المصدر: جدول 1 في الملاحق.

ب - توزيع مفردات العينة حسب النشاط

يتضح من خلال التمثيل البياني أن الفئة المشتغلين تمثل أكبر نسبة فهي تقدر بـ 79.6% من مجموع العينة تليها الفئة الغير مشتغلين بنسبة 13.6%، أما 6.8% فتمثل فئة المتقاعدين.

الشكل 2: توزيع مفردات العينة حسب النشاط.



المصدر: البحث الميداني (2016-2017).

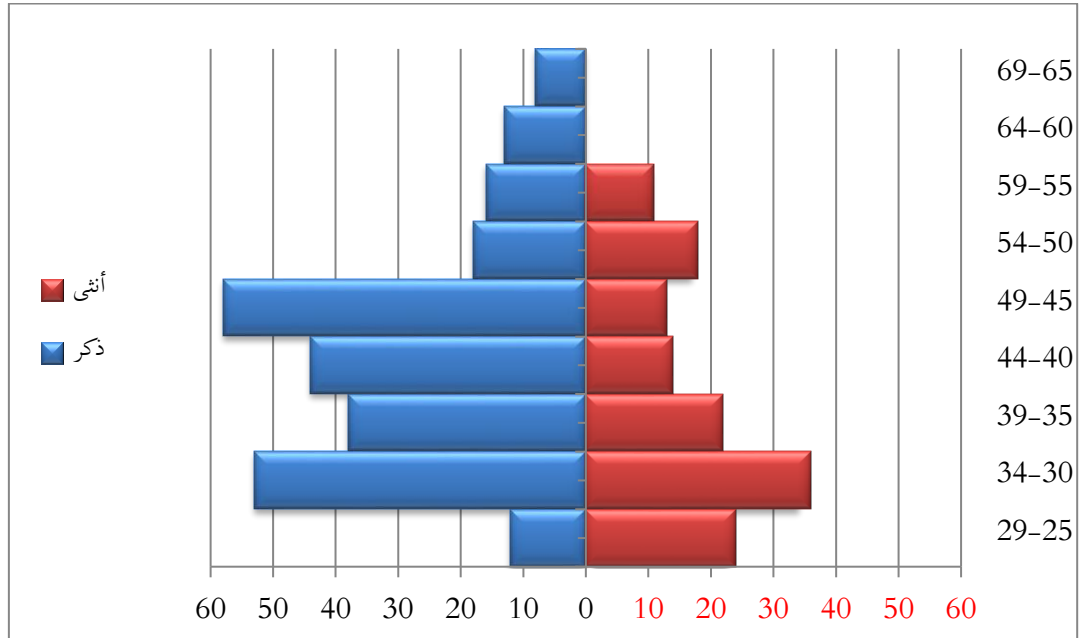
### ج - توزيع مفردات العينة العاملين حسب خصائصهم الديموغرافية :

قدرت نسبة العاملين بـ 79.6% ، يشكل منهم الذكور نسبة 65.3% و الإناث نسبة 34.7%. أما حسب السن فأكثر فئة عاملة لكلا الجنسين هي الفئة العمرية 30-34 سنة و تقدر بـ 22.4% .

### - توزيع العاملين في العينة حسب الجنس والسن:

يوضح هرم الأعمار بالنسبة للفئة العاملة في العينة حسب الجنس تفاوت في نسبة التشغيل بحيث أن فئة الذكور أكثر من الإناث في سن 25-29 سنة أي في قاعدة الهرم كما هو ملاحظ أن نسبة الإناث أكبر من الذكور، وبعدها يتوسع الهرم خاصة بالنسبة للذكور في سن 30-34 و 45-49 سنة، أما بالنسبة لباقي الأعمار فكانت نسبة الذكور تتغلب على الإناث.

### الشكل 3: توزيع العاملين في العينة حسب الجنس والسن:



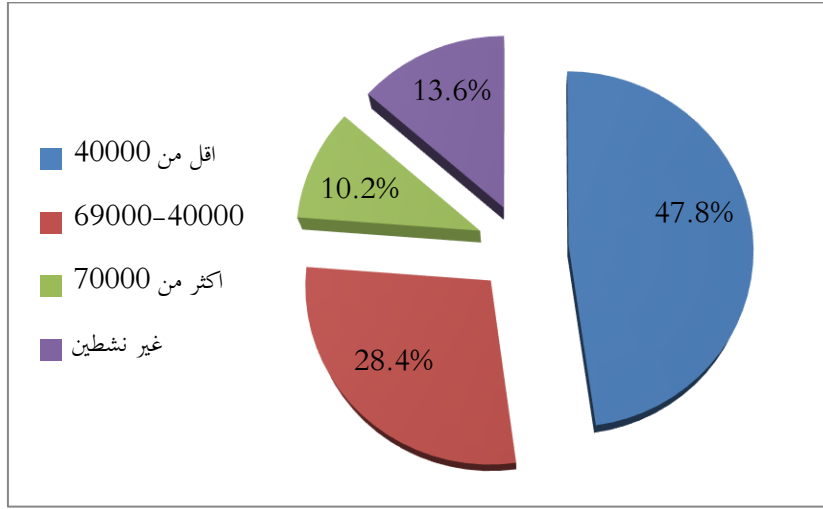
المصدر: البحث الميداني (2016-2017).

### - توزيع مفردات العينة حسب الدخل

يتبين من خلال الشكل أن 47.8% من العينة يتقاضون أجر أقل من 40000 دج، بينما 28.4% يتقاضون ما بين 40000 - 69000 دج و 10.2% يتقاضون أكثر من 70000 دج وهذا ما يعني أن أغلب أفراد العينة يعتبرون من أصحاب المستوى المعيشي الضعيف وهذا استنادا على معطيات الديوان الوطني للإحصائيات بحيث اعتبر 40000 دينار جزائري اجر متوسط، هذا ما يعني أن أقل من 40000 دج يعتبر أجر ضعيف<sup>1</sup> ، أما الفئة الغير عاملة فقدت بـ 13.6%.

<sup>1</sup> - ONS-Résultat de l'enquête annuelle sur les salaires auprès des entreprises Mai 2016 N°759.

الشكل 4: توزيع مفردات العينة حسب الدخل

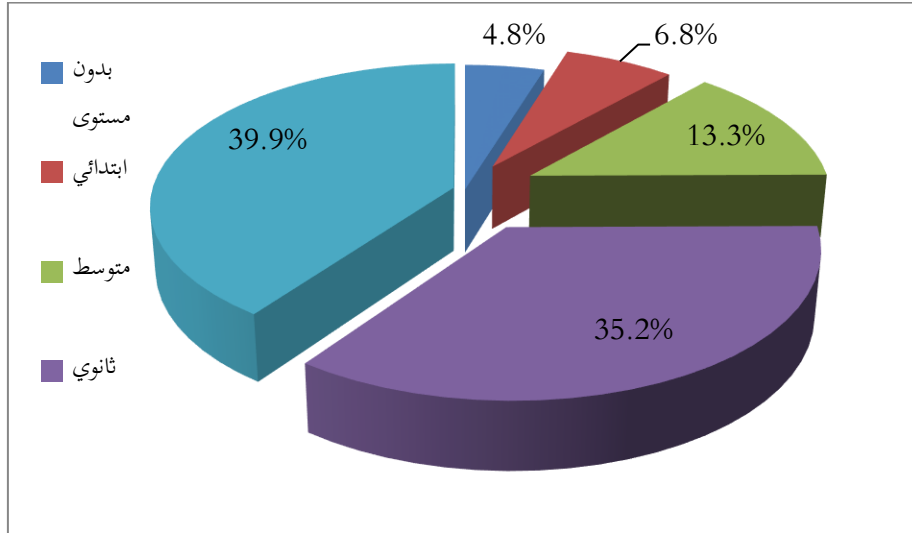


المصدر: البحث الميداني (2016-2017).

## - توزيع العاملين في العينة حسب المستوى التعليمي

من خلال التمثيل البياني تعود أعلى نسبة تشغيل لفئة المستوى التعليمي العالي و تقدر بـ 39.9% ثم تليها فئة التعليم الثانوي بـ 35.2% و فئة التعليم المتوسط بنسبة 13.3%، و تليها على التوالي فئة التعليم الابتدائي و فئة الأمية بنسبة 6.8% و 4.8%.

الشكل 5: توزيع المشتغلين في العينة حسب المستوى التعليمي:



المصدر: البحث الميداني (2016-2017).

## تقييم فرضيات الدراسة:

سنقوم باستخدام بعض الأساليب الإحصائية للإجابة على فرضيات الدراسة.

الفرضية الأولى: سوء التسيير سبب في تدهور الخدمات الصحية بمؤسسات الصحة العمومية ببلدية وهران.

يعتبر التسيير الجيد للموارد الصحية سواء كانت موارد مادية أو بشرية في المؤسسات الصحية العمومية أحد أهم عوامل تطور القطاع الصحي.

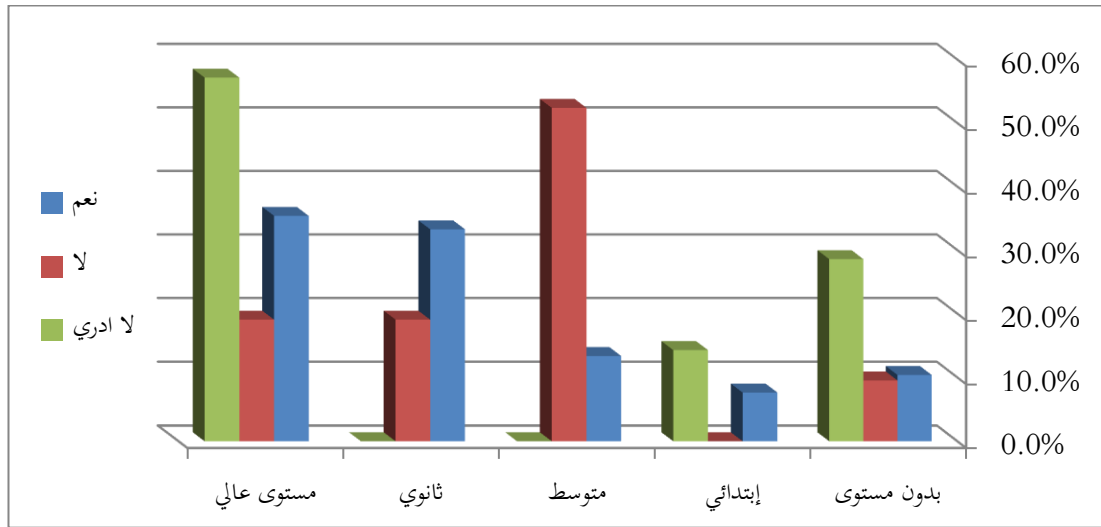
للتحقق من صحة هذه الفرضية وجدنا أن:

- نسبة نقائص القطاع الصحي تعود بالدرجة الأولى إلى نقص الكفاءات بنسبة 46%، نقص في المعدات 42.8% و 11% بالنسبة للتغطية.

- باستعمالنا لاختبار مربع كاي للاستقلالية وجدنا أن هناك علاقة ذات دلالة إحصائية بين معانات القطاع الصحي من نقائص و المستوى التعليمي عند مستوى دلالة 0.000.

- إن أكثر فئة كان رأيها أن القطاع الصحي يعاني من نقائص هي فئة المستوى العالي والثانوي بنسب قريبة من بعضها قدرت بحوالي 35%، أما الفئات الأخرى كانت نسبها ضئيلة لم تتجاوز 10%، أما أكثر فئة كان رأيها أن القطاع الصحي لا يعاني من نقائص هي فئة المتوسط بنسبة 55%، أما فئة الثانوي و العالي قدرت نسبتهما حوالي 20%، أما أدنى نسبة وهي معدومة فكانت لفئة الابتدائي. كما أنه من خلال استعمال اختبار مربع كاي للاستقلالية بين المتغيرين رأي الباحثين في معانات القطاع الصحي العام من نقائص و المستوى التعليمي تبين إحصائيا أن هناك علاقة بين هذين المتغيرين عند مستوى الدلالة 0.000.

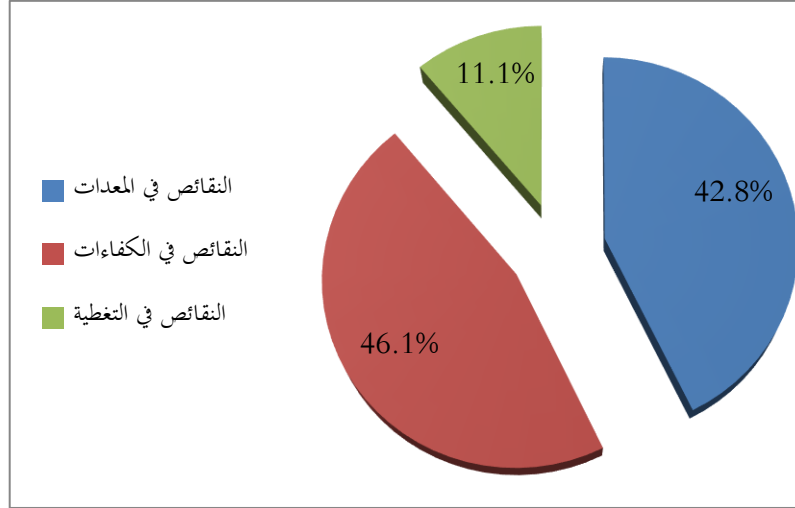
الشكل 6: رأي الباحثين حول معانات القطاع الصحي من نقائص و المستوى التعليمي.



المصدر: جدول 5 في الملاحق.

أما بالنسبة للذين كانت إجابتهم - نعم- أي أن القطاع الصحي يعاني من نقائص كانت للأسباب الموضحة في الشكل التالي:

الشكل 7: توزيع نسبة نقائص القطاع الصحي.



المصدر: جدول 3 في الملاحق

حسب رأي المبحوثين فإن نقائص القطاع الصحي تتمثل في 46% تعود لنقص في الكفاءات تليها 42% تعود لنقص في المعدات أما النسبة القليلة تعود إلى نقص في التغطية بنسبة 11%.

باستعمالنا لمقياس ليكرت الثلاثي بحيث كانت معظم إجابات المبحوثين حول توفر المعدات من حيث العدد بـ (كافية نوعاً ما) وتوفر المعدات من حيث النوعية بـ (متوسطة). هذا ما يعني أن المعدات ليست في المستوى المطلوب لتلبية حاجات المرضى.

معظم إجابات المبحوثين حول توفر المعدات من حيث العدد سواء بالنسبة للمستوى التعليمي أو مرض أحد أفراد الأسرة كانت الإجابة بـ "كافية نوعاً ما"، وهذا ما أكد بعد حساب المقياس الرباعي بحيث كانت جميع المتوسطات الحسابية موافقة للإجابة بـ "كافية نوعاً ما" ما عدى المتوسط الحسابي لفئة الابتدائي الذي كانت إجابته بـ "غير كافية". وهذا يعني أن رأي المبحوثين حول توفر المعدات من حيث العدد كان "كافية نوعاً ما".

الجدول 1: توفر المعدات من حيث العدد مع المستوى التعليمي ومرض احد أفراد العائلة.

| النتيجة       | المتوسط الحسابي | المجموع | توفر المعدات من حيث العدد |               |         |       |            |                      |
|---------------|-----------------|---------|---------------------------|---------------|---------|-------|------------|----------------------|
|               |                 |         | غير كافية                 | كافية نوعا ما | لا ادري | كافية |            |                      |
| كافية نوعا ما | 3,08            | 53      | 12                        | 37            | 0       | 4     | بدون مستوى | المستوى التعليمي     |
| غير كافية     | 3,43            | 37      | 24                        | 9             | 0       | 4     | ابتدائي    |                      |
| كافية نوعا ما | 3,01            | 74      | 29                        | 31            | 0       | 14    | متوسط      |                      |
| كافية نوعا ما | 3,06            | 161     | 50                        | 88            | 5       | 18    | ثانوي      |                      |
| كافية نوعا ما | 3,17            | 175     | 71                        | 82            | 2       | 20    | مستوى عالي |                      |
| كافية نوعا ما | 3,12            | 500     | 186                       | 247           | 7       | 60    | المجموع    |                      |
| كافية نوعا ما | 3,03            | 235     | 78                        | 119           | 6       | 32    | نعم        | مرض أحد أفراد الأسرة |
| كافية نوعا ما | 3,19            | 265     | 108                       | 128           | 1       | 28    | لا         |                      |
| كافية نوعا ما | 3,12            | 500     | 186                       | 247           | 7       | 60    | المجموع    |                      |

المصدر: نتائج البحث الميداني 2016-2017.

- توزيع توفر المعدات الصحية من حيث النوع والمستوى التعليمي.

إن أغلب إجابات المبحوثين في العينة حول توفر المعدات من حيث النوع حسب المستوى التعليمي كانت "متوسطة"، وهذا ما أكده المقياس الرباعي، وبعد حساب المتوسطات الحسابية تحددت إجابات المبحوثين حول رأيهم في توفر المعدات الصحية من حيث النوعية بـ "متوسطة".

الجدول 2: توفر المعدات الصحية من حيث النوع والمستوى التعليمي.

| النتيجة | المتوسط الحسابي | المجموع | توفر المعدات من حيث النوع |        |         |      |            |
|---------|-----------------|---------|---------------------------|--------|---------|------|------------|
|         |                 |         | سيئة                      | متوسطة | لا أدري | جيدة |            |
| متوسط   | 2,85            | 53      | 9                         | 35     | 1       | 8    | بدون مستوى |
| متوسط   | 3,16            | 37      | 16                        | 16     | 0       | 5    | ابتدائي    |
| متوسط   | 2,70            | 74      | 18                        | 36     | 0       | 20   | متوسط      |
| متوسط   | 2,88            | 161     | 36                        | 96     | 2       | 27   | ثانوي      |
| متوسط   | 2,82            | 175     | 33                        | 108    | 4       | 30   | مستوى عالي |
| متوسط   | 2,85            | 500     | 112                       | 291    | 7       | 90   | المجموع    |

المصدر: نتائج البحث الميداني 2016-2017.

وبهذا إننا نقبل هذه الفرضية بحيث وجدنا أن أغلب المبحوثين يرون أن القطاع الصحي يعاني من نقائص.

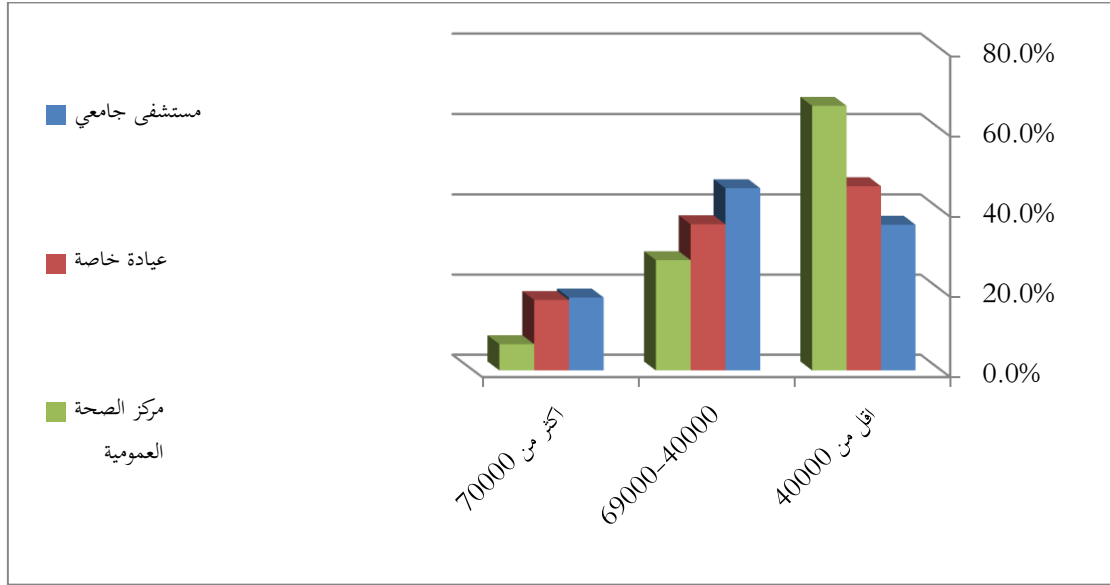
الفرضية الثانية: تؤثر نوع الطبقة الاجتماعية في تردد المبحوثين على مؤسسات الصحة العمومية ببلدية وهران.

للتحقق من صحة هذه الفرضية وباستعمال إختبار مربع كاي للإستقلالية وجدنا أن:

- هناك علاقة ذات دلالة إحصائية بين المتغيرين عند مستوى 0.000، بحيث وجدنا أن الفئة التي تتقاضى أدنى أجر أقل من 40000 دج تتوجه بقوة إلى مؤسسات الصحة العمومية بنسبة 66%.

- من المهم معرفة إذا كان هناك تأثير للدخل على مكان توجه المبحوثين للعلاج، وكما هو واضح من خلال التمثيل البياني أن الفئة التي يتراوح أجرها (أقل من 40000 دج) تتوجه أغلبيتها إلى مركز الصحة العمومية بنسبة 65.9%، أما بالنسبة للفئة التي أجرها (40000-69000 دج) تتوجه إلى المستشفى الجامعي بنسبة 45.9% و الفئة التي تتقاضى (أكثر من 70000 دج) تتوجه إلى المستشفى الجامعي بنسبة 18.2%. إحصائيا وحسب إختبار مربع كاي للإستقلالية بين الدخل و مكان توجه المبحوثين للعلاج عند مستوى دلالة (0.000) يتبين أن هناك علاقة بين الدخل و مكان التوجه للعلاج.

الشكل 8: العلاقة بين الدخل ومكان التوجه للعلاج (دينار جزائري).



المصدر: جدول 6 في الملاحق.

بالتالي فإننا نقبل هذه الفرضية على أساس أن أغلب المبحوثين من الطبقة الاجتماعية البسيطة أي ذات مستوى ضعيف يتوجهون إلى مؤسسات الصحة العمومية ببلدية وهران.

الفرضية الثالثة: سوء الاستقبال و التوجيه سبب في تدني الخدمات الصحية بمؤسسات الصحة العمومية ببلدية وهران.

- للتحقق من صحة هذه الفرضية وجدنا أن أهم سبب في تدني مستوى الخدمات الصحية هو ليس الاستقبال و التوجيه بل "إنتظار طويل من أجل العلاج" بنسبة 70.9%، أما الاستقبال الجيد فأخذ نسبة لا بأس بها قدرت بـ 36%، أما سوء معاملة الطاقم الطبي للمرضى فأخذ نسب قدرت بـ 28.1%.

- رأي المبحوثين حول الخدمات الصحية في المؤسسات التي توجهوا إليها.

الجدول 3: توزيع رأي المبحوثين حول الخدمات الصحية في المؤسسات التي توجهوا إليها.

| رأي المبحوثين حول الخدمات الصحية | %    |
|----------------------------------|------|
| الانتظار الطويل من للعلاج        | 70,9 |
| الاستقبال الجيد                  | 36,1 |
| سوء معاملة الطاقم الطبي للمرضى   | 28,1 |

المصدر: نتائج البحث الميداني 2016-2017.

إن 70.9% من إجابات المبحوثين في العينة عن رأيهم حول الخدمات الصحية كانت بـ "الانتظار الطويل من أجل العلاج"، في حين أن 36.1% من إجاباتهم كانت "الاستقبال الجيد" و 28.1% كانت "سوء معاملة الطاقم الطبي للمرضى".

بالتالي فإننا نرفض هذه الفرضية بحيث تبين لنا أن سوء الاستقبال و التوجيه ليس السبب الأول في تدني الخدمات الصحية في مؤسسات الصحة العمومية.

خلاصة:

شهد النظام الصحي تطورا ملحوظا منذ استرجاع السيادة الوطنية، والدليل ما حققه في سبيل القضاء على معظم الأمراض المتنقلة منها و المزمنة. لكن هذا لا يعني أن النظام الصحي لا يخلو من نقائص بل العكس فهو يشهد عدة مشاكل تنظيمية تخص الهياكل والمؤسسات الصحية بكل أنواعها، مما أثر سلبا على السير العام للمؤسسات و الصعوبة التي تجدها في تقديم الخدمات الصحية للسكان والتي تشكل تحديات كبيرة ينبغي مواجهتها مستقبلا في ظل التحولات الديمغرافية وتغيير خارطة المرض، إذن فإصلاح المنظومة الصحية أصبح أكثر من ضروري في الوقت الراهن، وهذا راجع لعدم استجابتها بالقدر الكافي للمتطلبات المتنامية للسكان، وكذا في ظل ضعف الفعالية وهو ما يجعل السلطات الجزائرية تقتنع بحتمية تسريع إصلاح صحي يقوم على تقريب الصحة من المواطن وترتيب مستويات العلاج مع إعادة التركيز على الوقاية وتحسين نوعية الخدمات الصحية.

### الملاحق:

الجدول 01: توزيع أفراد العينة حسب السن والجنس .

| المجموع |       | الجنس |       |      |       |         |
|---------|-------|-------|-------|------|-------|---------|
|         |       | إناث  |       | ذكور |       |         |
| %       | العدد | %     | العدد | %    | العدد |         |
| 16      | 239   | 7     | 111   | 8    | 128   | 4 – 0   |
| 11      | 171   | 6     | 95    | 5    | 76    | 9 – 5   |
| 10      | 153   | 5     | 74    | 5    | 79    | 10 – 14 |
| 7       | 111   | 4     | 65    | 3    | 46    | 15 – 19 |
| 7       | 104   | 4     | 55    | 3    | 49    | 20 – 24 |
| 9       | 130   | 5     | 72    | 4    | 58    | 25 – 29 |
| 12      | 185   | 5     | 80    | 7    | 105   | 30 – 34 |
| 8       | 128   | 4     | 61    | 4    | 67    | 35 – 39 |
| 6       | 89    | 2     | 32    | 4    | 57    | 40 – 44 |

|     |      |    |     |    |     |         |
|-----|------|----|-----|----|-----|---------|
| 5   | 81   | 1  | 19  | 4  | 62  | 45 – 49 |
| 3   | 47   | 2  | 27  | 1  | 20  | 50 – 54 |
| 2   | 38   | 1  | 19  | 1  | 19  | 55 – 59 |
| 2   | 25   | 0  | 3   | 2  | 24  | 60 – 64 |
| 1   | 16   | 0  | 0   | 1  | 16  | 65 – 69 |
| 1   | 10   | 0  | 0   | 1  | 9   | 70 – 74 |
| 0   | 2    | 0  | 0   | 0  | 1   | 75 – 80 |
| 100 | 1529 | 47 | 713 | 53 | 816 | المجموع |

المصدر: نتائج البحث الميداني 2016-2017.

الجدول 02: توزيع مفردات العينة حسب النشاط

| النشاط         | العدد | %    |
|----------------|-------|------|
| نعم يمارس نشاط | 398   | 79.6 |
| لا يمارس نشاط  | 68    | 13.6 |
| متقاعد         | 34    | 6.8  |
| المجموع        | 500   | 100  |

المصدر: نتائج البحث الميداني 2016-2017.

الجدول 03: توزيع العاملين في العينة حسب الجنس والسن.

| المجموع | جنس  |     |         |
|---------|------|-----|---------|
|         | أنثى | ذكر |         |
| 36      | 24   | 12  | 25-29   |
| 89      | 36   | 53  | 30-34   |
| 60      | 22   | 38  | 35-39   |
| 58      | 14   | 44  | 40-44   |
| 71      | 13   | 58  | 45-49   |
| 36      | 18   | 18  | 50-54   |
| 27      | 11   | 16  | 55-59   |
| 13      | -    | 13  | 60-64   |
| 8       | -    | 8   | 65-69   |
| 398     | 138  | 260 | المجموع |

المصدر: نتائج البحث الميداني 2016-2017.

الجدول 04: توزيع مفردات العينة حسب الدخل (1000 دج)

| المجموع | الغير عاملين | أكثر من 70 | 69-40 | أقل من 40 | الدخل |
|---------|--------------|------------|-------|-----------|-------|
| 100     | 10.2         | 13.6       | 28.4  | 47.8      | %     |

المصدر: نتائج البحث الميداني 2016-2017.

الجدول 05: توزيع العاملين في العينة حسب المستوى التعليمي.

| المستوى التعليمي | بدون مستوى | ابتدائي | متوسط | ثانوي | مستوى أعلى | المجموع |
|------------------|------------|---------|-------|-------|------------|---------|
| %                | 4.8        | 6.8     | 13.3  | 35.2  | 39.9       | 100     |

المصدر: نتائج البحث الميداني 2016-2017.

الجدول 06: دخل المبحوثين و مكان التوجه للعلاج

| مكان التوجه للعلاج  |            |              |            | الدخل<br>(1000 دج) |
|---------------------|------------|--------------|------------|--------------------|
| مركز الصحة العمومية | عيادة خاصة | مستشفى جامعي |            |                    |
| 65.9                | 45.9       | 36.4         | أقل من 40  |                    |
| 27.5                | 36.5       | 45.5         | 69-40      |                    |
| 6.6                 | 17.6       | 18.2         | أكثر من 70 |                    |

المصدر: نتائج البحث الميداني 2016-2017.

الجدول 07: رأي المبحوثين حول معانات القطاع الصحي من نقائص والمستوى التعليمي

| المستوى التعليمي |         |       |       |            | رأي المبحوثين حول معانات القطاع الصحي من نقائص |     |
|------------------|---------|-------|-------|------------|--|-----|
| بدون مستوى       | إبتدائي | متوسط | ثانوي | مستوى أعلى |  |     |
| 10.7             | 7.6     | 13.3  | 33.3  | 35.4       |  | نعم |
| 9.5              | 0       | 52.4  | 19    | 19         |  | لا  |
| 28.6             | 14.3    | 0     | 0     | 57.1       | لا أدري  |     |
| 100              | 100     | 100   | 100   | 100        | المجموع  |     |

المصدر: نتائج البحث الميداني 2016-2017.

قائمة المراجع:

- 1- يحي مصطفى عليان، عثمان محمد غنيم، مناهج وأساليب البحث العلمي النظرية و التطبيق، الطبعة 01، دار صفاء للنشر و التوزيع، عمان، 2000.
- 2- قاعدة البيانات الخاصة بولاية وهران، الاحصاء العام للسكان والسكن في الجزائر 2008.
- 3- ONS-Résultat de l'enquête annuelle sur les salaires auprès des entreprises Mai 2016 N°759

## نظرية الحضارة عند اسوالد اشبنجلر - مقارنة تحليلية في دورة الحضارة-

بروال جمال/جامعة باجي مختار عنابة ، الجزائر

Oswald Spengler Theory of Civilization- An analytical approach in the course of civilization-

ملخص :

يهدف هذا المقال الى تسليط الضوء على بعض معالم نظرية التعاقب الدوري للفيلسوف الألماني اسوالد اشبنجلر، والتي تعد من ابرز النظريات الفلسفية المقارنة لموضوع الحضارة في التداول الفلسفي الغربي المعاصر، هذه النظرية التي استمد اشبنجلر منطلقاتها من الواقع المعيش لأمتة، حيث جعل منه مادة للبحث والفكر، ولعل هذا هو السبب الذي لفت إليه الأنظار، وجعل نظريته من أهم النظريات المفسرة للحضارة.

هذه الدراسة مقسمة بعد المقدمة الى ثلاث محاور أساسية:

المحور الأول وهو محور مفاهيمي، خصص لإبراز مفهوم دورة الحضارة، والمحور الثاني خصص لتقصي أهم الخصائص والمحددات لدورة الحضارة عند اشبنجلر، أما المحور الثالث والأخير وخصص لتحديد مسار الحضارة عند الفيلسوف.

لنخلص بعد هذه المحاور الى جملة من النتائج.

الكلمات المفتاحية: الحضارة، دورة الحضارة، مسار الحضارة، اسوالد اشبنجلر.

### Abstract

This article seeks to shed light on some of the distinguishing features of the theory of Historical Cycles designed by the German philosopher, Oswald Spengler. It is one of the most prominent, philosophical theories on civilization in contemporary, Western, philosophical deliberation. Spengler inspired the origin of his theory from his nation's reality. He made it material for research and thought. Perhaps this is the reason that has attracted attention to his theory and made it one of the leading explanatory theories of civilization.

This study, apart from the introduction, is divided into three sections:

The first section is a conceptual one. It is dedicated to highlight the role that civilization plays. The second section is devoted to investigate the core properties and determinants of civilization for Spengler. As for the third and last section, it determines the course of civilization according to the philosopher.

At the end, we come at a number of results.

**Keywords:** Civilization, civilization cycle, Civilization path, Oswald Spengler

## مقدمة :

إن أغلب الفلاسفة والمفكرين يعتبرون أن التاريخ حتما بدأ بشخصين، لكن لم يمض زمن حتى اتسعت الشبكة الاجتماعية، فانقسم إلى شعوب وقبائل متعددة الألوان والأجناس، ثم أضحت متنوعة المفاهيم والأفكار، وهو الأمر الذي أخرج بالفعل الإنسان من بدائيته إلى مجال الألفة والتجمع وإبداع الحضارات. فالتاريخ الإنساني هو تاريخ الحضارات، حيث لا يمكن التفكير في تاريخ الإنسانية، دون التفكير والتأمل في ماضٍ موعج في القدم، يمتد عبر أجيالٍ وحقبٍ طويلة، بدءاً من الحضارات الشرقية القديمة، كالحضارة الفرعونية والبابلية والهندية والصينية مروراً بالحضارة اليونانية والرومانية وصولاً إلى الحضارتين العربية والإسلامية والغربية.

ولذلك لا يخفى على أي دارسٍ حفيف للفكر البشري، أن موضوع الحضارة يعد من بين الموضوعات التي استقطبت اهتمام الكثير من الدارسين والباحثين بمختلف تخصصاتهم وحقولهم المعرفية، كالمؤرخين وعلماء الحضارة عموماً وفلاسفة التاريخ والحضارة على وجه الخصوص، وذلك لما له من صلة وطيدة بكيئونة الإنسان، هذا الموضوع الذي يمكن عده من أعقد الموضوعات على الإطلاق، لسعة مجالاته، وتعدد أطرافه، ولذلك تم مقارنته من زوايا متعددة، والتي تمخض عنها انبثاق تعدد وتنوع الأطروحات والنظريات حول تفسيرها وفهمها سواء كان ذلك، من حيث مفهوماً وخصائصها ومقوماتها، أو من حيث مسارها أو من حيث أسباب نشوءها ونهوضها وتطورها وكذا أسباب تدهورها وسقوطها، وذلك تبعاً للأزمات التي تشهدها، فأزمة الحضارة تعد علامة ومؤشر السقوط وتوحي بانتهاء دورها، وهي لا تخص حضارة أمة بعينها، بل هي قانون عام يسري على كل الحضارات الإنسانية... ولعل من بين أهم النظريات التي ظهرت في هذا الإطار، نجد نظرية الفيلسوف الألماني إرنست هوبنجر\*، الذي اهتم بكيفية نشوء وتطور الحضارات، وكذا أسباب انهيار وسقوط الحضارة، وذلك في مؤلفه الشهير "تدهور الحضارة الغربية" هذا المجال الذي نصلح عليه بـ "الدورة الحضارية" ولعل اهتمام هوبنجر بهذا المجال من البحث في الحضارة لم يكن محل المصادفة، بل نابع من صلب واقع الحضارة الغربية التي عايشها، الذي جعله مادة للفكر والبحث، هذا الواقع الذي لفت أيضاً أنظار كثير من الدارسين على غرار "جيامباتيستا فيكو" (1668-1774) و"أرنولد توينبي" (1889-1975) و"ألبرت شفايتزر" (1875-1965) و"الفن توفلر" (1928-2016) Alvin Toffler وغيرهم، وجعل أيضاً نظريته من أهم النظريات التي طرحت في موضوع الحضارة.

هذه الدراسة تستهدف إبراز المنظور الشبنجلري في تفسير الحضارة، وذلك بمعرفة أهم المعالم التي تميز نظريته عن بقية النظريات الأخرى، هذا من جهة، ومن جهة أخرى التعرف على الأسس والمقومات التي استند إليها في ذلك.

فالإشكالية الجوهرية التي يطرحها المقال هي: هل استطاع هوبنجر أن يؤسس لنظرية تفسر الحضارة عبر التاريخ؟

\* أسوالد اشبنجلر Oswald Spengler (1880-1936) مؤرخ وفيلسوف ألماني، له اهتمامات بالرياضيات والعلم والفن، عرف بكتابه "انحدار الغرب" الذي نشر سنة 1918 وعنوانه باللغة الأصلية - الألمانية، Der Untergang des Abendlandes ترجم إلى اللغة الفرنسية بـ Le Déclin de l'Occident و إلى اللغة الإنجليزية بـ *The Decline of the West* وترجم إلى اللغة العربية بـ "تدهور الحضارة العربية" وهو كتاب يعرض فيه نظريته في الحضارة، القائمة على فكرة التعاقب الدوري، حيث جعل للحضارات عمراً محدوداً وأن مصيرها إلى الأفول، ولعله تأثر بما كتبه ابن خلدون في هذا المجال. إضافة إلى هذا أنه قام فيه بتغطية كل تاريخ العالم.

هذه الإشكالية تطرح جملة من التساؤلات الفرعية وهي: ما المراد بالدورة الحضارية؟ كيف فسّر اشبنجلر قيام وسقوط الحضارات؟ وهل يمكن القول بوجود حضارات متعددة أم حضارة عالمية واحدة؟ وإلى أي مدى يمكن اعتبار نظريته موضوعية؟ وهل يعد تفسيره أصيلاً أم هو مجرد امتداد لرؤى وأطروحات سابقة معلنة أم غير معلنة؟

أولاً: في دلالات المفهوم:

#### 1- مفهوم الدورة:

مصطلح الدورة- كما ورد في معاجم اللغة العربية- اسم مصدر مشتق من الفعل دار وتحرك وعاد إلى حيث كان،<sup>(1)</sup> وجاء في لسان العرب لابن منظور أن الدورة "اسم مشتق من الفعل دار يدور واستدار يستدير بمعنى طاف حول الشيء، وإذا عاد إلى الموضوع الذي ابتدأ منه، ومعنى الحديث أن العرب كانوا يؤخرون المحرم إلى صفر، وهو النسيء ليقاتلوا فيه، ويفعلون ذلك سنة بعد سنة، فينتقل المحرم من شهر إلى شهر، حتى يجعلوه في جميع شهور السنة كهيتها الأولى"<sup>(2)</sup>

أما مدلول المصطلح في اللغة الأجنبية (cycle) فنجد أنه لا يختلف عن مدلوله في اللغة العربية، فهو كما ورد في معجم الأكاديمية الفرنسية اسم يعنى الدائرة أو الدورة، مثل دورة الشمس، والقمر<sup>(3)</sup> وجاء في معجم لاروس، اسم يعنى سلسلة الحوادث التي تتكرر وفق ترتيب محدد<sup>(4)</sup>، مثل دورة الفصول الأربعة، الحياة، القمر، الماء. إلا أن المصطلح، لم يعد حكراً على الظواهر الطبيعية بل امتد إلى مختلف التخصصات والحقول المعرفية، إذ يعد بمثابة قانون بين فكرة التحول والنظام الذي تشهده ظاهرة أثناء حركتها سواء كانت طبيعية أم إنسانية.

لا شك أن التعريف اللغوي للدورة، له صلة بمفهومها الاصطلاحي، حيث تعني مجموع المراحل والأطوار المتتابعة التي تشهدها الحوادث أثناء حركتها، سواء كانت هذه الحوادث إنسانية أو طبيعية، حيث تشهد نفس الانطلاقة والميلاد، لتصل إلى الاكتمال والنهاية، لتعيد نفسها وفق نفس الترتيب والسيرورة. وهذا ما ذهب إليه الجابري، حيث يقول في كتابه "مسألة الهوية العروبة والإسلام...والغرب" أن الحدوث - حدوث الظواهر والكائنات- دائري ضروري، ولذلك فإن كل ما يحدث، لا بد وأن يحدث بصفة دورية، فإذا كان من الضروري وجود شيء ما في هذه اللحظة، فإنه من الضروري كذلك أن يكون ذلك الشيء نفسه قد وجد من قبل، وإذا كان الشيء موجوداً الآن فإنه من الضروري أن يوجد من جديد في المستقبل، ويتكرر هذا ما لا نهاية<sup>(5)</sup> فصفة الدورية في نظر الجابري لا تخص حوادث معينة، بل تشمل جميع الحوادث التي تحصل في الكون، فكل شيء في هذا الوجود يسير ويتحرك ويتغير ثم يختفي ليعود إلى نفس النقطة التي انطلق منها ليشهد نفس الحركة من جديدة، وهذا ما ينطبق على الحضارة كظاهرة إنسانية التي هي مدار المقاربة.

إن هذه الحركة الدورية أفرزت التفكير في المستقبل (مستقبل الإنسان الفرد ومستقبل الشعوب والأمم) ومن ثمة التخطيط والعمل من أجله، والذي يكاد يكون السمة البارزة للعصر الحديث، الذي عرف انطلاقة في القرن السادس عشر الميلادي (النهضة الأوروبية) لكن هذا لا يلغي اهتمام تفكير الإنسان بغدهم قبل ذلك التاريخ، إذ لا مناص من القول أن اهتمام الإنسان بمصيره بعد الموت اتخذ أشكالاً مختلفة من أبسطها وأقدمها، كما يتجسم في تصرفات الفراعنة، حول موتاهم.

(1) المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق بيروت ط36، 1997 ص 228.

(2) جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي ابن منظور، لسان العرب، حرف الدال المهملة، المجلد الخامس، دار صادر، بيروت، ص 323.

(3) - dictionnaire de l'académie française; éditions ebooks; France; 5 édition; 1798 p829

(4) - dictionnaire Larousse; G G P Media GmbH; Allemagne 2011page 203

(5) محمد عابد الجابري، مسألة الهوية والعروبة والإسلام...والغرب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط4، 2012، ص 96.

الى جانب هذا التعامل العامي مع قضية المستقبل في الحضارات القديمة، تصورات عالمة تربط مصير البشر، وبالتالي عالم الغد بحركات الكواكب ودورات الفلك في إطار رؤية للعالم تقوم على فكرة العود الأبدي (retour eternel) وذلك بناء على تصور دائري للزمان، قائم على ملاحظة ظواهر الكون، الأمر الذي استنتج منه القدماء أن الظواهر الكونية، بما فيها حياة الإنسان ومستقبله ومصيره ترتبط حتما بحركات الكواكب ودورات الفلك<sup>(1)</sup>. إن مصطلح الدورة، مبدأ أو قانون يشمل كل حوادث الكون، ففي البداية كان يفسر به ظواهر الطبيعة، ثم امتد شيئا فشيئا ليفسر به ظواهر المجتمع والحضارة، إذ لا تنفك هذه الأخيرة عن هذا القانون الكوني.

إن الحضارات الشرقية القديمة لا تنفك عن هذا القانون، فنجد في الهندوسية، اعتقاد فحواه أن الكون بأسره يمر وفق دورات متتابعة و طويلة، تبدأ بالصفاء والفضيلة، ثم تتبعها مرحلة تعرف نقصا في الفضيلة فيعم الشر ويقل الخير، ويسود النزاع والمرض، ثم يعود الكون فينبعث من جديد، فالكون يشهد دورات حتمية من الوحدة الى الكمال والتفرق والانحلال، الى الانبعاث من جديد، لتعيد نفسها، وفق نفس الحركة. هذه الحركة تابعة لتبدل الروح المطلقة الكبرى (براهما)<sup>(2)</sup>. كما نجد عند الصينيين اعتقاد بوجود نظام كوني يسود كل ما يجري في الكون، يدعى بمصطلح (التاو) (tao) وهو يقوم على مبدأين هما: (الين) (yin) وهي حالة السلب (الجمود والسكون) و (ينج) (yang) وهي حالة الإيجاب (النشاط والفعل) فالكون حركة مد وجزر دائمة، مثلها مثل حياة الأفراد والجماعات، خاضعين لتعاقب هاتين الحالتين، تعاقبا لا مفر منه<sup>(3)</sup>.

أما في الفلسفة اليونانية، فنجدها بدورها لم تبرح هذه الصفة الدورية، فـ "هيراقليدس" herakleitos (540-480 ق م) قال بالحركة الدائمة، فالتغير والحركة يمثلان سنة الكون، وسبب هذه الحركة الصراع، هذا الأخير الذي يؤدي الى تحول الأشياء، الى بعضها البعض، فمن أقواله المأثورة: "الشبه التاريخي موت الهواء، والهواء يعي موت النار، والماء يعي موت التراب، والتراب يعي موت الماء، والحيوان يعي موت النبات، والإنسان يعي موت الاثنين، أي يعيش بموتهما"<sup>(4)</sup> كما نجد أفلاطون platon (429-347 ق م) الذي يرى أن التاريخ عبارة عن مجموعة من الدورات، لا بد من أن ينتهي بالانحلال والتفكك، فالشعوب والحضارات تنشأ ثم تنضج ثم تنحل، ولعل فكرة التعاقب الدوري حول الدولة، قد سبقت ابن خلدون، حيث نجد معالمها الأولى عند أفلاطون في جمهوريته، كما تتجلى في تطور الدولة أو أشكال الرئاسات، بدءا من رئاسة الحكم المثالي للفلاسفة، حيث الحكمة والفضيلة ونزعة العقل، ثم يبدأ هذا الحكم مع مرور بالتدهور، نتيجة وجود زيجات غير مناسبة، والتي ينتج عنها نسل ضعيف غير موهوب، لتسمو الروح العسكرية شأنها شأن حكم الارستقراطية العسكرية، ثم تبدأ نزعة حب التملك في الطفيلان على حساب حب الشجاعة والحكمة فتنشأ حكمة ارستقراطية الأغنياء- الاوليغارشية- ثم يتطور الأمر الى نشوء الحكومة الديمقراطية حيث الأقلية تسعى للسلطة، فينتج عنها الفوضى والفساد، مما يؤدي الوصول الى الحكم الاستبداد الفردي، والذي يعد أسوأهم، لأنه يمثل الأناية وحب التملك للفرد.

ونتيجة لهذا التدهور يؤدي منطقيا إلى التفكير في إقامة الدولة المثالية من جديد ويحكم الفلاسفة مرة أخرى، حيث تعود الدورة في الحدوث من جديد<sup>(5)</sup>.

(1) نفس المرجع ص 97-98-99.

(2) مصطفى سامي النشار، من التاريخ الى فلسفة التاريخ قراءة في الفكر التاريخي عند اليونان، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، دع، دت ص 82.

(3) قسطنطين زريق، في معركة الحضارة، دراسة في ماهية الحضارة وأحوالها دار الملايين، بيروت، ط1، 1964 ص 180.

(4) حسين مؤنس، الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت 1978، ص 131.

(5) احمد محمد زنتي، علم التاريخ واتجاهات تفسيره اقتراب جديد، مكتبة الانجلو عصرية مصر القاهرة ط1، 2007 ص 80-81.

لكن هذه النظرية بلغت قممها عند الرواقيين (stoicism) الذي اعتبروا أن تاريخ العالم يعد مظهرًا للـلغوس (logos)، إذ العقل الكلي تقع بموجبه الأحداث الماضية والحاضرة والمستقبلية. فتاريخ العالم في اعتقاد الرواقي، سلسلة لا نهاية لها، من الولادة إلى الفناء، وكل موجوداته تنتج من هذه القوة العاقلة التي تتخلله<sup>(1)</sup>.

## 2- مفهوم الحضارة:

معنى الحضارة في اللغة العربية، لا يخرج عن دائرة الإقامة في الحضر، أي المدن والقرى، فهي نقيض البداوة، جاء في لسان العرب لابن منظور، أن مصطلح الحضارة يعني الإقامة في الحضر وهي خلاف البدو<sup>(2)</sup> وورد في المعجم الفلسفي لجميل صليبا، بقوله: "الحضارة تعني الإقامة في الحضر، بخلاف البداوة التي تعني الإقامة في البوادي"<sup>(3)</sup> فالحضارة أريد منها ما يستتبع من الإقامة في الحضر، من تعاون وتآزر وتبادل للأفكار في مختلف ميادين الحياة، من علوم وعمارة وثقافة ومعارف، وغير ذلك ما يتصل بتقدم الإنسان وترقيه في مختلف مناحي الحياة.

وفي اللغة الأجنبية، نجد لفظ الحضارة (civilisation) قد ظهر في اللغة الفرنسية عام 1734 م (عصر الأنوار) وينحدر أصله من صفة (civilisé) (متحضر) في القرن السابع عشر، هذه الصفة تنحدر من الفعل (civiliser) في القرن الثالث عشر، المشتق من الضرف (civilement) ومن الصفة (civil) (مدني، متحضر) في القرن الثالث عشر، المأخوذة بدورها من اللغة اللاتينية (civilité) وكذلك (cité) (مدينة، حاضرة) في القرن الحادي عشر، المأخوذة من (civitas)<sup>(4)</sup> ثم تطور المصطلح في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وأصبح يعني حالة التحضر في مقابل التوحش والهمجية، فالمتحضر هو الذي يحمل الصفات المكتسبة والظواهر المميزة للعالم المتقدم الذي يمثله الإنسان الأوربي آنذاك، وبذلك أسس المفهوم على المركزية الأوروبية، أي هيمنة أوربا على شعوب العالم في جميع المجالات، وأصبح التقدم العلمي والتكنولوجي معيار التمييز بين المجتمعات المتحضرة عن المجتمعات غير المتحضرة. ثم أن المصطلح، كما تذكر الموسوعات، ليس عريق الاستعمال، حيث أن قاموس الأكاديمية لم تستعمله، إلا ابتداء من 1835 م، وتواصل الموسوعة، إن هذا المصطلح رغم تداوله، إلا أنه بقي غامضاً، إلى درجة نجد البعض لا يميزون بين الثقافة والحضارة، مثل بعض فلاسفة الألمان، وهذا رغم اختلاف مجال كل واحد منهما، ولعل تعريف "ليترى" littré يعد أوضح وأدق تعريف لها. حيث عرفها بقوله: "الحضارة هي مجموع الآراء والعادات التي تنتج من الفعل المتبادل للفنون الصناعية والدين والفنون الجميلة والعلوم"<sup>(5)</sup>.

يعرفها عبد الرحمان بن خلدون بأنها "نهاية العمران وخروجه إلى الفساد، ونهاية الشر والبعد عن الخير"<sup>(6)</sup> فهذا التعريف يشير إلى المرحلة الأخيرة التي بها الدولة أو المجتمع عندما تتفكك رابطة العصبية، وتضمحل تلك الرابطة التي توحد المجتمع وتساعد على بنائه. فالحضارة بالمفهوم الخلدوني مرادفة للمدنية، حيث تعني درجة من التقدم التي تبلغها المجتمعات، ف"هي أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران، زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه المادي"<sup>(7)</sup> إذ هي تتجسم في مختلف النظم

(1) مصطفى سامي النشار مرجع سابق ص 96-97.

(2) ابن منظور، مصدر سابق، حرف الحاء، المجلد الرابع، ص 148.

(3) جميل صليبا، ج 1، دار الكتاب اللبناني بيروت، ط 1، 1978 ص 475.

(4) رولان بريتون، جغرافيا الحضارات، ت: خليل أحمد خليل، د د، بيروت، د ع، 1993، ص 19.

(5) أمينة شيكو، مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وارنولد توينبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ع، 1989، ص 18.

(6) عبد الرحمان ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الفكر للطباعة والنشر بيروت د ع، 2007، ص 137.

(7) نفس المصدر ص 405.

السياسية وفي العلوم والصناعات والاختراعات على وجه العموم، فهي تعد مرحلة من الرقي والنمو والنشاط التي تكون بعدها مرحلة الانهيار والانحدار والأفول، وهو المفهوم الذي يظهر أثره في تصور اشبنجلر لدورة الحضارة.

أما جميل صليبا فيميز بين معنيين: أحدهما موضوعي (objective) والأخر ذاتي (subjective) الموضوعي ويطلق على جملة مظاهر التقدم الأدبي والفني والعلمي والتقني، التي تنتقل من جيل إلى جيل آخر، في مجتمع واحد أو عدة مجتمعات متشابهة، كان نقول الحضارة الصينية أو الحضارة الأوروبية. وهذا المعنى فهي متفاوتة فيما بينها. أما المعنى الذاتي فهي تعني مرحلة سامية، من مراحل التطور الإنساني المقابلة لمرحلة الهمجية، والتوحش.

فالحضارة هي أرقى المراحل التي وصلت إليها أمة من الأمم في نواحي حياتها وأنشطتها الفكرية والعلمية، من عمران وعلوم و معارف وفنون ومختلف المكتسبات.

يطلق اشبنجلر على دور الفتوة والإنتاج الروحي - دور الطفولة والشباب- أما الدور الثاني فهو دور الركود والإنتاج المادي، ويمثل مرحلة المدنية. فلفظ الحضارة يطلق على الدورين السابقين، واللذين تمر بهما كل حضارة إنسانية، حيث يعرفها في كتابه "دهور الغرب" بقوله: "إن الحضارة هي نفس بلغت التعبير عن ذاتها بأشكال محسوسة معقولة، لكن هذه الأشكال هي حية متفتحة وولود ويوجد رحمها داخل الكينونة المصعدة للأفراد والجماعات... ليست الحضارة شيئا عظيما فقط، بل إنها بكليتها شيء لا يماثله أي شيء آخر في هذا العالم العضوي، فهي النقطة الواحدة التي يسمو عندها الإنسان، بنفسه فوق قوى الطبيعة ويصبح هو نفسه خالقا<sup>(1)</sup>".

أما مواطنه البرت شفايتزر (1875-1965) يعرفها بقوله: "الحضارة هي التقدم الروحي والمادي للأفراد والجماعات والجماهير على السواء"<sup>(2)</sup> وهو تعريف استلهم من نقده للحضارة الغربية، جراء إفراطها في الجوانب المادية وإغفالها للقيم الروحية، فالحضارة تعد نقلة تقدمية في الفكر والسلوك وأسلوب التعامل مع الناس والأشياء.

هذه عينة من التعاريف التي استوقفنا عند تحديدها لمفهومها- إذ لا يمكن حصرها والتطرق إليها كلها- وهي تعاريف لها صلة وثيقة بدورة الحضارة.

### 3- مفهوم الدورة الحضارية:

نعني بدورة الحضارة تلك الأطوار والمراحل التي تمر بها حضارة أو مجتمع (أمة) أثناء حركته، حيث تبدأ بالنشوء والميلاد، ثم تنتقل إلى الازدهار والنهضة وأخيرا لتعرف التدهور والسقوط، لتعيد كررتها من جديد، وفي مجتمع آخر ليس بالمجتمع الوليد، فالتاريخ الإنساني حلقات متسلسلة تشكل الحضارة إحدى وحداته، فهي في صيرورتها لا تسير في تقدم ورفق مستمرين، بل تجري إلى تأخر وانحطاط، حيث أنها تسلك دورات مستقلة، لكل منها مراحل تقدم ورفق ومراحل تأخر وانحطاط.<sup>(3)</sup> فالحضارة تنتقل من الصيرورة إلى الصير، وتنقل من عصر النمو والحركية والنشاط والفاعلية إلى عصر ومرحلة السكون والجمود، أنها الموت يتبع الحياة<sup>(4)</sup>.

(1) اسوالد اشبنجلر، ت: احد الشيباني تدهور الحضارة الغربية، ج1، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط1، 1964، ص48.

(2) البرت شفايتزر، في فلسفة الحضارة، ت: عبد الرحمان بدوي، دار الأندلس، د م، ط3، 1983، ص34.

(3) قسطنطين زريق، مرجع سابق، ص289.

(4) ازوالد اشبنجلر، ج1، مصدر سابق ص87.

فالحضارة - حسب نظر اشبنجلر- في حركتها تتبع مراحل و أطوار معينة، شبيهة بمراحل الكائن الحي، حيث يصح قائلنا: "فكل شيء منظم، كادراك الولادة والموت والشباب والسن والعمر... إن العصور والمراحل والأوضاع والأشخاص تكرر ذاتها كنماذج حقيقية<sup>(1)</sup>"

إن مسرح التاريخ عند اشبنجلر، يتألف من حضارات عظيمة، تظهر كل واحدة منها من خلال فكرة بدائية في تربة إقليم ما، وتكون تلك التربة بمثابة الأم للحضارة، إذ تبقى مرتبطة بها طوال دورة حياتها، وتمثل تلك القوة روحا تصبغ كل مظاهر الحضارة بطابعها الخاص. فكل حضارة (ثقافة) تحمل إمكانات جديدة خاصة بها، تعبر عن نفسها من خلالها، هذا التعبير الذي ينشأ، ثم ينضج وينحل، ولن يعود أبدا، لذلك لا يوجد فن أو رياضيات واحدة، أو علم واحد - كمظاهر للحضارة- فلكل حضارة فنا، وأدبها، وعلومها الخاصة، وان لكل علم أو فن، حياة محدودة مستقلة بذاتها، مشابهة لحياة النباتات والإزهار، وكما أن أزهار الحقول تنمو دون أن تعي هدفها وغايتها، فالحضارات تنمو دون أن تشعر بفكرتها أو غاياتها<sup>(2)</sup>.

إذا كان من القوانين الأساسية في فهم الأشياء، أنها تفهم بأضدادها، فدورة الحضارة يراد بها تلك الرؤية القائلة أن حركة الحضارة في تكونها ونموها ليست حركة صاعدة، تزدهر بالتراكم والانتقال دوما من قديم الى جديد، بل أن المسار الذي تتخذه كل حضارة دائري، وان الحركة نكوصية تراجعية\* (Régression).

وهذا يعني أن كل مرحلة تاريخية معينة (حضارة) ليست بالضرورة أكثر تقدما من سابقتها، كما يرى الفيلسوف الفرنسي الوضعي "أوجست كونت" Auguste Comte (1798-1857) في قانون الأحوال الثلاث، إذ التاريخ لا يسير في اتجاه تقدمي، إلا بين طوري النشأة والتطور والازدهار(النضج)، أما ما بين هذا الأخير وطور التدهور، فهناك رجوع الى الوراء، وانحطاط.

إن مسار التاريخ ليس مسارا تقدما للعقل البشري الى ما لانهاية، بل مساره دوري لعدد كبير من الحضارات، والتي يسري عليها ما يسري على الكائنات، حيث تنبت وتنمو ثم تنضج وتموت فتفتن، فالحضارة كالكائن الحي الذي يجتاز مراحل نموه الى أن يصل الى المرحلة التي لم يعد قادرا فيها على العطاء، فلكل حضارة طفولتها وشبابها وشيخوختها، وان شئنا قلنا إنها مثل أدوار السنة، إذ لكل حضارة ربيعها وصيفها، وخريفها وشتاءها.

إن الحضارة هي مرحلة من مراحل التطور والنمو والحيوية، فإذا ما وصل بها الأمر الى هذه المرحلة من صيرورتها فهي النهاية وبداية التدهور، فالحضارة هي القمة والشباب والربيع، ثم المدنية وهي تعني استنزاف الإمكانيات الحضارية كلها حتى لا يبقى منها شيئا، ليلى ذلك الانحطاط الذي يؤذن بأفول الحضارة وتلاشيها نهائيا، ومن هنا جاء حكمه القاسي على الحضارة الغربية، بأنها في طريق الأفول أو الغروب، فهي في منظوره قد قطعت جميع أشواطها ولم يبق لها إلا مرحلة واحدة وهي الانحدار والأفول(الموت)، وهذا هو جوهر كتاب "تدهور الغرب".

ثانيا: خصائص ومحددات الدورة الحضارية عند اشبنجلر:

إن دورة الحضارة عند اشبنجلر تحمل جملة من الخصائص والمحددات نذكر منها:

(1) نفس المصدر، ص 40.

(2) المصدر نفسه، ص 68-69.

\* مصطلح النكوص régression على خلاف مصطلح التقدم progression ويعني في علم النفس التقهقر والارتداد في السلوك الى مرحلة سابقة من مراحل البناء والتكوين النفسي للإنسان، أما النكوص الحضاري فيعني عودة الحضارة أو المجتمع الى الخلف، عوض التحرك نحو الأمام.

## 1- أنها دور بيولوجية:

يرى اشبنجلر أن التاريخ يتكون من كائنات عضوية، هي الحضارات ن ليدحض المزاعم القائلة بوجود حضارة إنسانية واحدة، ليقرر ومن خلال اتفاق المؤرخين، إن الحضارة ككل لها وجود عضوي، فهي تشبه الكائن الحي تام الشبه، فتاريخ الحضارة، كتاريخ الإنسان والحيوان والنبات في زمانه وصورته ومدة حياته، فإذا كان سياق الحياة واحد بين الأفراد التي تدخل تحت نوع واحد، فللحضارات جميعا سياق واحد تسير عليه. يقرر اشبنجلر على انه لا يشك أحدا منا أن شجرة البلوط ، بعد أن بلغت من العمر ألف سنة، فانه لا يمكن أن تبدأ اليوم نفس النمو الذي بدأت به يوم أن كانت نبتة، لا بد للكائن العضوي من حد يقف عنده النمو، وهذا الحد يتوقف على الصورة الباطنية (الذاتية) للنبات أو الحيوان أو التاريخ أو الحضارة، الأمر الذي لا يسمح لنا القول بحضارة إنسانية تستمر في سيرها في خط أفقي ممتد وتاريخ عام<sup>(1)</sup>.

إن جوهر تفسيره للحضارة بيولوجي، كونه شبه الحضارة بالكائن الحي، إذ تشهد أطوارا ومراحل متتابعة، مثلما يشهدها الكائن الحي، حيث تثبت الروح في بيئة مجتمع ما، كما تثبت البذرة في تربة ما، هذه الروح تحمل إمكانات خلاقة تساعدها على صنع الحضارة، وهي إمكانات محصورة في فئة خاصة من الناس، هي فئة النبلاء، وهنا يظهر مدى التقاء اشبنجلر مع فلسفة نيتشه، واغترافه من منابعها، حيث يقول "علمني نيتشه موهبة الاستنطاق"<sup>2</sup>، فمثلما مجد نيتشه في فلسفته النبلاء الارستقراطيين، مجد اشبنجلر في تفسيره للتاريخ والحضارة، وهنا يتضح البعد العرقي في تفسيره، ثم تبدأ هذه القيم في التدهور والسقوط، وبالضبط عند هيمنة قيم الديمقراطية، وهذا ما يتضح أيضا في "فلسفة العدمية" عند نيتشه، والتي لا يقصد بها "اللاوجود" بل يقصد بها قيمة عدم تأخذها الحياة، أي يتم نفي وجودها والحط من قيمتها، كما تعني قيمة عدم تأخذها القيم العليا، إذ يتم إنكارها<sup>(3)</sup>. فالحضارة لها دورتها، مثل الكائن الحي تبدأ من قيم النبلاء لتنتهي عند اجل مسي، لا شيء يحدث مرتين في ذلك، حيث يقول " لكل حضارة إمكاناتها الخاصة للتعبير عن ذاتها، هذا التعبير الذي ينشأ وينضج وينحل ولن يعود أبدا"<sup>(4)</sup>.

## 2- الدورة المقفلة والقطيعة بين الحضارات:

يقف اشبنجلر موقفا متميزا في تفسيره الحضاري، فإذا كان الفلاسفة المثاليين، يؤكدون على وحدة الحضارة والمسار التاريخي، وإذا كان معاصروه يؤكدون على أن الحضارة في تقدم وتطور مستمرين، فإن اشبنجلر ينفي هذين التصورين، ليؤكد أن كل حضارة لها شخصيتها المميزة لها، وفلسفتها الخاصة الى الحياة (weltanschauung). هذا التمييز الذي يجعل التفاهم بين الحضارات أمرا عسيرا، أو أمرا غير ممكن على الإطلاق، لأنه يقرر أن الحضارات دوائر مستقلة عن بعضها البعض، إذ لكل حضارة "فكرتها وعواطفها وانفعالاتها الخاصة، وإرادتها وشعورها وموتها الخاص بها..."<sup>(5)</sup> فقد تستعمل الحضارات نفس المفاهيم والكلمات والنظم، إلا أن معانيها تختلف من حضارة الى حضارة أخرى، فكلمة القانون والديمقراطية والنظام كلمات مشتركة، إلا أن مدلولاتها تختلف من حضارة الى حضارة أخرى، يجب على فيلسوف التاريخ كشف هذا الاختلاف

(1) المصدر نفسه، ج1، ص 69.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص 38.

(3) جيل دلوز، نيتشه والفلسفة، ت، أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ط3، 2001 ص190.

(4) اسوالد اشبنجلر، المصدر نفسه، ص69.

(5) المصدر نفسه ص 68.

انطلاقاً من كشف مدلولاتها، كما يجب عليه كشف العلاقة المورفولوجية (التكوينية) التي تربط ربطاً داخلياً بين المعاني التي تحتويها الألفاظ والمصطلحات، التي تستعمل في كل الفروع الخاصة بهذه الحضارة<sup>(1)</sup>.

قادت هذه المقدمات اشبنجلر إلى الاعتقاد أن لكل حضارة (ثقافة) علومها وفنونها، مثلها في ذلك مثل الكائنات الحية، فلا يوجد فن واحد للتصوير الزيتي أو رياضيات واحدة، بل ذهب إلى أبعد من ذلك إلى كون أن لكل حضارة إنسانية عظمى "لغة سرية لشعورها بالعالم لا يفهمها إلا ذلك الشخص الذي ينتهي إلى تلك الحضارة"<sup>(2)</sup>.

إن اشبنجلر يدافع عن نسبية مطلقة، بتأكيد أنه الحضارات مستقلة تمام الاستقلال عن بعضها، فكل واحدة منها تكون وحدة أو دائرة مستقلة، وليس لها تاريخياً أي تواصل أو تفاهم أو تأثير متبادل، أو ليس بينها وبين غيرها إلا منافذ من نوع خاص لا تسمح بنفوذ شيء، إلا بما يتلاءم مع طبيعتها، لئلا يمتزجها، وتخلقه من جديد وفق طبيعتها، ذلك لأن طبيعة الكائن ليست على شاكلة واحدة، وبذلك فهو يقرر القطيعة بين الحضارات، وهذا في مقابل الطرح القائل بوحدة الحضارة الإنسانية.

### 3- التشكل الحضاري الكاذب:

يقر اشبنجلر بوجود ظاهرة خطيرة في الصلة بين الحضارات، تلك الظاهرة التي يسميها بـ "التشكل الكاذب" وهو استعاره من علم المعادن، فهذا العلم يتحدث عن ظاهرة غريبة، تحدث في تكوين المعادن، وتلك هي أنه يحدث أن توجد بلورات معدن من المعادن في طبقة من الصخور، ثم يحدث لهذا الصخر تشققات يتسرب منها الماء، ليحرف الماء تدريجياً البلورات خارج مراقدها حيث تخلف وراءها تجاويف داخل الصخور، وعندما تحدث انفجارات أو ظواهر بركانية، تتدفق الكتل المنصهرة، وتشق طريقها داخل طبقات الصخر، فتتصلب وتتبلور الكتل المنصهرة بدورها لا بشكلها الطبيعي لبلورتها، بل تظهر في ملء الأشكال الجوفاء في الصخر، التي خلفتها البلورات القديمة بفعل الماء، وهكذا تنشأ أشكال كاذبة ومشوهة يتناقض تركيبها الباطني وشكلها الخارجي، ويبرز نوع معين من الحجارة، وذو شكل غريب عن نوعها، وهذه الظاهرة هي التي يدعوها علماء التعدين بالتشكل الكاذب<sup>(3)</sup>.

طبق اشبنجلر هذه الظاهرة الطبيعية على تكوين الحضارات، محاولاً من خلالها استبعاد أي اتصال وتأثير بين الحضارات، إذ لا يمكن لحضارة ما أن تشكل حضارة أخرى على صفاتها، حيث وجد اشبنجلر أن هناك حالات مشابهة لها تماماً في صلة بعض الحضارات فيما بينها، أو في حالة تكوينها، والتي أطلق عليها مصطلح التشكل الحضاري الكاذب، الذي هو وصف لتلك الحالة التي تضطر فيه حضارات عريقة فقدت قوتها الخضوع والتلاؤم الظاهري مع الحضارة الغالبة ما دامت لا تستطيع أن تنمو معبرة عن طبيعتها الخالصة، ويظن الناظر إلى السطح أن الحضارة المغلوبة على أمرها قد اختفت تماماً، بينما هي في الحقيقة كامنة خلف القشرة الخارجية التي فرضت عليها. فكل ما يتدفق من الروح الفتية لهذه الحضارة قد جرت صياغته في قوالب قديمة وهكذا يتصلب الشعور الفتي داخل إنجازات هرمة، وبدلاً من أن يشب وينتصب مستنداً إلى قوته الإبداعية الخاصة نراه لا يستطيع غير كراهية القوة الجافة كراهية تتزايد لتصبح مروعة فضيعة<sup>(4)</sup>.

(1) حسين مؤنس، مرجع سابق، ص 305.

(2) أسوالد اشبنجلر، نفس المصدر ص 329.

(3) المصدر نفسه، ج 2، ص 269.

(4) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

وفي هذا الحقد وتلك الكراهية يكمن أول شرط من شروط تحرير روحها الذي لا يكتمل ويتحقق خلاصها إلا بالقضاء على مظاهر التشكل الحضاري الكاذب الذي يتجلى في بعض ميادين الحياة الاجتماعية، وهو تشكل لا يشمل بالضرورة كافة مناحي حياة الحضارة، فقد يتحقق في بعض مظاهر وميادين حياتها، كما قد يكون شديدا أحيانا وسطحيا في أحيان أخرى. كما لا يمكن تحديد امتداده الزمني، قد يطول قروناً وقد لا يطول، فهذا رهن بعوامل عديدة منها ما يتعلق بالحضارة موضوع التشكل الكاذب ومنها ما يتعلق بتلك التي فرضت وجوده عليها. وقد طبق اشبنجلر هذه الفكرة أو الظاهرة على نموذجين هما: الحضارة العربية والحضارة الروسية.

#### 4- التعااصر والتناظر بين الحضارات:

اعتمد اشبنجلر بشكل أساسي على طريقة المقارنة بين الحضارات، وهي طريقة استقاها من احد فروع علم الأحياء (biologie)، وهو علم مقارنة الأحياء الذي يختص بمقارنة المخلوقات المتشابهة في مختلف الحيوانات، وهو ما يعرف بالتوافق والتماثل وقد أطلق اشبنجلر عليه في التاريخ اسم التعااصر.

لقد تأثر اشبنجلر بالتمييز الذي وضعه علماء البيولوجيا بين المماثلة التي تعني التعادل أو التساوي الوظيفي، وبين التوافق أو التناظر في الهيئة و التركيب والوظيفة، وهذا يعني أن التوافق اشد وأعمق من التماثل، حيث أن كل جزء من أجزاء جمجمة الإنسان له ما يناظره عند باقي الحيوانات الفقرية، (وإن الزعانف الصدرية للسلمكة وقوائم أجنحة وأيدي المخلوقات الفقرية الأرضية)، هي جميعاً أعضاء متناظرة متوافقة، على الرغم من الاختلاف الذي بينها، كما أن الرئة في الحيوان البري، يناظر كيس الهواء في الحيوان المائي، غير أن تلك الرئة (تماثل) الخيشوم عند الطيور، لأن لهما وظائف متشابهة من حيث الاستعمال<sup>(1)</sup>.

ادخل اشبنجلر هذه الفكرة في المنهج التاريخي وصاغها صياغة دقيقة في الجزء الأول من كتابه "تدهور الحضارة الغربية" حيث يقول: "إن البيولوجيا تستخدم اصطلاح مشاكلة الأعضاء (homology) كي تشير الى تعادل مورفولوجي، وذلك كي تميزه بضده أي اصطلاح المماثلة (analogy) الذي يرتبط بتعادل وظيفي (functional) وهذا التصور الهام قد أدركه غوته، ونحن سنترك لمنهجنا في البحث التاريخي أن يمتصه أيضاً<sup>(2)</sup>"

يتضح من هذا النص كيف استقى اشبنجلر فكرة التناظر (La symétrie) أو التعااصر (modernité) من البيولوجيا، وهذا ما يعمق ويجسد أكثر مدى أثر البعد البيولوجي في تفسيره للحضارة، كما يشير أيضاً الى اثر مرجعيته وخلفيته الفكرية في منهجيته، حيث كان يدرس الطبيعة، من خلال جمع ملاحظات متعددة في وحدة واحدة، تتمثل بماهية الطبيعة العضوية، واقتفاء بنفس الأسلوب الجيتوي-نسبة الى جوته-، حاول اشبنجلر دراسة تاريخ الحضارات ذات الماهية الحيوية، لا الماهية الجامدة، حيث يعبر عن هذا الأمر قائلا: "إن ما دعاه جيته بالطبيعة الحية، هو تماما ما ندعوه هنا بتاريخ العالم"<sup>(3)</sup>. قادت هذه المماثلة الحضارية بـ"اشبنجلر" وبعد إجراء المقارنات بين الحضارات الإنسانية، الى القول بفكرة التعااصر أو المعاصرة، والتي رصد حادثين تاريخيين، لا تعيشان في وقت واحد، إلا أنهما تتناظران وتتطابقان، في كل شيء، وفي هذا الصدد يقول:

(1) نفس المصدر، ج 1، ص 225-226.

(2) نفس المصدر، ج 1، ص 225.

(3) نفس المصدر، ص 1، ج 1، 75.

إنني اعني بكلمة معاصر، واقعيتين، يشغلان، تماما المرشحين النسبيين ذاتهما، وذلك بالنسبة الى كل واقعة وحضارتها وهما يمتلكان اهميتين متساويتين متعادلتين.(1)

اعتمد اشبنجلر على مبدأ المقارنة واغرق في التشبيهات، في فهم وتفسير الحضارة، حيث أن مهمة فلسفة التاريخ، هي فهم البناء المورفولوجي (الشكل الخارجي)، إذ أن كل حضارة توافق في هيئتها وتركيبها مختلف الحضارات الأخرى، إذ تمر بفترات النشوء والازدهار والموت، وتشهد في مرحلة من المراحل ما تشهده حضارة أخرى من خصائص، من ظهور للتدين، الإصلاح الديني، التطهير، العقلانية، سيطرة الآلية والمدنية في مرحلتها الأخيرة.

#### 5- رموز الحضارات وسيميائها:

##### 1-5- رموز الحضارات

لكل حضارة رمزها الأولي الذي تنطلق منه، وهو بمثابة المفتاح الحقيقي لفهم تاريخها، وسائر مظاهرها، من فنون وعلوم وآداب ونظم. فكل ما في العالم الخارجي رمزا لمعنى معين في العالم الحقيقي " كل ما هو موجود يشع بالرمز (2) " كما يرى اشبنجلر إذا للمكان أبعاد ثلاث، الطول والعرض والعمق، فالعمق يمثل البعد الأساسي قياسا للمكان، كونه يمثل انطبعا روحيا، وليس حسيًا، "لأن العمق يرتبط بالتأمل، إما الطول والعرض، فيرتبطان بالحواس (3) " ولما كان الرمز يرتبط بالمكان، فان ذلك الارتباط يجب أن يكون مع العمق، وان الشعور بعمق المكان في تصوره، شعور مشترك بين أبناء الحضارة الواحدة، ورمز المكان يعتمد على الشعور الذي يغزو جميع مظاهر الحضارة من (فن، وعقيدة وأدب وفلسفة...) وان كل الصور الإبداعية تعبر عن لغة الرمز الأولي، لا بطريقة الكلمات، بل بطريقة وجانية، تخاطب الشعور الوجداني، ولا تخاطب العقل أو الفهم (4). كما أن لكل حضارة نظرتها الى العمق، وكل طريقة في النظر الى العمق، يعدها اشبنجلر رمزا خاصا لتلك الحضارة (5). هذا وقد بين اشبنجلر رموز العديد من الحضارات، وجعل لها أسماء وصفات، رمز الحضارة اليونانية (الابولونية) هو الحجم المادي المحسوس، ورمز الحضارة العربية (السحرية أو المجوسية) هو المغارة أو الكهف، ورمز الحضارة الغربية (الفاوستية) هو الفراغ أو اللامحدود.

##### 2-5- سيمياء الحضارات:

كما اعتمد اشبنجلر في دراسة الحضارة وفهمها، منهجا جديدا شبيها بمنهج كوبرنيكوس، في علم الفلك هو المنهج العلاماتي السيميائي\*، فالسيميائية عند اشبنجلر هي دراسة العلامات والإشارات التي تعبر عن روح الحضارة، وهي مرادفة للسمة وللعلامة، وان إدراك هذه السمات، هو الذي عناه اشبنجلر بالسيميائية، حيث نجده يقول " كل ما يحمل علامة الاتجاه والمصير، فإنما تنعت بالسيميائية (6) ". كما يرى اشبنجلر أن طرائق إدراك التاريخ غير طرائق إدراك الطبيعة، وهذا يتوافق

(1) المصدر نفسه، ج1، ص 226.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص 308.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص 314-315.

(4) المصدر نفسه، ج1، ص 324-325.

(5) المصدر نفسه، ج1، ص 325.

\* فالسيميائية التي هي علم من علوم اللغة التي تعنى بدراسة الإشارات، تسمى عند الأوروبيين بالسيميولوجيا، وعند الأمريكيين، بالسيميوطيقا، ويسمها العرب بالسيمياء، هذا العلم كان ولادته مزدوجة على يد السويسري دي سوسير والأمريكي شارلز بيرس (مؤسس الذرائعية، التداولية).

(6) نفس المصدر، ج1، ص 206.

مع تمييزه بين التاريخ والطبيعة، رغم أن هناك من لا يميز فيما بينها، فهناك مورفولوجيا خاصة بالتاريخ هي السيميائية، كما إن هناك مورفولوجيا خاصة للطبيعة هي المنهجية، ويشبه اشبنجلر ظواهر التاريخ الثانوية (ملامحه الخارجية) بظواهر الإنسان الخارجية (سلوكه، خطواته، أسلوبه في النطق والكتابة)، ومعرفة الإنسان تستلزم معرفة كل الظواهر، غير إن السيميائية لا تجعل معرفة الإنسان تقتصر على كل هذه الظواهر فقط، بل تتعداها إلى إدراك الحضارة التي ينتهي إليها الإنسان، "سيماءها، نطقها، أعمالها" وان تلك الظواهر مشابهة لظواهر الفرد الخارجية، فالسيميائية، تدرك الروح التي تقف خلف العلامات والظواهر الثانوية في الحضارة، أي تتخذ من ملامح الحوادث رموزا للروح التي أملت، هذه الروح التي تطبع جميع مظاهرها وجوانبها بطابعها الخاص، كما تطبع روح الإنسان، مظاهره الخارجية بطابعها الخاص<sup>(1)</sup>.

### ثالثا: مسار الحضارة:

يصنف اشبنجلر الشعوب إلى ثلاث أصناف هي: شعوب سابقة للحضارة، وشعوب متحضرة، وشعوب ما بعد الحضارة. يطلق على الشعوب السابقة للحضارة بالشعوب الأولية، وهي شعوب اندفاعية، ليس فيها اتجاه ولا يهيمن عليها مصير، ثم تأتي الشعوب المتحضرة (الأمة) والتي تنشأ عندما تستيقظ فيها روح الحضارة، التي تكشف ذاتها في جميع جوانب الحضارة ومظاهرها، وتتطور حسب صورة الحضارة التي انشأتها، وهي تتميز عن الشعوب السابقة عن الحضارة، كون هذه الأخيرة هي شعوب عديمة الصورة، بينما الشعوب الحضارية تمتاز بأنها على صورة أو ذات صورة<sup>(2)</sup>. أما الشعوب ما بعد الحضارة (المتأخرة) فيطلق عليها شعوب الفلاحين، تتميز بالعقم وعدم الخصوبة، يصفها باللاتاريخية، كونها تفتقر إلى وحدة الشعور بالمصير والتاريخ والوجود<sup>(3)</sup>.

إن اشبنجلر انتقد ظاهرة تصور التاريخ تصورا تطوريا كخط أفقي، كما تصوره أنصار التقدم والذي يمثله على رأسهم كوندورسيه Nicolas de Condorcet (1743-1794) بنديتو كروتشي Benedetto Croce (1866-1952 م) "بل تصور التاريخ انه مسرح يتألف من عدة حضارات عظيمة، وكل حضارة لها دورة حياتها، تبدأ بالميلاد (genèse) والنمو (croissance) ثم تتطور لتبلغ أوج ازدهارها (prosperity) لتشهد الانهيار والتدهور (décadence) والسقوط الحتمي (chute) أو الأفول.

بما أن اشبنجلر اعتمد على التفسير البيولوجي في فهم الحضارة، فهي في تطورها تشبه حياة الكائن الحي تمام الشبه، فهي تمتاز بنفس الصفات التي يحملها هذا الكائن، وبذلك فهي تمر بنفس مراحل حياة الإنسان، حيث نجده يقول: "إن كل حضارة تمر بمراحل العمر ذاتها، التي يمر بها الفرد الإنسان، فلكل حضارة طفولتها وشبابها وكهولتها وشيخوختها"<sup>(4)</sup> كما يعد اصدق تشبيه قدمه أيضا لحياتها بتعاقب فصول السنة، "الربيع، الصيف، الخريف، الشتاء" حيث أن للحضارة أدوارا مثل أدوار السنة، إذ أن لكل لدور من أدوارها الحضارة يقابله عصرا من عصور السنة، فربيع الحضارة يمثل طفولتها، وصيفها يمثل شبابها، وخريفها يمثل كهولتها، أما في الأخير فشتاءها يمثل شيخوختها. وسنتناول مراحل هذه الحضارة باقتضاب وفق العصور.

(1) نفس المصدر، ج 1، ص 207، 208.

(2) عبد الرحمان بدوي، اشبنجلر، الكويت، وكالة المطبوعات، 1982، ص 197.

(3) اسوالد اشبنجلر المصدر نفسه، ج 2، ص 240-241.

(4) نفس المصدر ج 1، ص 218.

## 1- مرحلة ربيع الحضارة (الطفولة):

إن الحضارة تبدأ في اللحظة التي تستيقظ فيها الروح بكل إمكانياتها وتبدأ في النضج والتشكل، ذلك أن الحضارة تظهر للوجود وهي تحمل صورة وجودها، فإذا أرادت أن تحقق صورتها فما عليه إلا أن تنظم ذلك الخليط الموجود على أرض الواقع، " ذلك أن الحضارة روح تكمن فيها القوى الخصبة المتوثبة للتحقق تخرج الى الوجود في بيئة خارجية في حالة فوضى مطلقة فتشيع النظام وتطبع ما حولها بطابعها<sup>(1)</sup>" فالمرحلة الأولى هي طور الفاعلية، إذ الحضارة في بداية حياتها لا تبالي بكل ما هو موجود، بل تحاول أن تثبت كيانها الخاص، عن طريق التحدي الذي تواجهه على أرض الواقع، بفضل الإمكانيات الزاخرة التي تحملها في باطنها في بداية حياتها. هذه الفكرة لها اثر عميق في فلسفة ارنولد توينبي (Toynbee Arnold (1889-1975)، إذ استلهم منها أسس نظريته "التحدي والاستجابة".\*

إن اشبنجلر انطلق من فكرة هيغل القائلة بأن للحضارة روح، إلا انه لم يجعلها روحا واحدة، فهو يقسم التاريخ العالمي الى حضارات ولكل حضارة روحا أصيلة مستقلة بنفسها، تعبر عنها، وهي تختلف عن أرواح الحضارات الأخرى، إذ لكل منها صفة تخصها، فلا توجد حضارة عامة، بل لكل حضارة فلسفتها وتصوراتها.

إن فترة ربيع الحضارة تمثل مرحلة البطولة وما فيها من حياة الأساطير وشعر الملاحم، واتساع الخيال كفترة هوميروس في الحضارة اليونانية وفترة العصور الوسطى في الغرب، وامتلاك ديانة سحرية تعبر عن شعور جديد بالله والخوف من العالم وأساطير الأبطال الأريين في الحضارة الهندية والدين الهيليني بالنسبة للحضارة الكلاسيكية والكاثوليكية الألمانية بالنسبة للحضارة الغربية. فالدين يكتسي بعدا وأهمية كبرى في تفسير الحضارة ويمثل ربيع كل حضارة، "فالتطهير\* تنقصه- في كل الحضارات- تلك الابتسامة التي أضاعت الدين وأثارته في ربيع الحضارة<sup>(2)</sup>" فروح الحضارة في دورها الأول روح دينية، فالإيمان هو الكلمة الكبرى التي ينطق بها الإنسان ضد الجزع الميتافيزيقي الذي يفرضه المصير<sup>(3)</sup>.

كما يرى اشبنجلر أن الحياة السياسية والاقتصادية مبنية على النظام الإقطاعي الزراعي، وهو في نظره نظام ليس حكرا على الغرب وحده، بل يشمل كل حضارة، فالمجتمع مبني على الثنائية الطبقيّة هما: طبقة الملاك الإقطاعيون، وطبقة الفلاحين، الأولى طبقة مستغلة، وتشمل النبلاء وكبار رجال الكنيسة الكهنه. والثانية مستغلة ومحرومة من كل الحقوق، ويكاد أصحابها عديمي القيمة، فتشكيلة نمط علاقات الإنتاج هي التي تجعل المجتمع طبقيا، خاضعا لحكم طبقة نشطة هي النبلاء، ذات طموح ورغبة قوية في السيطرة والتوسع على حساب الغير. وبذلك يجسد دور الارستقراطية في صنع الحضارة، حيث يقول " لقد أمسى قدر الحضارة رهين قبضة النبالة"<sup>(4)</sup>.

(1) أحمد محمود صبيحي في فلسفة التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، دع، 1994 ص 227.

\* ارنولد توينبي، مؤرخ وفيلسوف بريطاني، يعد أهم مؤرخ بحث في مسألة الحضارات بشكل مفصل وشامل، في موسوعته التاريخية الشهيرة المعنونة "دراسة التاريخ" والتي تتألف من اثنتا عشر مجلدا، انفق في تأليفها واحدا وأربعين عاما، اشتهر بصاحب نظرية التحدي والاستجابة في تفسير الحضارة.

\*التطهير أو البيوريطانية(puritan)مذهب مسيحي بروتستانتني، ظهر في القرنين السادس والسابع عشر، يمثل خليطا من الأفكار الاجتماعية والسياسية واللاهوتية والأخلاقية، تستند تعاليمه الى الإيمان بالكتاب المقدس كمصدر وحيد للعقيدة الدينية، أي دون الأخذ بأقوال القديسين ورجال الكنيسة.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص 242-243.

(3) عبد الرحمان بدوي، مرجع سابق، ص 222.

(4) المصدر نفسه ج2 ص498.

## 2- مرحلة صيف الحضارة (الشباب):

وهي المرحلة التي تعقب الإقطاع، والتي تعد المنعطف الذي تشهده كل حضارة، حيث الانحراف عن الجانب القيمي، نتيجة بداية نفوذ رجال الدين على السلطة، وادعائهم بالوساطة بين الله والإنسان، الأمر الذي يجعل كل حضارة تشهد ظاهرة دينية في سيرورتها الخاصة، هي ظاهرة الإصلاح الديني، ومعناه رجوع الدين الى طهارة فكرته الأولى وصفائها، وليس من الضروري أن تنتهي حركة الإصلاح الديني الى قيام أديان جديدة، حيث يقول: "إن للإصلاح الديني المعنى ذاته في جميع الحضارات، ألا وهو العودة بالدين الى نقاء فكرته الأصلية وصفائها، ولا تخلو أية حضارة من الحضارات من مثل هذه الحركة"<sup>(1)</sup> في هذه المرحلة أيضا "تظهر القيادات الوثابة الطموحة، انه فصل ظهور وازدهار دولة المدنية في الحضارة الابولونية" اليونانية"، انه عصر النهضة وفن مايكل انجيلو الإيطالي وانتصارات غاليليو، وانه عصر أدب شكسبير في الحضارة الفاروسية"<sup>(2)</sup> كما تشهد سياسيا أيضا ظهور المدن والتنظيم السياسي، وهو في الوقت نفسه ثورة ضد الميثولوجيا، ويظهر فيه ذكاء نشط يدفع الدين الى الخلف، ويقدم شكلا علميا من الوعي. هذه المرحلة عموما يصل فيها التطور ذروته، حيث تنضج كل الإبداعات وتكتمل، كما يحدث ذلك تماما في فصل الصيف، حيث تنضج الثمار.

## 3- مرحلة خريف الحضارة (الكهولة):

وهي مرحلة النضج الكامل للينابيع الروحية الثقافية وبداية البوادر الأولى للشيوخوخة والإرهاق فيها الملكيات المركزة وفيها الفلسفة تتحدى الدين، والقيم السائدة باسم التنوير، إنها فترة السفسطائيين وسقراط وأفلاطون وأنها القرن الثامن عشر في أوروبا حيث منتصف الخريف في موسيقى موزار وشعر غوته وفلسفة كانط.

هي مرحلة سيادة العقل، وذكاء المدينة وذروة الإبداعية الصارمة، إنها عصر الانتشار، حيث ظهور مختلف النشاطات العقلية وخاصة الفلسفية منها، كما تعرف هذه المرحلة التدفق الكامل للينابيع الروحية وإرهاصات استنفادها، مما يؤذن بهشاشة وضعف طاقتها، هذا العصر هو عصر المدن، وازدهار التجارة وتوسع الدول، وتحدي الفلسفة للدين، وتمجيد العقل ومنحه السيادة الكاملة، "فالحضارة تتبدل لتصبح عقلانية المدن، هذه العقلانية التي ستسيطر اليوم على الجانب الريفي من البلاد، فالرمزية العظمى تجف وتذوي وصخب من الأشكال فوق الإنسانية تموت وتفنى"<sup>(3)</sup> فالحضارة في هذه المرحلة تستنفذ كل إمكاناتها، فتصبح عاجزة عن الإبداع والابتكار، ليشدها الحنين الى مراحلها الذهبية الأولى، (الربيع والصيف) لشعورها بالفناء، حيث يقول اشبنجلر: "ثم وعقب هذه الحقبة ببعض زمن نرى الحضارة تصل الى الهشاشة وتشم عطر أواخر تشرينها (أكتوبر)<sup>(4)</sup>" وهكذا تدخل الحضارة في طورها الأخير وهو طور الانحلال والذي يتمثل في مرحلة الشتاء.

## 4- مرحلة شتاء الحضارة (الشيوخوخة):

وتمثل آخر مرحلة من مراحل الحضارة، ففي الشتاء تفقد الحضارة روحها المبدعة وتصبح مجرد مدنية، ويتوقع اشبنجلر في ظلها زوال الحضارة، لأنها قد لفظت آخر أنفاسها، وقدمت كل ما لديها من إمكانات، فالمدينة علامة من علامات السقوط

(1) المصدر نفسه، ج2، ص 431.

(2) محسن محمد حسين، طبيعة المعرفة التاريخية وفلسفة التاريخ، مؤسسة موكرياني للدراسات والنشر، العراق، ط1، 2012 ص 103.

(3) اسوالد اشبنجلر، ج1، ص 377.

(4) المصدر نفسه، ج1، ص 219.

والموت، لذا فهي تمثل نهاية لمسار الحضارة إنها المصير المحتوم الذي لا بد لكل حضارة من بلوغه، ولا يمكن للإرادة الإنسانية الوقف أمام تحققها.

إن المدنية هي المرحلة النهائية من عمر الحضارة، إذ تشهد انحلال أخلاق الناس، حيث تسود الروابط المادية النفعية، وتتحجر قلوبهم ويختفي صوت وجدانهم، وذلك لسيطرة الأساليب المادية و التقنية على الحياة الإنسانية، ولا يقيمون وزنا للجوانب الروحية، ولا معيار إلا لمعيار المادة، فإنسان المدنية إنسان نفعي، حيث يقول: "والإنسان في المدنية يضع نصب عينيه إشباع الحس هدفه له، ويقوم كل عمل بمقومات حسية تصب كلها في الجيب والبطن وما يشتق منهما، فإن المدنية عاتلة عن العظمة الحقيقية عقيمة لا مجال فيها للبناء الأصيل"<sup>(1)</sup>

كما تشهد سيطرة الاتجاهات اللادينية، ولا مجال للكشف والإبداع، أي الاتجاه الى الفكر والفن الذي يحقق التقدم والازدهار، بل الاهتمام منصب حول الغزو والفتح والعناية بالشؤون الاقتصادية والمادية، يقول اشبنجلر " لا يسكن المدنية العالمية شعب موحد الأصل نبت في تربة أرضه، بل يقطنها نوع جديد من القبائل الرحالة، حيث تتلاحم جماهيرها المائعة غير المستقرة وتلتئم وهؤلاء السكان الطفيليون معدمو التقاليد، مغرقون في الواقعية لا يدينون، يكونون احتقارا لابن الريف... وهذا ما يشكل خطوة واسعة نحو اللاأساسي أي نحو النهاية"<sup>(2)</sup> كما يرى اشبنجلر أن المدنية تشهد غياب قيم النبلاء – الارستقراطيين- من شجاعة وشهامة وفروسية ووفاء لتحل محلها سيادة القيم المادية والاقتصادية والعلمية، والتي هي علامة من علامات الضعف الحضاري، فإذا ما غاب الارستقراطيون عن الفعل التاريخي، وقف التاريخ عن التطور والحركة، بل يكون في حالة جمود وموت وزوال<sup>(3)</sup>.

إن المشكلة الرئيسية في طور المدنية هي مشكلة أخلاقية، حيث تكون في طور الحضارة أخلاقا نظرية، وفي طور المدنية تتحول الى أخلاق عملية قائمة أساسا على المنفعة والكسب، وإقصاء تام للجوانب الروحية، وهنا يتفق مع ابن خلدون، حينما اعتبر أن الحضارة آخر مراحل المدنية والرفاهية، بل هي بداية الانحدار، فالحضارة عند ابن خلدون هي معاناة انتشار الترف والنعيم ومظاهر البذخ، الذي تسقط في ظله الدولة- كعنصر من عناصر الحضارة- لأن هذا الوضع يؤدي إلى تفكك رابطة العصبية، فيكثر النفاق والشقاق وتسوء الأخلاق.

#### خاتمة :

استطاع اشبنجلر أن يقدم نظرية في تفسير الحضارة، وهي نظرية بيولوجية قائمة على فكرة التعاقب الدوري، حيث أن الحضارة في حياتها تمر بمراحل و أدوار تشبه تمام الشبه المراحل التي يمر بها الكائن الحي في حياته، من الميلاد والنمو والشباب والكهولة ثم الشيخوخة والموت، فهي تنطلق من اللحظة تستيقظ الروح بكل إمكاناتها وتبدأ في النضج والتشكل، ويوم تستنفذ هذه الروح جميع إمكاناتها، فيكون مصيرها الموت والزوال.

كما شبه أيضا مراحل حياتها بتعاقب الفصول الأربعة للسنة، حيث تمثل مرحلتين الربيع والصيف طور الفاعلية والتقدم والنضج، والجوانب الغالبة في الحضارة هي الجوانب الروحي، أما المرحلتين الخريف والشتاء فتمثلان طور الجمود والتدهور، وذلك لما تحمله هاتين المرحلتين من انحراف عن القيم الأخلاقية والإسراف في المظاهر المادية، حيث سيطرة العقل والمادة في

(1) المصدر نفسه، ص ج1، ص16.

(2) نفس المصدر ج1، ص 89.

(3) نفس المصدر، ج2، ص514-515.

هاتين المرحلتين، وبذلك اعتبر اشبنجلر مرحلة المدنية هي المرحلة الأخيرة التي تصل إليها الحضارة، ويكون مصيرها المحتوم هو السقوط والأفول، لذا كان المصير حتمية عند اشبنجلر.

عاش اشبنجلر في بيئة ثقافية متوترة، كانت فيها الثقافة الألمانية تواجه تحديات كثيرة، منها تحدي ازدهار الحضارة الغربية الانجلوسكسونية، وليبراليها الفردية المفرطة، وتحدي التكنولوجيا وآلياتها، لذا فهو يعد مفكرا تشاؤميا، يتطلع الى غروب أصنام هذه الحضارة. فالحضارة الغربية وفق رؤية اشبنجلر حضارة عرجاء، تعيش حالة احتضار، وهذا بعد أن مرت بتقدم علمي وتكنولوجي غير مسبوق، وتغييمها المطلق للدين أو القيم الروحية.

إن طرح اشبنجلر الدوري والتشاؤمي للحضارة، لم يكن نابعا من فراغ، بل حاول أن يجد ما يؤيد طرحه في تاريخ الحضارات القديمة، نظرا لما تحمله من تشابه، إذ الحضارات القديمة مرت بنفس المراحل العمرية البشرية، لتمر الحضارة الغربية بالمراحل ذاتها، لتحل محلها قيام حضارة جديدة. هذا دون أن نغفل تأثيره بالنظريات السابقة في التعاقب الدوري، وخاصة نظرية ابن خلدون حول قيام وسقوط الدول.

ولعل لدراسة تاريخ الحضارات، ومعرفة مسارها، من شأنه أن يمكننا من النهوض بهذا الواقع المأزوم والمهزوم الذي تشهده معظم المجتمعات اليوم، وبالأخص المجتمعات العربية، وذلك بمعرفة دواعي القيام والسقوط، ولذلك يجب علينا العناية بدراسة الدورات الحضارية، وتخصيص مراكز بحث معمقة في هذا المجال، لعلنا نسلك طريق العروج نحو مدارج التقدم، وتفادي الكبوة الحضارية التي شهدتها إنسان ما بعد الموحدين بتعبير مالك بن نبي.

كانت نظرية اشبنجلر في الحضارة مصدر الهام لكثير من الفلاسفة والمؤرخين، كـ "ارنولد تويني" و"البرت شفایترز" و"قسطنطين زريق" و"مالك بن نبي" في الوقت نفسه كانت محل انتقاد واستهجان، كونه أسهب في أساليب التشبيهات والمقارنات أثناء تحديده لخصائصها ومقوماتها، الأمر الذي أبعده عن الحقيقة والعلم، حيث لا يمكن مقارنة ما هو طبيعي بما هو إنساني، إذ لكل مجال محدداته وخصوصياته، هذا من جهة ومن جهة إفراطه في التركيز على القواسم المشتركة بين الحضارات، وإغفاله المطلق للخصوصيات التي تميز كل حضارة عن أخرى.

هذا بالإضافة الى عجزه في التمييز بين الحضارات، حيث يعتقد أن الحضارة الفارسية والبيزنطية والسريانية والعربية هي حضارة واحدة اسمها الحضارة "المجوسية"، التي يعتقد بأنها تشكلت بتشكل الدول الهلنستية في الشرق.

#### قائمة المراجع:

1. اشبنجلر اسوالد، ت: أحمد الشيباني تدهور الحضارة الغربية، ج 1 + ج 2، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط1، 1964.
2. ابن خلدون عبد الرحمان، مقدمة ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الفكر للطباعة والنشر بيروت د ع ، 2007.
3. ابن منظور جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب، دار صادر، بيروت.
4. بريتون رولان ، جغرافيا الحضارات، ت خليل احمد خليل، د د ، بيروت ، د ع ، 1993.
5. بدوي عبد الرحمان، اشبنجلر، الكويت، وكالة المطبوعات، 1982.
6. دولوز جيل، نشأة والفلسفة، ت: أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ط3، 2001.

7. زناني احمد محمد ، علم التاريخ واتجاهات تفسيره اقتراب جديد، مكتبة الانجلو عصرية القاهرة، ط1، 2007 .
8. زريق قسطنطين، في معركة الحضارة، دراسة في ماهية الحضارة وأحوالها، دار الملايين، بيروت، ط1، 1964
9. سامي النشار مصطفى، من التاريخ الى فلسفة التاريخ قراءة في الفكر التاريخي عند اليونان، دار قباء للطباعة والنشر القاهرة دع، دت.
10. شفايتزر البرت، في فلسفة الحضارة، ت: عبد الرحمان بدوي، دار الأندلس، دم ، ط3، 1983.
11. شيكو أمينة، مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وارنولد توينبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دع، 1989.
12. صليبيا جميل، ج1، دار الكتاب اللبناني بيروت، ط1، 1978.
13. عابد الجابري محمد، مسألة الهوية العروبة والإسلام...والغرب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط4، 2012.
14. محمود صبحي احمد، في فلسفة التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، دع، 1994.
15. محمد حسين محسن، طبيعة المعرفة التاريخية وفلسفة التاريخ، موكرياني للدراسات والنشر، العراق، ط1، 2012.
16. مؤنس حسين، الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت 1978
17. Dictionnaire de l'académie française; éditions ebooks; France ; 5edition;1798
18. Dictionnaire Larousse ; G G P Media Gmbh; Allemagne 2011 –



## ما وراء الحجاب: قراءة في تحولات أنماط التحجب بالمغرب

إلياس بوزغاية، مقبل على مناقشة بحث الدكتوراه/جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، المغرب

Beyond the Veil: A Reading in the Changing Patterns of Wearing the Veil in Morocco

Ilyass Bouzghaia, will be defending his Ph.D thesis soon/Sidi Mohammed Ben Abdellah University,

Fes, Morocco

### ملخص :

تعتبر قضية المرأة عموما ومسألة الحجاب خصوصا من ضمن أبرز عناوين جدلية الإسلام والحداثة في الوقت المعاصر. وقد عرفت هذه الجدلية تمظهرات ارتبطت بعوامل سياسية وثقافية وأيديولوجية أثرت في فلسفة وسلوك اللباس لدى المرأة المسلمة. والأكيد أن لباس المرأة، كرمز للهوية المسلمة أو الإسلامية، قد عرف صعودا وأفولا وتطورات في الأشكال والأنواع إلى الحد الذي خلق توترات ومفاوضات قيمية محورها رمزية ودلالة هذا اللباس في سياقات الإسلام والحداثة. وقد تابع الرأي العام المغربي مؤخرا حالات من نزع الحجاب في صفوف من يحسبون على التيار الإسلامي بالمغرب، مما خلق دائرة من الجدل حول مدى مركزية الحجاب لدى الحركات والأحزاب الإسلامية، كما طرح تساؤلات حول الخطاب الإسلامي في علاقته بالتحولات السياسية والقيمية التي يعرفها المجتمع المغربي. هذه التساؤلات وغيرها تحاول هذه المقالة تسليط الضوء عليها من خلال رصد تطور مفهوم الحجاب وأنماط ارتدائه بارتباط مع التأثير الذي تمارسه السياسة والدين والواقع على حياة النساء.

الكلمات المفتاحية: الحجاب، التدين، ما بعد الإسلاموية، أزمة القيم، التوليف والترمييق، إسلام السوق

### Abstract:

The woman's issue in general and the issue of Hijab in specific are among the main debatable issues within the dialectic of Islam and modernity in the contemporary world. This dialectic relation is manifested at many political, cultural, and ideological levels which influence the philosophy and comportment of dressing for the Muslim woman. Obviously, the woman's dress, as an aspect of the Islamic/Muslim identity, has witnessed major changes, evolution, and decline in terms of shapes and patterns to the extent of creating tensions and negotiations around the question its centrality and meanings in the contexts of Islam and modernity. In Morocco, there has been a remarkable wave of taking off the veil among many women associated with Islamic groups and parties. This has triggered a societal debate about the change of Islamic discourses and practices under the pressing requirements of social and political transformations. This question and others will be tackled in this article with the aim of spotting light on the evolution and manifestations of the concept of Hijab as influenced by political, religious, and social factors that impact the Muslim women's lives.

**Keywords:** Hijab, religiosity, Post-Islamism, Crisis of Values, Montage and Bricolage, Islam of the Market

مقدمة:

يعتبر اللباس بصفة عامة واحدا من المكونات المادية للثقافة، ويرتبط شكله وتصميمه وأهدافه بالثقافة السائدة في المجتمع، فهو بذلك يدل على "شفرات للمنظومة الثقافية التي يفرضها المجتمع على أفرادهم"<sup>1</sup>. في هذا السياق، تقول الباحثة المصرية ثريا نصر: "فالمأمل للأزياء التقليدية يستطيع أن يعرف البلد أو المنطقة التي ينتمي إليها كل زي"<sup>2</sup>، من هذا المنطلق يمكن اعتبار الحجاب، كلباس يفرض تغطية الشعر على المرأة، أحد مكونات الثقافة والهوية الإسلامية التي يفترض أن ترمز للعفة والستر. وعلى الرغم من تنوع أشكال ودلالات الحجاب في العالم الإسلامي على المستوى التاريخي والجغرافي والثقافي، فإنه غالبا ما ظل حاملا لتمثيلات هوياتية إسلامية نتيجةً للأسس الدينية التي انبنى عليها، فحتى لو كانت مرتدية الحجاب غير متدينة فإن هذا اللباس يستمر في إعطاء دلالة دينية تفيد بأن المتحجبة واحدة من المسلمين، فهو بذلك رمز من رموز الهوية الإسلامية.

وإذا ما تتبعنا الكتابات التي تناولت موضوع الحجاب سنجدنا كثرة ذات مداخل متعددة. على سبيل المثال يمكننا الإشارة إلى دراسة السيد عفيفي بعنوان "الأبعاد الاجتماعية والثقافية والدينية لعودة ظاهرة الحجاب" سنة 1993، وهي دراسة استطلاعية تهدف إلى معرفة أسباب ودوافع عودة ظاهرة الحجاب وربط ذلك بتأكيد الهوية والشخصية الدينية للمحجبات<sup>3</sup> في نفس السياق، تذهب دراسة الباحثة المصرية ليلي أحمد في كتابها "ثورة هادئة: عودة الحجاب من الشرق الأوسط إلى أمريكا"<sup>4</sup> إلى أن الحجاب كان ولا يزال موضوعا للتحويلات التي عرفتها المنطقة العربية والإسلامية خاصة على المستوى السياسي والثقافي.

على المستوى السوسيولوجي، يمكن الإشارة إلى دراسة الباحث المغربي ادريس بنسعيد بتعاون مع الجمعية المغربية لنساء المغرب وبدعم من صندوق الأمم المتحدة الإنمائي للمرأة سنة 2007 حول "الشباب والحجاب في المغرب"، حيث عمل على كشف التمثيلات المختلفة للحجاب بالنسبة للشباب من الجنسين بين 15 و25 سنة موزعين إلى خمس مجموعات بؤرية روعي فيها التمثيلية المتساوية بين الفتيات اللواتي يرتدين الحجاب ومن لا يرتدينه. وقد وجدت الدراسة أن الحمولة الرمزية للحجاب تتجاوز الزي وطرق ارتدائه إلى توجيه رسالة من المحجبة إلى متلقيين مختلفين قد يكونون أفرادا أو جماعات أو ثقافة أخرى، كما خلصت الدراسة إلى وجود ثلاث عوامل مسببة لانتشار الحجاب خاصة في الوسط الجامعي وهي العامل الاقتصادي والعامل الديني والعامل العائلي. ورغم أن هذه الخلاصات تبدو موجّهة بحكم الجهات المشرفة عليها، إلا أنها تظل مقاربة معتبرة للموضوع بحكم اعتمادها على الاستطلاع الميداني. دراسة أخرى أجراها عدد من الباحثين بعنوان "الدين والملبس وجسم الإنسان" اتجهت إلى البحث في العلاقة بين اللباس والدين والفرد والمجتمع، توصلت إلى أن الجماعات الدينية تستخدم الشفرات الملبسية كرموز للتدين وكأسلوب من أساليب الضبط الاجتماعي.<sup>5</sup>

من خلال هذه الكتابات يمكن للباحث أن يستنتج وجود علاقة تفاعل مستمر بين الحجاب كرمز ديني والمحيط السياسي والاجتماعي الذي يتم ارتداؤه فيه، وهو ما يُنتج أنماطا ومعاني مختلفة تتشكل من خلال التطور التاريخي والتداخل الثقافي بين مكونات المجتمع. وعليه، فإنه من المشروع التساؤل عن ماهية الدلالة التي يحملها الحجاب في الوقت المعاصر

<sup>1</sup> كفاية سليمان، مبراهان فرج، فلسفة الأزياء من منظور النقد الفني، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2009، ص 244

<sup>2</sup> ثريا نصر، تاريخ أزياء الشعوب، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 2007، ص 13

<sup>3</sup> السيد عبد الفتاح عفيفي، الأبعاد الاجتماعية والثقافية والدينية لعودة ظاهرة الحجاب، في كتاب دراسة المشكلات الاجتماعية، إشراف محمد الجوهري، دار المعرفة الجامعة، الإسكندرية، 1993

<sup>4</sup> Leila Ahmed: A Quiet Revolution: The Veil's Resurgence, from the Middle East to America, Yale University Press, 2012

<sup>5</sup> كفاية سليمان، مبراهان فرج، فلسفة الأزياء من منظور النقد الفني، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2009

بالنسبة للشباب المغربي؟ وكيف يمكن فهم السلوك والشفرات الملبسية للمرأة المسلمة في عصر "الحدائث" والعولمة؟ وهل ظاهرة التحجب نتيجة حتمية للاقتناع الديني بهذا اللباس أم أنه مسابرة للعصر واستجابة لمستجدات فردية وجماعية؟ من أجل الإجابة عن هذه الأسئلة نقترح استدعاء بعض المفاهيم السوسولوجية لفهم واقع التحولات السياسية والقيمية عموماً وتحولات أنماط ارتداء الحجاب خصوصاً. هذه المفاهيم هي: "ما بعد الإسلامية"، "أزمة القيم" "التوليف والترميح"، "إسلام السوق" كما سيتم الإشارة إليهما في معرض تحليل التحولات السياسية والاجتماعية التي تؤثر على أنماط التحجب في المغرب.

### التحولات السياسية

مثلت فترة الخمسينات بداية موضة خلع الحجاب وذلك ارتباطاً بالإحتكاك المباشر بالمستعمر ومقولاته "الحضارية" التي ترى أن الحجاب رمز للتخلف واضطهاد للمرأة، مما دفع ببعض النساء والمفكرين والسياسيين لتبني مفاهيم "الحدائث" وتحرير المرأة. ثم فترة الستينات والسبعينات وما عرفته من مظاهر الصحوة الإسلامية، خاصة بعد الانتصار الذي أحرزه العرب على إسرائيل سنة 1973 ونجاح الثورة الإسلامية الإيرانية وتعاضل دور الإخوان المسلمين بمصر. كل هذا أدى إلى ظهور بوادر حركات إسلامية متشبثة بتطبيق تعاليم الشريعة مما شكل موجة مجتمعية مدعومة بالتيار السلفي الوهابي لدى الشباب للتعبير عن عدم تبعيتهم لأنماط الحياة الغربية، وكذلك للتعبير عن التعاطف أو الانتماء إلى التيار الإسلامي الثوري والمحافظ. ويمكن للمتتبع ملاحظة استمرار هذا التوجه في المغرب إلى حدود نهاية التسعينات وبداية القرن 21، حيث انتشرت الإذاعات والقنوات التلفزية المشرقية ومعها التيار السلفي (حسين يعقوب، محمد حسان...) وتيار الدعاة الجدد (عمرو خالد، مصطفى حسني...) وهو ما زكى موجة العودة إلى التدين خاصة لدى النساء والشباب. كما عرفت هذه الفترة ازدياد شعبية التيارات الإسلامية وبروز وجوه نسائية إسلامية متحجبة ومشاركة في العمليات الانتخابية وكذلك في الشأن العام.

لكن إلى وقت غير بعيد، أصبح بالإمكان ملاحظة تحولات في سلوك وأنماط ارتداء الحجاب سواء في صفوف التيارات الإسلامية أو في صفوف العامة، حيث أنه رغم تسجيل دراسة "الإسلام اليومي"<sup>1</sup> سنة 2007 أن وتيرة التدين لدى الشباب في تصاعد وإدراج الحجاب من بين مؤشرات التدين باعتبار أن أكثر من 64 في المائة يرتدون الحجاب لأسباب دينية وأن 17 في المائة لأسباب غير دينية من ضمنها الحياء والاحترام، إلا أنه بالمقابلة يمكن ملاحظة أن التدين لم يعد مختزلاً في اللباس كما كان في السابق حيث ظهر الحجاب التركي والأندونيسي والإيراني وأنواع أخرى من الحجاب تسمح بظهور العنق أو جزء من الشعر وتسمح بلبس الجيتر ووضع المكياج على الوجه مما دفع بعض المعلقين بتشبيهه ب"أقرأ" من الأعلى و"روتانا" من الأسفل، في إشارة للتناقض مع مقاصد اللباس الإسلامي.

هذه المظاهر من التنوع في أشكال وأنماط التحجب أصبحت شائعة في صفوف كثير من المحسوبات على التيار الإسلامي في السنوات الأخيرة، ليس هذا فقط، بل وحالات خلع الحجاب كلية. وقد يتم تفسير ذلك بأنه تعبير عن التحرر الكلي أو الجزئي من قبضة التنظيم والتدين الجمعي وتنميط صورة المنتميين إليه، كما أنه من المثير تسجيل التقبل والترحيب أحياناً الذي تحظى به هذه الحالات كونه يرمز إلى أن الشخص أصبح واضحاً مع نفسه ومحيطه وأن له كامل الحرية في فعل ما يريد، أولاً بحجة أن الحجاب ليس من فرائض الإسلام، وثانياً بحجة أن ما هو سياسي ليس ما هو شخصي.

<sup>1</sup> Hassan, Rachik [et al.] (2007). L'islam au quotidien: Enquête sur les valeurs et les pratiques religieuses au Maroc. Casablanca: Editions Prologues.

وبهذا نستخلص وجود تغيير في الخطاب والممارسة لدى كثير من الإسلاميين سواء كان ذلك نابعا من قناعات ومراجعات حقيقية، أو استجابة لتطورات الواقع السياسي الذي حملهم إلى السلطة وما يستدعيه ذلك من اقتراب أو تماهي مع خطاب حقوق الإنسان والحريات الفردية. هذا ما دفع بعض الباحثين مثل عالم الاجتماع الإيراني آصف بيات إلى صك مفهوم تيار "ما بعد الإسلاموية"، وهو يحيل على تحولات الإسلاموية، أو التيار الإسلامي الثوري المحافظ، إلى أفكار ومواقف أكثر انفتاحا ومرونة اعتمادا على مقولات الإصلاح والتجديد في الدين خاصة بعد خفوت الصراع الإيديولوجي الحاضن لثنائية الإسلامي/العلماني.<sup>1</sup>

واستشهادا على ذلك، فقد صرح رئيس الحكومة المغربي السابق، بنكيران، في تعقيب له على صور البرلمان أمانة ماء العينين التي ظهرت في صور مسربة وهي بدون حجاب في باريس، بأن الحزب في "تطور"، مشيرا إلى أنهم في وقت سابق كانوا يستقطبون المحجبات فقط ولا يسلمون على الجنس الآخر من المحارم، لكن الآن أصبحوا يبحثون عن غير المحجبات لتمثيلهم في الحزب وأصبح بإمكانهم تقدير وتنسيب المسائل حسب أهميتها. كما اعتبر أن نزع البرلمان لِحجابها لا يصطدم مع المرجعية الإسلامية وهو مسألة شخصية بين الإنسان وربه.<sup>2</sup>

وبذلك أصبح بالإمكان القول أن الإسلام الذي كان يعتبر في وقت سابق عدوا حضاريا للثقافة الغربية حسب نظرية فوكوياما، أصبح اليوم قادرا على التعايش مع مستجدات العصر، كما أن الحجاب الذي كان يعتبر في وقت سابق لباسا يحيل على الهوية الإسلامية ورمزا للعفة والستر أصبح مسألة شخصية خاضعة لتعدد القراءات السيميائية سواء للمحتجبة نفسها أو للمجتمع المحيط بها، في تعايش يرفض معه ذلك الثوب أن يحمل معنى واحدا وبذلك يسقط في قبضة "الحدائثة السائلة" بمفهوم زيغوموند بومان.<sup>3</sup>

### التحولات الاجتماعية

بالموازاة مع التحولات السياسية، عرفت المجتمعات العربية والإسلامية تحولات عميقة ومتسارعة على مستوى القيم الموجهة لمعتقدات وسلوكات أفرادها، وقد مست هذه التحولات اختيارات وتوجهات اللباس لدى المرأة المسلمة. وإن كان من تفسير لذلك فإن مفهوم "أزمة القيم" قد يكون الأكثر تعبيرا عن واقع التشرذم والحيرة والتأرجح بين المرجعيات في عصر "الحدائثة" والعولمة، وهو ما يؤثر بالضرورة على أنماط التحجب. فرغم تسجيل العديد من التقارير العالمية أن الدين عنصر مهم في توجيه القيم والسلوكات الاجتماعية للشباب العربي<sup>4</sup> فإنها بالتوازي تشير إلى بعض مظاهر التوتر بين المرجعية الدينية وقيم الحدائثة وتحديات الواقع المعيش. فمثلا، سجل تقرير مركز بيو حول الأديان والحيات العامة "PEW" أن معظم المستجوبين من النساء والرجال في العالم الإسلامي أقرروا بأن الحجاب فرض على المرأة المسلمة، لكن في الوقت نفسه صرحوا بأن المرأة لها الحق في اتخاذ هذا القرار من عدمه<sup>5</sup> وهو ما نجده منعكسا في شكل سجلات وجدل مجتمعي حول مدى أهمية الحجاب في المنظومة الإسلامية ومدى انعكاس ذلك على أرض الواقع.

<sup>1</sup> Asef Bayat, "Post-Islamism at Large" In Post-Islamism: The Changing Faces of Political Islam. (New York, Oxford University Press. 2013

<sup>2</sup> انظر الرابط: <http://www.alyaoum24.com/1197550.html>

<sup>3</sup> زيغومونت باومان. الحدائثة السائلة. ترجمة حجاج أبو جبر وتقديم هبة رؤوف عزت. الشبكة العربية للأبحاث والنشر. بيروت. 2016

<sup>4</sup> انظر على سبيل المثال لتقرير المسح العالمي للقيم (موجة 2010 – 2014) ولتقرير مركز كالوب حول المرأة في العالم الإسلامي 2006

<sup>5</sup> Pew Forum on Religion and Public Life. "The World's Muslims: Religion, Politics and Society". (2013). Available at <http://www.pewforum.org/files/2013/04/worlds-muslims-religion-politics-society-full-report.pdf>. Accessed on 01 April 2019

وإذا كان عدم ارتداء الحجاب قرارا لا يعني موقفا معاديا للإسلام بالضرورة، فإن القدرة على اختيار نمط التحجب المناسب لكل فرد يعكس تحولا في الصورة النمطية عن المرأة المسلمة/الإسلامية، حيث لم يعد الانتماء الديني أو التنظيمي معبرا عنه باللباس كما كان في السابق. كما أن تعدد أشكال وأنواع الحجاب يعكس أيضا رغبة في الدمج بين الارتباط الديني الحامل لقيم الستر والعفة والحشمة من جهة، والارتباط بروح العصر الحاملة لقيم الموضة والمظهر والجمال من جهة أخرى، وهو ما يعطي خليطا هجينًا غالبا ما يجسد صعوبة في خلق الانسجام بين المرجعيتين، ويحيل مجددا إلى الارتباك والفوضى في القيم التي أصبحت تتميز بالسيولة والتعدد والتداخل. فحرية اللباس والقدرة على اختيار الشكل والنوع المناسب لكل شخص توصل رسالة مفادها عدم الإذعان كلية للإسلام كنمط شمولي في اللباس "الشرعي"، ولا للحدثة كفكر يدعو للعقلانية والانفصال عن كل ما هو غيبي.

وهذا الصدد، يمكن استحضار دراسة الأستاذ ادريس بنسعيد سنة 2007 بعنوان "الشباب والحجاب في المغرب"<sup>1</sup> التي خلصت إلى أن الحجاب هو في الحقيقة حجابات كما أن الحدثة حداثات، سواء من الناحية الشكلية كما أشرنا إلى ذلك سابقا أو من الناحية الرمزية، حيث تتعدد تبريرات ارتداء هذا اللباس كما أشار إلى ذلك العديد من الشباب المستجوبين حيث صرحوا أنهم لا يرون فيه رمزا دينيا أو انتماء إيديولوجيا بالضرورة، بل لباسا يخضع كغيره للكثير من إكراهات الموضة والواقع خاصة في ظل الجهل بالمقتضيات الشرعية ومقاصد ارتداء الحجاب. وفي هذا الإطار، سجلت دراسة "الإسلام اليومي" أن معظم المستجوبات كشفن عن ضعف في معرفة النصوص المؤطرة للباس "الإسلامي" وشروطه، وهو ما يعتبر مؤشرا على تراجع المعرفة الدينية بخصوص الحجاب وبالتالي التأثير بموجة العولمة وما تحمله من مظاهر الغزو الثقافي والاستهلاكي الغربي، وبذلك يمكن القول أن الحجاب، إلى حد كبير، قد تم إفراغه من حملته الدينية والأخلاقية وأصبح لباسا يتم ارتداؤه لأسباب وغايات متعددة ومركبة.

تجدر الإشارة هنا إلى البعد الاقتصادي والاستهلاكي لأنماط التحجب حيث أن المسلمين المتدينين لم يسلموا من موجة القيم الاستهلاكية، لكن هذه المرة بنكهة دينية، كما يشير إلى ذلك الباحث السويسري باتريك هاييني في كتابه "إسلام السوق" وفيه يذكر أنه "لا يجب أن ننشد الفضائل المطلقة من منطلقات دينية، ولكن عبر بيعها من خلال فاعليتها الاجتماعية"<sup>2</sup> وهذا الصدد، يشرح كيف تم استخدام فكرة الاستثمار في كل ما هو ديني وتغليفه في قالب تسليعي وتسويقي بحيث يصبح بإمكان المتدين أن يجد منتوجه "الإسلامي" في تلائم مع قناعاته الدينية مثل المشروبات الحلال واللحوم الحلال والمكياج الحلال والأبنك الإسلامية والأغنية الإسلامية وحتى لباس البحر الإسلامي،

وهذا الشكل سيتأتى للمرأة المسلمة أن تلتزم بتعاليم الدين عبر لبس الحجاب وتواكب العصر أيضا عبر جعله متماشيا مع الموضة والظهور بشكل أنيق، رغم أن درجة الأناقة والجمال قد تصل أحيانا إلى لفت الانتباه وإثارة الفتنة وهو ما يعتبر مرفوضا في الإسلام ومقصدا أساسيا من مقاصد ارتداء الحجاب. وعموما، تستهدف عملية تسليع القيم الإسلامية الجمع بين المدنس الاجتماعي (التبرج، الربا...) مع المقدس الديني تحت يافطة "الإسلامي الحلال"، في محاولة لإشباع النزعة الاستهلاكية للمسلمين من جهة والإحساس بالحدثة بدون تناقض مع الدين من جهة أخرى، أو هكذا يتم الاعتقاد.

هذه الطريقة أصبح بالإمكان تلمس مظاهر التداخل بين الدين والحدثة والواقع في مسألة الحجاب، وهو ما يدل على وجود أزمة في الفكر وفهم للدين تمتد لتصبح أزمة في القيم. وعلى سبيل التعميم، فإن المجتمع المغربي يعيش حالة من

<sup>1</sup> ادريس بنسعيد. الشباب والحجاب في المغرب: دراسة سوسيولوجية. الجمعية الديمقراطية لنساء المغرب. 2007.

<sup>2</sup> Patrick Haenni. L'Islam de marché. Seuil/République des idées, Paris. 2005

التصادم والتفاوض والتعايش بين قيم العصر والحداثة وبين قيم الماضي والتقليد بشكل تظهر معه العديد من الظواهر التي لم يألفها الجيل الماضي، وهو ما يمكن ملاحظته في التداخل والتضارب بين القيم والمرجعيات بشكل يفترق إلى الوحدة والانسجام. وبهذا الصدد، يسجل العديد من الباحثين والسوسيولوجيين أن محاولات التوليف والترمييق (Montage et Bricolage)<sup>1</sup> التي يقوم بها العديد من الشباب والفتيات في المجتمع بين مبادئ الإسلام كمعايير فضلى ومثالية وبين متطلبات العصر كحاجيات تستدعي سلوكيات ومواقف مغايرة، تخلق نوعاً من التوتر والحيرة واللامبالاة في صفوف الشباب تعبر بشكل كبير عن وجود توجه عام نحو الانتقاء والاختيار من سوق القيم والمرجعيات ما يلائم الحاجات والمستجدات.

خاتمة

على سبيل الختم، يمكن القول أن مسألة الحجاب، سواء في الخطاب الإسلامي المعاصر أو في التوجهات القيمية المجتمعية، أصبح يميل أكثر فأكثر إلى الانفلات من قبضة التنميط والأدلجة في اتجاه مزيد من التنوع والتعويض. وقد عبر عن ذلك تيار "الما بعد إسلاموية" من خلال إبداء استعداد أكبر للتفاوض مع متطلبات العصر، وكذلك مفهوم "التوليف والترمييق" الذي أصبح يتيح للشباب إمكانية الانتقال بحرية عبر المرجعيات والقيم بما يخدم المصالح والمستجدات، وهو ما خلق "أزمة هوية وقيم" تتجسد في صعوبة تحقيق انسجام بين المحدث والمقدس كما حاول مفهوم "إسلام السوق" الجمع بينهما في قالب تجاري تسليعي.

#### قائمة المراجع:

1. ادريس بنسعيد. الشباب والحجاب في المغرب: دراسة سوسيولوجية. الجمعية الديمقراطية لنساء المغرب. 2007.
2. انظر الرابط: <http://www.alyaoum24.com/1197550.html>
3. انظر على سبيل المثال لتقرير المسح العالمي للقيم (موجة 2010 – 2014) ولتقرير مركز كالوب حول المرأة في العالم الإسلامي 2006.
4. ثريا نصر، تاريخ أزياء الشعوب، عالم الكتب، القاهرة، ط 2، 2007.
5. زيجمونت باومان. الحداثة السائلة. ترجمة حجاج أبو جبر وتقديم هبة رؤوف عزت. الشبكة العربية للأبحاث والنشر. بيروت. 2016.
6. السيد عبد الفتاح عفيفي، الأبعاد الاجتماعية والثقافية والدينية لعودة ظاهرة الحجاب، في كتاب دراسة المشكلات الاجتماعية، إشراف محمد الجوهري، دار المعرفة الجامعة، الإسكندرية، 1993.
7. عبد الرحيم العطري. "احتمالات التحول القيمي: صيغ التفاوض والترمييق (البريكولاج)". مداخلة تم إلقاؤها في الندوة التي نظمتها مؤسسة مؤمنون بلا حدود تحت عنوان "التحولات القيمية بالمغرب" بتاريخ 20 دجنبر 2014 بقاعة صالون جدل الثقافي بحي أكدال مدينة الرباط - المغرب.
8. كفاية سليمان، مبراهان فرج، فلسفة الأزياء من منظور النقد الفني، عالم الكتب، القاهرة، ط 1، 2009.

<sup>1</sup> عبد الرحيم العطري. "احتمالات التحول القيمي: صيغ التفاوض والترمييق (البريكولاج)". مداخلة تم إلقاؤها في الندوة التي نظمتها مؤسسة مؤمنون بلا حدود تحت عنوان "التحولات القيمية بالمغرب" بتاريخ 20 دجنبر 2014 بقاعة صالون جدل الثقافي بحي أكدال مدينة الرباط - المغرب

9. Asef Bayat, "Post-Islamism at Large" In Post-Islamism: The Changing Faces of Political Islam. (New York, Oxford University Press. 2013
  10. Hassan, Rachik [et al.] (2007). L'islam au quotidien: Enquête sur les valeurs et les pratiques religieuses au Maroc. Casablanca: Editions Prologues.
  11. *Leila Ahmed: A Quiet Revolution: The Veil's Resurgence, from the Middle East to America*, Yale University Press, 2012
  12. *Patrick Haenni. L'Islam de marché. Seuil/République des idées*, Paris. 2005
  13. Pew Forum on Religion and Public Life. "The World's Muslims: Religion, Politics and Society". (2013). Available at <http://www.pewforum.org/files/2013/04/worlds-muslims-religion-politics-society-full-report.pdf>. Accessed on 01 April 2019
-



## معيقات النشر العلمي في الوطن العربي

د. بلال عبد المالك • الطالبة أبرادشة/مريم جامعة محمد لمين دباغين ، سطيف 2، الجزائر

Obstacles to Scientific Publishing in the Arab World

ملخص :

يعاني الوطن العربي من صعوبات ومشاكل جمة منها ما ورثها عن الاستعمار والانتداب الغربي، ومنها راجع إلى طريقة تسيير هذه الأوطان في ظل أنظمة معظمها ديكتاتورية لا تهتم بشؤون أوطانها بل بشؤون حكمها واستمراره. وهذه الصعوبات والعراقيل لا يخلو أي مجال منها سواء في الجانب الاقتصادي والتربوي والاجتماعي والثقافي والبحث العلمي، ويعتبر النشر العلمي جزء مهم من هذا الأخير له مشاكله وعراقيله منها ما هو مرتبط بسياسة البلد (تسييسه) حيث يتم نشر ما يروق ويخدم النظام السياسي، ومنها ما هو مرتبط بمسئولي هذه المؤسسة العلمية المتشبعين بثقافة معينة فهم يعيقون أي نشر لا يتوافق مع أيديولوجياتهم، بالإضافة إلى استعمال المحاباة والقرباة في النشر، وضعف التمويل والأدوات والمقروئية، وكذا هجرة العقول والأدمغة العربية إلى أنحاء العالم... الخ، من كل هذا سنطرح التساؤل الآتي: ما هي العراقيل والصعوبات التي تقف في وجه النشر العلمي في الوطن العربي؟

سأحاول الإجابة على هذا السؤال وبعض جزئياته من خلال المداخلة النهائية

الكلمات المفتاحية: العراقيل، الصعوبات، النشر العلمي، .

### Abstract

The Arab world suffer of the difficulties and many problems including inherited from the colonial and western impression and including due to how the to run these countries under dictatorial regimes, the latter don't car about there homelands rather there governance and continuity, and this difficulties is not without any areas whether economic and social and educational and cultural and scientific research aspects. The scientific publishing is an important part, of the latter which has its problems obstacles including what is the related to the policy of the country where the propagation what pleases serves the political system and what is related to the officers of this scientific institution because they block any publication that does not conform to their ideologies in addition to using kinship and favoritism in the publishing, and poor funding and tools and reading, as well as the migration of minds brains to the world ... etc of all this we will ask the following questions.

What is the difficulties and obstacles that stand in the face of scientific publishing in the Arab world?

I will try to answer this question and some of its part through a final intervention.

**key words:** Scientific Publishing, Difficulties, Obstacles

## مقدمة :

إن تقدم الشعوب والأمم ليس بالشعارات والبهتافات أو التغني بماضي مجيد والبكاء على الأطلال، وإنما بالإرادة والرغبة سواء كانت سياسية أو شعبية، ضف لها مقوم فعال ألا وهو العلم، فأول آية نزلت على محمد صلى الله عليه وسلم "اقرأ" فبالعلم تهض الأمم وتتطور وتزدهر في كل مجالات الحياة اليومية، وهاهي اليابان وألمانيا وسنغافورة اليوم استطاعت بموارد ضئيلة إلا أنها أصبحت رائدة باعتمادها على البحث العلمي وتكوين المورد البشري، فاستثمرت فيه واليوم تجني ما قامت به، خلافا لبلداننا العربية خيرات عظيمة قوة بشرية شبابية قوة نفطية وغازية أراضى على امتداد البصر في حدود 14 مليون كلم<sup>2</sup> إلا أنها تعاني الويلات، تخلف اقتصادي تكنولوجي زراعي ضعف في البني التحتية أمية كبيرة أنظمة سياسية في معظمها ديكتاتورية لا رغب لهم في تطور بلدانهم وإنما همهم البقاء في السلطة. حيث تعمل هذه الأنظمة على تعطيل الأبحاث وتوجيهها لخدمتها وليس لخدمة أوطانها.

ويعد البحث العلمي أهم ركائز التطور والتقدم مما جعل الدول الراغبة في التطور من تخصيص ميزانية ضخمة للبحث ( الولايات المتحدة اليابان دول الاتحاد الأوروبي دول شرق آسيا أو ما يعرف بالنمور الآسيوية، وأكثرهم نفقة على البحث العلمي " الصهاينة" ، حيث ما تنفقه هذه الأخيرة يفوق ما تنفقه الدول العربية مجتمعة ، ولذلك فهي في تطور نحو الأمام والدول العربية في تطور نحو الخلف.

ومن المؤشرات على التقدم والتطور النشر العلمي (الكتب، الرسائل العلمية، الدوريات العلمية المتخصصة، تقارير المتابعة، بحوث أخرى، كتب التراث، الوثائق الجارية للجامعات...)، الذي يعد مرآة عاكسة للبلد حيث تنشر الدول المتقدمة ملايين النسخ من الكتب سنويا وأكثر من مثيلاتها الكثرونية وبلغت نسبة المقروئية عدد لا بأس به ، إلا أن العالم العربي عكس ذلك سواء في النشر العلمي أو المقروئية أو جودة التعليم، حتى وإن كان النشر العلمي موجودا في العالم العربي فإنه يعاني ولا يضيء في مجموعها دولة واحدة ، كما أن عدد الكفاءات من بين مليون نسمة يتعدى أصابع اليد إلا أن ذلك يفوق المئات في الدول المتطورة، وإذا تكلمنا عن الابتكارات والإبداعات فحدث ولا حرج داخل حدود هذه الأمة، فالنشر العلمي مؤثر قوى على مدى قوة البلد علميا ولذا فهو يعاني من مشاكل أنظمة سياسية لا ترغب في التطور وتشجع على الفشل ، وتراقب وتسيطر على كل كبيرة وصغيرة ولا تقبل المنشورات التي لا تخدم اتجاهاتها وبيدولوجيتها، هذا من جهة ومن جهة أخرى مشكلة في الباحث نفسه حيث تجده متشبع بأفكار يسارية أو ماركسية أو انجلوسكسونية أو فرنكوفونية ولا يخرج عن هذا الإطار لذا بحثه لا يتصف بالموضوعية ، كما أن هناك من وضعه الفكري لم يتجدد ومازال حبيس أفكار بالية أكل عليها الدهر وشرب، وتجده يدافع عنها بشراسة وكأنها وحي يوحى مثل الدار ونية دحضت في الغرب إلا أن في العالم العربي مازال جزء من الباحثين يؤمنون بها إيمانا مطلقا، وغياب التمويل والتحفيز والتشجيع ، وضعف المستوى التكويني والتعليمي، والفقر التكنولوجي واللغوي الذي يعاني منه جزء من الباحثين في الوطن العربي، وهجرة العلماء والأدمغة ، هذه العوامل سيتم الإحاطة بها ومعالجتها من خلال ذكر المعوقات والصعوبات والعراقيل التي تواجه النشر العلمي في الوطن العربي وتتمثل فيما يلي:

## 1-صعوبات علمية :

هناك عدة صعوبات علمية يعاني منها البحث والنشر العلمي في عالمنا العربي ومنها:

- عدم توافر معايير ثابتة ومعترف بها لكتابة البحوث العلمية: إذ لم يتم الاتفاق في البلدان العربية لحد الآن على أنماط الاستشهاد المرجعي، وكيفية اقتباس المعلومات وطرق توثيقها.<sup>(1)</sup>
- غياب المعايير الواضحة التي تحدد أصول وقواعد التأليف والتحكيم والنشر، وعدم وجود سياسة إستراتيجية واضحة للبحث العلمي.<sup>(2)</sup>
- عدم التزام الباحث بقواعد النشر التي تنصّ عليها هيئة التحرير في المجلة المختارة، ولا بالأسلوب العلمي المميز لغرض إعجاب لجنة التحكيم مما يترتب عنه نتائج بالية غير مجدية لا تساهم في تطوير البحث وإشاعة نوره والاستفادة منه من قبل الآخرين.
- الأمية التكنولوجية: حيث يعاني بعض الباحثين العرب مسألة لأمية التكنولوجية، وعدم قدرتهم على استخدام الحاسوب والإنترنت بفعالية، وذلك لعدم امتلاك بعضهم للمهارات اللازمة في هذا المجال، لذلك يعتمد هؤلاء على زملاء لهم للقيام باسترجاع المعلومات المطلوبة أو على أمناء المكتبات.
- مقاومة التغيير: إذ يزال بعض الباحثين العرب يفضلون الطرق التقليدية في البحث عن المعلومات المطلوبة، مبررين ذلك بعد حاجتهم إلى المصادر الإلكترونية لتوافر هذه المعلومات في المصادر المطبوعة، مما يحرمهم من معلومات حديثة مهمة في المجال.
- ضعف معرفة الباحثين بقواعد البيانات المتاحة: يحتاج الباحثون في الوقت الحاضر إلى قواعد بيانات أساسية وحديثة تمكنهم من متابعة ما يستجد من معلومات ومعارف متخصصة، وجدير بالذكر أن هناك آلاف من قواعد البيانات في العالم والدول العربية، إلا أن غالبية الباحثين العرب لا يعرفون عن هذه القواعد، ولا بطرق اختيارها، أو باستراتيجيات البحث فيها، أو بمحتوياتها، مما يجعل مسألة إنجاز بحوثهم بالمستوى المطلوب أمر مشكوك فيه.<sup>(3)</sup>
- ضعف قاعدة المعلومات في المراكز والمختبرات والمؤسسات الإنتاجية لبعض الدول.
- صعوبات لغوية: إن كثيراً مما ينشر في الوقت الحاضر في الحقول الموضوعية المتخصصة، وبخاصة العلمية منها هو باللغة الإنجليزية وبلغات أجنبية أخرى، لذا تقتصر الفائدة منها على الباحثين العرب الذين يتقنون هذه اللغات، مما ينعكس سلباً على هؤلاء الذين لا يتقنون سوى اللغة العربية في إنجاز بحوثهم واكتمال معلوماتها.<sup>(4)</sup>
- عدم معرفة أهمية المراكز البحثية في بعض الدول العربية .

## 2-المعوقات العملية :

- ضعف التمويل و الإنفاق على البحث العلمي، فمن الحقائق المؤلمة جداً أن ما ينفق على البحث العلمي في العالم العربي إنفاق ضعيف جداً، ولا يمكن مقارنته بما تنفقه الدول الكبرى وغياب التشجيع والمنافسة في أعمال بحثية من شأنها كسر الجمود الذي يعاني منه العالم العربي نتيجة غياب أفق منير ومرئي يجسد طموحات هذه المجتمعات في الرقي والتطور الحضاري، لأن

1 - عمر أحمد همشري، مشكلات النشر العلمي في الوطن العربي ومعوقاته (الواقع والطموح)، ورقة مقدمة لصالح المؤتمر السعودي الدولي الثاني للنشر العملي المنعقد يومي 11-13 أكتوبر 2015، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية، ص 3-4.

2- ورقة مقدمة لصالح المؤتمر السعودي الدولي الثاني للنشر العملي المنعقد يومي 11-13 أكتوبر 2015، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية، ص 5.

3 - رضا سعيد مقبل: النشر الجامعي في العصر الرقمي، مجلة البحوث كلية الآداب، الصادرة عن جامعة المنوفية، مجلد 85، أبريل 2011/1/4، ص 22-23.

4- عمر أحمد همشري، المرجع السابق، ص 4.

هذا الناشر والباحث الأكاديمي في العالم العربي ضحية منظومة متكاملة سياسية اقتصادية ثقافية واجتماعية حال دون بلوغ نضجه الفكري والإبداعي ما وصل إليه أقرانه في الغرب.

حيث أن بلدان العالم العربي تنفق على البحث العلمي مجتمعة ما ينفقه (الصهاينة) ، مما يترتب عليه عزل علمي وفقير بحثي وإنتاج عقيم يؤثر على التنمية المحلية في هذه الأوطان ، وخير دليل على ذلك عند مقارنة وبراءة الاختراع في الدول الغربية في العام ومثيلاتها في الدول العربية نجد الفرق الشاسع ، كما أن الصادرات والواردات تثبت وتدلل على ما نقول.

حيث شهدت السنوات الخمس الماضية اتجاهاً متقارباً: انفصال في البحث والتطوير من قبل القطاع العام في العديد من البلدان ذات الدخل المرتفع مثل استراليا، وكندا، والولايات المتحدة، وغيرها) والاستثمار المتزايد في مجال البحث والتطوير من جانب البلدان ذات الأقل دخلاً. ففي أفريقيا، على سبيل المثال، نجد أن إثيوبيا لجأت إلى بعضاً من أسرع معدلات النمو في القارة لرفع إجمالي الإنفاق على البحث والتطوير لديها من 0.24 % عام 2009 إلى 0.61 % عام 2013 وذلك من إجمالي الناتج القومي.<sup>(1)</sup>

ورفعت ملاوي هي الأخرى معدلاتها إلى 1.06 % ، كما رفعتها أوغندا من (0.33% عام) 2008 إلى (0.48 % عام). 2010 فهناك إدراك متنامي داخل أفريقيا وخارجها بأن تطوير بنية تحتية حديثة (مستشفيات، وطرق، وسكك حديدية، وغيرها) وتحقيق تنوع اقتصادي والنهوض بالصناعة يستلزم استثماراً أضخم في مجال العلوم والتكنولوجيا والابتكار، بما في ذلك تكوين كتلة حرجة من العمالة الماهرة<sup>(2)</sup>.

وحسب جدول اليونسكو فإن الدول العربية مجتمعة تنفق على البحث العلمي ما مقداره 0.11 % وهذا خلال سنة 2013.<sup>(3)</sup> بينما أصبحت القيادة الصينية غير راضية عن العائد من استثماراتها الواسعة في البحث والتطوير. إلا أنها في الوقت ذاته أثرت تخصيص من 4-6 % فقط من الإنفاق في مجال البحوث للبحوث الأساسية على مدى العقد الماضي. وفي الهند تستغل الجامعات 4% فقط من إجمالي الإنفاق على البحث والتطوير. أما الاتحاد الأوروبي فكان له حسابات مغايرة، فرغم أزمة الديون المتكررة حافظت المفوضية الأوروبية على تعهداتها تجاه البحوث الأساسية. إذ تم منح المجلس الأوروبي للبحوث (تم إنشائه في عام) 2007 ، وهو أول هيئة خاصة بدول أوروبا لتمويل البحوث التي تتم داخل حدودها في مجال العلوم الأساسية، مبلغ وقدره 13.1 مليار يورو للفترة من عام 2014 وحتى 2020 ، وهو ما يعادل 17 % من إجمالي الميزانية المخصصة لأفاق عام 2020 ورفعت جمهورية كوريا من تعهداتها تجاه البحوث الأساسية من 13 % إلى 18 % من إجمالي إنفاقها المحلي على البحث والتطوير ما بين عام 2001 وعام 2011 ، واتبعت ماليزيا نفس المسار) من 11 % عام 2006 إلى 17 % في عام 2011 ، أي أن هاتين الدولتين قد خصصتا حصة مماثلة لتلك التي خصصتها الولايات المتحدة الأمريكية 16.5 % في عام 2012. وتستثمر الحكومة في كوريا في مجال البحوث الأساسية بكثافة.<sup>(4)</sup>

أما بخصوص عدد الباحثين بالآلاف فالدول العربية مجتمعة يبلغ عدد الباحثين فيها 149.5 ، في المقابل ألمانيا لوحدها يبلغ عدد الباحثين 360.3 و اليابان 660.5 والولايات المتحدة الأمريكية 1265.1 والصين 1484.0 وجمهورية كوريا 321.8 ، وهكذا تشكل الدول الخمس الكبرى نسبة تبلغ 72 % من إجمالي عدد الباحثين على مستوى العالم، وذلك رغم وجود تعديل في

<sup>1</sup> - تقرير اليونسكو للعلوم حتى 2030 ، 2015 منشورات اليونسكو، الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة، ص 08،

<http://en.unesco.org/open-access/terms-use-ccbysa-ar>

<sup>2</sup> - المرجع نفسه ، ص 08.

<sup>3</sup> - المرجع نفسه ، ص 10.

<sup>4</sup> - المرجع نفسه ، ص 14.

حصصها. وتجدر الإشارة هنا إلى أن البلدان ذات الدخل المرتفع قد تركت بعض المساحة لصالح البلدان ذات الدخل الأعلى من المتوسط، ومنها الصين: والتي تشير الأرقام إلى أنه برغم أنها استأثرت بنسبة % 22.5 من الباحثين عام 2007، فقد كانت النسبة لديها % 28 في عام 2013.<sup>(1)</sup>

وإنّ (إسرائيل) تحتل المرتبة الأولى في علوم الكمبيوتر، والمرتبة الثالثة في الكيمياء..وتحتلّ (إسرائيل). أيضاً. المركز الثالث في العالم في صناعة التكنولوجيا المتقدمة، والمركز الخامس عشر بين الدول الأولى في العالم المنتجة للأبحاث والاختراعات. أمّا بالنسبة إلى عدد سكانها قياساً إلى مساحتها فهي الأولى في العالم على صعيد إنتاج البحوث العلمية. حيث أن الإنفاق على البحث العلمي في (إسرائيل) (ماعداء العسكري) حوالي 9.8 مليارات شيكل، أي ما يوازي % 2.6 من حجم إجمالي الناتج القومي في عام 1999. أما في عام 2004 فقد وصلت نسبة الإنفاق على البحث العلمي في إسرائيل إلى % 4.7 من ناتجها القومي الإجمالي.<sup>(2)</sup>

وقد تصدرت الدول الاسكندنافية قائمة الدول الأوروبية الداعمة للبحث والابتكارات، وذلك بالنسبة إلى نواتجها القومية، فجاءت على هذا النحو: فنلندا، الدانمرك، سنغافورة، جمهورية كوريا، لكسمبورغ، النرويج، السويد، اليابان، كندا، البرتغال والنمسا، وهذا خلال عامي 2010، 2011.<sup>(3)</sup>

وتشير التقارير الصادرة عن منظمة اليونسكو للعلوم والثقافة في العام 2008 م، إلى أن الدول العربية تنفق 14.7 دولار على الفرد في مجال البحث العلمي، بينما تنفق الولايات المتحدة 1205.9 دولار لكل مواطن، والدول الأوروبية حوالي 531 دولار. ويؤكد التقرير الصادر عن منظمة اليونسكو في العام 2010 م أن مستوى الإنفاق على البحث العلمي في العالم العربي ضعيف للغاية حتى في دولة كبرى مثل مصر؛ إذ لا يتجاوز ما ينفق فيها على البحث العلمي % 0.23 من الموازنة العامة. كما بلغ الإنفاق على البحث العلمي في الأردن % 0.34، وفي المغرب % 0.64 وفي سوريا % 0.12 ولبنان % 0.3 وتونس % 1.02 والسعودية 0.05 %، والإمارات % 0.6، والكويت % 0.09، من إجمالي الناتج القومي.<sup>(4)</sup>

وتختلف الأقطار العربية فيما بينها من حيث حجم الإنفاق على البحث العلمي. والملاحظ أنّ نسبة الإنفاق على البحث العلمي بالنسبة إلى الناتج المحلي الإجمالي لم تتعد 0.5% في الأقطار العربية كافة لعام 1992 وهي نسبة ضئيلة عند مقارنتها بمثيلاتها في السويد وفرنسا حيث بلغت 2.9 %، و 2.7 % على التوالي.<sup>(5)</sup> ففي عام 1999 كانت نسبة الإنفاق على البحث العلمي في مصر 0.4 %، وفي الأردن 0.33 %، وفي المغرب 0.2 %، وفي كل من سوريا ولبنان وتونس والسعودية 0.1 % من إجمالي الناتج القومي؛ وتؤكد ذلك إحصائيات اليونسكو لعام 1999. أما إحصائيات سنة 2004 لنفس المنظمة العالمية.. فتقول إن الدول العربية مجتمعة خصصت للبحث العلمي ما يعادل 1.7 مليار دولار فقط، أي ما نسبته 0.3 % من الناتج القومي الإجمالي.

1- المرجع نفسه، ص 16.

2- عبد الحسن الحسيني: الأبحاث في القطاعات المدنية (الإسرائيلية) والعربية في صحيفة النهار، (23/09/199)، ص 12.

3- تقرير اليونسكو حتى 2030، المرجع السابق، ص 15.

4- أنطوان زحان، التحدي والاستجابة، مساهمة العلوم والتقانة العربية في تحديث الوطن العربي، "المستقبل العربي"، السنة الثالثة عشرة، العدد 146، أبريل 1991، ص 4-17.

5- حسن حمدان الحكيم: الواقع التعليمي والثقافي في الوطن العربي، صحيفة الاتحاد، تاريخ النشر 2001/12/15، .

http://www.alzatari.org/motamarat/2.htm تاريخ السحب 2018/12/07

- أما فيما يخص المنشورات العلمية بين عامي (2008-2014) حسب اليونسكو فإن الحصيلة العالمية للمنشورات بلغت في الدول العربية كافة 2.4 % تقابلها الولايات المتحدة الأمريكية ب 25.3 % وألمانيا 7.2 % والمملكة المتحدة ب 6.9 %، اليابان 5.8 % جمهورية كوريا 4.0 %<sup>(1)</sup>

- هجرة الأدمغة من البلدان العالم العربي وهذا ما أطلق عليها العلماء (نزيف المخ البشري)، مما أدى إلى ضعف التحصيل العلمي حيث أن ثمرة العقول غائب مما كرس الرداءة في كل الأعمال وهذا ما أدى بالنشر العلمي إلى الحضيض ومعظم المؤسسات التي تعاني نفس المشكل. (بأن 35 % من مجموع الإطارات العربية المتخصصة تعيش في الولايات المتحدة الأمريكية، كندا، فرنسا، إنجلترا، أستراليا وألمانيا، كما أن نسبة زيادة الهجرة السنوية لأمريكا والغرب إنطلاقاً من الدول العربية تتراوح ما بين 10%-15%. وحسب دراسة أن السنوات الخمسين الماضية هاجر من الوطن العربي ما بين 25-50 % من حجم الكفاءات العربية<sup>(2)</sup>، حتى تلك البلدان التي تعاني من هجرة العقول تجتذب الآن الباحثين. فعلى سبيل المثال خسر السودان ما يتعدى 3000 من صغار الباحثين وكبار العلماء في الهجرة ما بين عامي 2002 و 2014، وفقاً لما ذكره المركز القومي للبحوث. حيث انسحب الباحثون إلى البلدان المجاورة مثل اريتريا وأثيوبيا حيث قدمت لهم دخولاً أعلى قد تتعدى ضعف الذي تقدمه الجامعات بالسودان لأعضاء هيئة التدريس<sup>(3)</sup>.

فبمجرد ظهور أي عقلية نابغة في كافة المجالات العلمية والأدبية والطبية تتخطفه الدول الأوروبية وأمريكا<sup>(4)</sup>. حيث توجد منافسة شرسة بين الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية لجذب الكفاءات العربية، حيث أصدرت الولايات المتحدة الأمريكية البطاقة الخضراء موجهة للكفاءات الموجودة في كل أنحاء العالم، تلتها أوروبا بإصدار البطاقة الزرقاء مما شجع الكفاءات من مختلف دول العالم وخاصة العربية إلى الهجرة الغير متوقفة وغير متوقعة إلى هذه الأمم مما شكل شح في الموارد البشرية نظراً لغياب إستراتيجية واضحة معالة المعالم في هذه البلدان مما أفقر البحث العلمي والتنمية والنشر العلمي إلى أقصى الحدود.

### 3- معوقات سياسية وتنظيمية :

- تعاني معظم الجامعات العربية من البيروقراطية والمشكلات الإدارية والتنظيمية فضلاً عن وجود فجوة بينها وبين مشاركتها في المجتمع لعدم وجود جهاز يمكنه نشر البحوث الجامعية والتعريف بها في المجتمع لتحقيق أقصى استفادة منها .  
- لا يلقى النشر اهتماماً من القيادات العليا في الجامعات مما يضطر صناعة النشر العلمي في العديد من الجامعات إلى التراجع.  
- وجود بعض الممارسات السياسية التي تؤثر على المؤسسات الأكاديمية والنشر الجامعي، منها تدخل السلطة في الأمور الأكاديمية مما يتناقض مع الحرية الأكاديمية وإمكانية التعبير عن الاختلاف حتى مع ممثلي السلطة السياسية؛ فنجد تهميشاً للكوادرات البحثية التي لا تتفق وسياسية السلطة، ونشر أبحاث غير صالحة للنشر بدافع المحسوبيات، فضلاً عن ضعف المخصصات المالية للبحث العلمي - وخاصة في العالم العربي - مما يؤثر سلباً على أنشطة البحث العلمي المختلفة وتطويرها،

1 - تقرير اليونسكو حتى 2030، المرجع السابق، ص 20.

2 - أكرم الياس: هجرة العقول العربية للغرب، دار الجيل للطباعة، بيروت، 1998، ص 25.

3 - تقرير اليونسكو حتى 2030، المرجع السابق، ص 18.

4 - رايح بودبابة: العلوم الإنسانية والاجتماعية والبحث العلمي، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 07، نوفمبر إصدارات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، 2006، ص 24.

وكذلك على مؤسسات البحث العلمي.<sup>(1)</sup> والواقع يؤكد أن نشاط دور النشر الجامعية يصبطدم بمعوقات إدارية تحد من قدرتها على المنافسة<sup>(2)</sup>.

عدم وجود استراتيجيات أو سياسات لمعظم الدول العربية في مجال البحث العلمي .

- غياب الإرادة عند صانعي القرار في معظم الدول العربية على الرقي بالبحث العلمي وجعله آخر اهتماماتهم إما لتوجيه من يوالهم ويحققون مصالحهم ، أو خوفا من المثقفين الذين سيكونون علقه في رقابهم بمراقبتهم وانتقاداتهم وفضحهم ، فهذه الطريقة يتمكنون من توجيه المثقف نحو طلب الشغل واللهث وراء المناصب ونسيانه الدور الذي يجب أن يقوم به. فإذا صنعت جيلا ضعيف المستوى التعليمي وهزيل في وضعه الاقتصادي يمكنك أن تستعبده وتستعمره.

- الرقابة على الإنتاج الفكري : يلاحظ على قوانين المطبوعات في بعض الدول ، أنها تفرض قيودا على التداول والنشر لا تتناسب مع العصر الذي نعيشه الآن في ظل العولمة وتكنولوجيا الإعلام والاتصال وانتشار الفضائيات.<sup>(3)</sup>

- تسييس الجامعات والمراكز البحثية تبعا لايدولوجية الطبقة الحاكمة وبالتالي تسخير هذه البحوث في ذكر الانجازات الهلامية أو البحث في توجهات النظام القائم حيث غياب الحرية لأسباب سياسية ثقافية واجتماعية والابتعاد عن الموضوعية في الطرح لأن الموضوعية قد لا تخدم الحاكم خاصة في المواضيع الحساسة فيسعى الباحث إلى تقزيم عمله وتزوير نتائجه لتروق للنظام حتى يجد ضالته ، حيث أن المجلات العلمية لا تنشر ولا تقبل حتى تحكيم الموضوعات النقدية البناءة التي تخدم البلد والتي لا تخدم النظام حيث تعمل المجلة على عدم النشر الخوف من إغلاقها أو عرقلتها أو تشويه سمعتها .

- البرامج والمناهج في العالم العربي تعتمد على التلقين للطلاب وهذا ما أدى إلى قتل الإبداع والتفكير الناقد والنافع في العالم العربي ، مما أدى بالباحث إلى إنجاز أبحاثه التي تعتبر تحصيل حاصل لضرورة ملحة كالحصول على منصب مالي لتحسين المستوى المعيشي والاجتماعي أو الترقية في العمل .

- أزمة الجامعات العربية بين الضغوط الخارجية للسير ببرامج ومناهج تنافي القيم والمعايير الاجتماعية للبلدان العالم العربي وتقزم الفرد العربي معرفيا ومنهجيا ، بالإضافة إلى الفساد الداخلي سواء كان مالي حيث يتم صرف المال المخصص للجامعات والبحث العلمي في التظاهرات العلمية الصورية التي لا تجدي نفعا ، أو حفلات غنائية هابطة لا ناقة للباحث والناشر العلمي فيها ولا جمل. أو فساد أخلاقي علمي كالسرقة العلمية والفكرية التي نشأ عليها الباحث وترعرع فيها وبالتالي لا يستطيع مقاومة هذا التغيير.

- عدم نشر المجلات العلمية لأبحاث مفيدة حيث يزيد الإقبال عليها من قبل الطلبة والأساتذة والباحثين ، وقد تكون لها مصداقية عظيمة على المستوى المحلي والإقليمي والعالمي مما يؤهلها لأن تكون ساطعة ذات أهمية ووزن علمي كبير يستفيد منها الكل وخاصة صانعي القرار ، إلا أن هذا الأخير يستشير ويشترى الدراسات الجاهزة من المؤسسات والمراكز البحثية العالمية بأموال طائلة ليس للتنمية ولكن لإيجاد حل لمعضلة وقع فيها كالفساد والمحسوبية وغياب التنمية وظهور معارضة قوية

<sup>1</sup>- رضا سعيد مقبل : النشر الجامعي في العصر الرقمي ، مجلة البحوث كلية الآداب ، الصادرة عن جامعة المنوفية ، مجلد 85 ، أبريل 2011/1/4 ، ص 28.

<sup>2</sup>- إبراهيم عيسى: آثار التخلف في البحث العلمي ، دار الكتاب الحديث ، القاهرة ، 2009 ، ص 10.

<sup>3</sup>- رضا سعيد مقبل : المرجع السابق ، ص 22-23.

تستهدف حكمه هنا يلجأ لهذه المراكز الغربية لتعطيه حلا لهذه الأزمة حتى يستطيع التحكم أكثر والبقاء لأطول فترة ممكنة في الحكم.

-نقص التسويق للمجلات سواء داخلية أو خارجية واكتفاءها بالإصدارات القروية الضيقة أو المناطقية .

- تقوقع النشر العلمي العربي في نطاق محدود والعجز عن الانتشار الواسع ، فمن النادر أن يترجم بحث عربي إلى اللغات الأخرى، وعدم الاهتمام بالإعلان والدعاية عن إصدارات النشر الجامعي ، فضلا عن عدم وجود شبكة توزيع لتصريف إصدارات دور النشر الجامعية ، وقد أدت كل هذه السلبيات التي لحقت بالنشر العلمي داخل الجامعات في الوطن العربي إلى عزوف الأساتذة عن النشر في مطابع الجامعة والبحث عن منافذ للنشر خارج الجامعات ، فضلا عن وجود نظرة من الاحترام والإجلال التي ينظر من خلالها الباحثون والأكاديميون العرب إلى المطبوعات الأجنبية. ليس لدينا سياسة استراتيجية واضحة للبحث العلمي.<sup>(1)</sup>

#### 4 - معوقات إيديولوجية و اقتصادية ثقافية .

- أوضاع الباحثين في العالم العربي ( المزرية) لا تمكنه من التفرغ لبحث علمي دقيق ومعتمد يستطيع من خلاله الإدلاء بدلوه في مسار التطور العلمي بأفكار جديدة وأطروحات قد تفوق أو تضاهي الأطروحات لأمثاله في الدول المتطورة وحتى ابتكار وإبداع في مجال تخصصه بشيء جديد. حيث تجد الباحث في العالم العربي يعاني من أزمة السكن والأجر الزهيد لذا هذه العوامل تسبب في ركوده العلمي وبالتالي على انتاجاته الفكرية. حيث أضحى الأستاذ مثقل بتكاليف الحياة ، وبجدول التدرّس مما يجعله مدرسا وليس باحثا وهذا ما يضعف بدوره من قيمة البحوث ونوعيتها وجديتها وأصالتها.

- غياب ثقافة المؤسسات الخاصة التي تعني بالبحث عن التراث أو التطوير العلمي والأكاديمي مما يجعل هذا العمل رهين حكومات معظمها ديكتاتورية قاتلة للبحث والابتكار والتقدم جاعلة البحث العلمي يخدم مصالحها غير عابئة بالعلم ( خوفها من المثقفين والعلماء) ناشرة للجهل الممنهج بغية التصرف في هذه الشعوب خدمة لمصالح غربية ضامنة لهذه الأنظمة .

- ومنها ما هو مرتبط بمسئولي هذه المؤسسة نظرا لتشبعهم بثقافة معينة فهم يعيقون أي نشر لا يتوافق مع إيديولوجياتهم ، حيث يوجد في العالم العربي من ينتهي للماركسية الشيوعية، ومنهم الفركوفوني ، واليساري والأنجلو سكسوني وبالتالي فكل منهم يرفض قبول المقالات التي لا تروق له لأنها معاكسة لفكره ونهجه، ومنهم متصلب لعرقه ولونه ويرى أن يجب قمع الآخرين إن كانت له الفرصة حتى يلغى لهم دورهم او يتمتع بكون عرقه هو الذي ينشر وينتج في غياب الآخرين.

-استعمال المحاباة والقرباية في الأمور العلمية وهذه الظاهرة شائعة في الوطن العربي ( مملكات علمية أو وراثية) فلا يهمهم العمل الجيد ولكن ترسيخ القبيلة أو العشيرة في البحث والنشر العلمي يلهمهم بالنجاح، بالإضافة إلى النشر بالمحسوبية كون الأفراد الناشرين لهم سلطة في البلد سواء كانت سياسية أو مالية أو عسكرية حيث أن بعض المجلات تتكرر فيها نفس الأسماء بمواضيع باهتة غير مجدية ، مما جعل هذه المجلات تراوح مكانها.

التعامل مع الإنتاج العلمي بالولاء والمحسوبية وغياب الموضوعية في قراءة و نشر المقالات العلمية التي تناسب البحث العلمي الجيد مما ، حيث تأخذ سمعة سيئة وتوصم هذه المجلة بأنها سيئة وتبقى بها هذه الصفة لا صفة بها حتى وإن أرادوا تحسينها.

<sup>1-</sup> منى فاروق علي، أشرف البلقيني: تقرير حول النشر في العالم العربي لعام 2011، اتحاد الناشرين العرب، مصر، الإصدار الأول، 2013، ص 75.

-الاعتماد على العلاقات الشخصية والجهود الفردية في نشر البحث العلمي: يتسابق الناشرين خاصة منهم العرب للوصول لمختلف الهيئات العربية الحكومية منها والخاصة، بغرض توزيع منشوراتهم البحثية، من خلال العلاقات الشخصية، وعلى الرغم أن هذه الطريقة تعود بمكاسب كبيرة على الناشرين، إلا أنها لا تحقق مبدأ تكافؤ الفرص بينهم، فسوف يتمخض عن هذه الطريقة خسارة بعض الناشرين الذي لم يتمكنوا من الوصول على هذه الأماكن<sup>(1)</sup>.

- التبعية الفكرية المقيتة للغرب حال دون بناء منظومة فكرية علمية خاصة بنا وانجاز أعمال تضاهي مثيلاتها في الغرب، لأن التبعية كرسست الجمود والخمول والتباهي والانهار بالآخر، مما جعل المؤسسات العلمية والنشرية في الحضيض بعدم قدرة الإنسان (المفكر العربي) على التعبير عن خصوصياته الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، لأنه رهين المنتوجات الغربية بكل أصنافها حال دون استقلاليتها في التفكير وبعدها في الإنتاج.

-ضعف ثقافة احترام وتقدير أخلاقيات البحث العلمي وظهور الغش والتزوير في الأبحاث مما قلل من مكانة المجلات العلمية في الوطن العربي وأظهرها بمظهر العاجز عن مسايرة التطور العلمي، حيث أن معظم الكتابات تكون ساذجة بسيطة وتبتعد عن الجدية في البحث العلمي.

-غياب التشجيع بين الباحثين لعمل عمل جدي وجيد بروح التعامل وامتزاج الأفكار وتلاحقها لإخراج بحث أكثر قوة ومتانة يكون حلا لمعضلة أو مشكلة اجتماعية او اقتصادية أو سياسية يعاني منها المجتمع، ففي هذه الحالة ينظر إليها نظرة احتقارية تقزيمية من قبل أهلها قبل القراء والغربيين.

- اجترار الأفكار من الدراسات الغربية وترجمتها والاستناد إليها في معالجة المواضيع وإن كانت القيم والثقافة مختلفتين، فهنا العجز الفكري عن طرح الجديد الموائم للمجتمع المحلي يفقدها المصادقية.

- الاستهانة والاستحقار بكل ما هو إنتاج عربي وان كان ممتازا ومميزا واعتبار الدراسات الغربية مهما كانت وضعية هي الأفضل، مما شكل حاجزا وتثبيطا نفسيا لكل ما هو إنتاج محلي انعكس على أهل الأفكار من طرحها وتشجيعها بين الناس.

- غياب مؤسسات إعلامية تنشر وتشهر الانتاجات المحلية العربية وترويجها للعالم بغية الاستفادة منها وكذا تمكين الباحث من إبراز شخصيته وذاته من بين الانتاجات الفكرية العالمية. والاكتماء بتخصيص حصص للرقص والغناء والمسلسلات والأفلام الهابطة التي لا معني لها، بل اعتبار السفاهة والتافه يعبر عن خصوصية وثقافة مجتمعاتنا لأننا لازلنا بعيدين عن العالم المتطور.

- شيوع فكرة الانهزامية بين الباحثين في الوطن العربي بأنهم لا يستطيعون الوصول على ما وصلت عليه الدول المتطورة فهذا الفارق الزمني الكبير يصبح الباحث رهين قوت يومه.

<sup>1</sup> - رؤوف عبد الحفيظ هلال: تسويق الكتاب العربي، دراسة للواقع واستشراف المستقبل، ورقة مقدمة لصالح المؤتمر العربي الأول الموسوم بمستقبل صناعة الكتاب العربي في القاهرة، المنعقد يومي 8-12 مايو 2005، ص 97.

### قائمة المراجع:

- 1- عمر أحمد همشري، مشكلات النشر العلمي في الوطن العربي ومعوقاته (الواقع والطموح)، ورقة مقدمة لصالح المؤتمر السعودي الدولي الثاني للنشر العملي المنعقد يومي 11-13 أكتوبر 2015، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية.
- 2- ورقة مقدمة لصالح المؤتمر السعودي الدولي الثاني للنشر العملي المنعقد يومي 11-13 أكتوبر 2015، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية.
- 3- رضا سعيد مقبل: النشر الجامعي في العصر الرقمي، مجلة البحوث كلية الآداب، الصادرة عن جامعة المنوفية، مجلد 85، أبريل 2011/4/1.
- 4- تقرير اليونسكو للعلوم حتى 2030، 2015 منشورات اليونسكو، الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة، <http://en.unesco.org/open-access/terms-use-ccbysa-ar>
- 5- عبد الحسن الحسيني: الأبحاث في القطاعات المدنيّة (الإسرائيلية) والعربية في صحيفة النهار، (199/09/23).
- 6- أنطوان زحلان، التحدي والاستجابة، مساهمة العلوم والتقانة العربية في تحديث الوطن العربي، "المستقبل العربي"، السنة الثالثة عشرة، العدد 146، أبريل 1991.
- 7- حسن حمدان الحكيم: الواقع التعليمي والثقافي في الوطن العربي، صحيفة الاتحاد، تاريخ النشر 2001/12/15، <http://www.alzatari.org/motamarat/2.htm> تاريخ السحب 2018/12/07.
- 8- أكرم الياس: هجرة العقول العربية للغرب، دار الجيل للطباعة، بيروت، 1998.
- 9- راجح بودبابة: العلوم الإنسانية والاجتماعية والبحث العلمي، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 07، نوفمبر إصدارات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، 2006.
- 10- رضا سعيد مقبل: النشر الجامعي في العصر الرقمي، مجلة البحوث كلية الآداب، الصادرة عن جامعة المنوفية، مجلد 85، أبريل 2011/4/1.
- 11- إبراهيم عيسي: أثار التخلف في البحث العلمي، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2009).
- 12- منى فاروق علي، أشرف البلقيني: تقرير حول النشر في العالم العربي لعام 2011، اتحاد الناشرين العرب، مصر، الإصدار الأول، 2013.
- 13- رؤوف عبد الحفيظ هلال: تسويق الكتاب العربي، دراسة للواقع واستشراف المستقبل، ورقة مقدمة لصالح المؤتمر العربي الأول الموسوم بمستقبل صناعة الكتاب العربي في القاهرة، المنعقد يومي 8-12 مايو 2005.

## السببية وسرعة الضوء Causality and Speed of light

د.محمد تونسي/جامعة عمارثليجي الأغواط، الجزائر

105

### Abstract:

In this research we will try to understand the relation between causality and the speed of light. And talk about the limits of transmission of causal effect, the relationship between the Speed limits and causality enables us to understand the limits of the spread of causal effect, As the concept of infinite speeds does not set limits on the spread of causal effect The speed of light is considered as a maximum of speeds and it is a constant speed in the void that makes it a decisive factor in drawing the limits for the spread of causal effect. It is known that the speed of light constant occupies a privileged position in contemporary physics. For the concept of causality, the speed of light is a causal parameter. Through the speed of light we can see if there is a causal relationship between physical events or not .Before theory of relativity Newton's physics adopted the concept of infinite velocities in its conception of absolute time and absolute space. These concepts include, in one form or another immediate monitoring and immediate impact, As if causality could spread in the universe without imagining a roof for its speed. In the late 19th century Newton's physics entered a crisis in which he discovered that there was a roof for speeds that could not be exceeded, This ceiling forces us to deal with the physical world in a relative way only, Relativity theory has emerged to consider the observer as part of the events, Physical events, including observers, interact with each other at a speed not exceeding the speed of light, The causal effect cannot exceed the speed of light. This makes the speed of light to be a causal parameter in which we measure the causal link between physical events, But with the advent of quantum theory and the evolution of particle physics he began talking about particles breaking barrier of the speed of light, Or particles that affect each other remotely and do not take any consideration for the space-time extension required by the causal effect transmission, As causality in this world is not linked to the speed of light, This raises questions and doubts about the relationship of causality to the speed of light.

**Keywords:** causality, speed of light, relativity, faster than light.

## ملخص:

في هذا البحث سنحاول فهم العلاقة بين السببية و سرعة الضوء و الحديث عن حدود انتقال التأثير السببي، إن العلاقة بين سقف السرعات و السببية تمكننا من فهم حدود انتشار التأثير السببي، و مثلما كان مفهوم السرعات اللانهائية لا يضع حدودا لانتشار التأثير السببي فإن اعتبار سرعة الضوء كحد أقصى للسرعات و أنها سرعة ثابتة في الفراغ تجعل منها عاملا حاسما في رسم الحدود لانتقال التأثير السببي، معلوم أن ثابت سرعة الضوء يحتل مكانة مميزة في الفيزياء المعاصرة، و بالنسبة لمفهوم السببية تعتبر سرعة الضوء بارامتر سببي أو مسطرة للسببية إذ يمكن من خلالها الحكم بوجود علاقة سببية بين الحوادث الفيزيائية من عدمها، قبل النسبية اعتمدت فيزياء نيوتن مفهوم السرعات اللانهائية في تصورهما للزمان المطلق و المكان المطلق و الحركة المطلقة، فهذه المفاهيم تتضمن بشكل أو بآخر آنية الرصد أو التأثير، و كأن السببية يمكن تسري في الكون دون تصور سقف لسرعتها، في أواخر القرن التاسع عشر دخلت فيزياء نيوتن في أزمة تبين من خلالها أنه يوجد سقف للسرعات لا يمكن تجاوزه و هذا السقف يحتم علينا أن نتعامل مع العالم الفيزيائي بشكل نسبي فقط، و قد ظهرت نظرية النسبية لتضع الإنسان أو الراصد كجزء من الأحداث بحيث أن الأحداث الفيزيائية بما فيها الراصدين تتفاعل مع بعضها بسرعة لا تتجاوز سقف سرعة الضوء، فالتأثير السببي لا يمكن أن يتجاوز سرعة الضوء و هذا ما دفع لاعتبار سرعة الضوء لتكون بارامتر سببي نقيس من خلاله الارتباط السببي بين الأحداث الفيزيائية، لكن مع ظهور نظرية الكوانتم و تطور فيزياء الجسيمات بدأ الحديث عن جسيمات تخرق حاجز سرعة الضوء، أو جسيمات تؤثر في بعضها عن بعد و لا تقيم أي اعتبار للفاصل الزمكاني الذي يتطلبه انتقال التأثير السببي، و كأن السببية في هذا العالم لا تخضع لسقف سرعة الضوء، و هذا ما طرح تساؤلات و شكوكا عن علاقة السببية بسرعة الضوء.

*الكلمات المفتاحية: السببية، سرعة الضوء، النسبية، أسرع من الضوء.*

## مقدمة:

لقد حظيت مسألة السببية بنقاش واسع في مؤلفات الفلاسفة و العلماء لما لها من علاقة بالنظام الذي يكتنف الطبيعة و بالقوانين التي نصوغها كرابط بين الأسباب و المسببات لفهم الظواهر الطبيعية، لقد تم تناول السببية من عدة أوجه و تساءل الفلاسفة عن الرابطة السببية هل هي موجودة في الطبيعة أم في عقولنا فقط؟، ما هي علاقة الترتيب السببي بالترتيب الزمني و أيهما يدل على الآخر؟، هل العلاقة بين السبب و النتيجة هي علاقة ضرورة أم علاقة احتمال؟، كيف غيرت نظريات العلم المعاصر من فهمنا لمسألة السببية؟، هذه الأسئلة و غيرها شكلت قضايا أثرت حول السببية، من بين القضايا المطروحة حول السببية حدود انتقال التأثير السببي، إن انتقال التأثير السببي بين السبب و النتيجة أو بين حدث سابق و حدث لاحق يتطلب انتقالا عبر الزمان و المكان، و لا بد للتأثير السببي أن ينتقل بسرعة معينة، و لو تصورنا أن سرعة انتقال التأثير السببي لانهائية أو أن لها سقف لا يمكن أن تتجاوزه ستتربت عن هذا نتائج مهمة، لقد مرت الفيزياء بعدة تطورات منذ زمن نيوتن إلى يومنا هذا، و بعدما كان لمفهوم السرعة اللانهائية مكان في فيزياء نيوتن جاءت نظرية النسبية لتؤسس الفيزياء على ثابت سرعة الضوء باعتبار أن سرعة الضوء محدودة و باعتبارها كذلك سقف السرعات الذي لا يمكن تجاوزه، لقد فرض علينا ثابت سرعة الضوء أن نرصد الأحداث الفيزيائية بشكل نسبي فقط تبعا لموقعنا الزمكاني إزاء الأحداث، كما حدد إمكانية الارتباط السببي بين الأحداث من عدمها، في فيزياء النسبية تعتبر سرعة الضوء "بارامتر سببي" (Causal parameter) نفهم من خلاله العلاقة السببية بين الأحداث، لكن ماذا لو فقد ثابت سرعة الضوء مكانته المميزة في الفيزياء و اكتشفنا سرعات تتجاوز سرعة

الضوء ؟، لقد أظهرت بعض التجارب في الفيزياء المعاصرة أن هناك ظواهر ميكروسكوبية تبدو وكأنها تخرق حاجز سرعة الضوء، وهذا يستدعي التساؤل حول تأثير ذلك على مسألة السببية ؟.

#### 1- معنى السببية وسرعة الضوء:

السببية (causality) تشير إلى أن لكل حادث سبب (cause-and-effect) أو أن لكل معلول علة ، فالسببية تعني أن وراء كل ظاهرة تحدث سبباً فاعلاً، وان الحوادث تتتابع أو تتساقق في سلسلة يرتبط فيها السابق باللاحق ، وهذا التتابع السببي الذي نلاحظه في الطبيعة تستند إليه النظريات الفيزيائية في بناء قوانينها وتفسير الحوادث الطبيعية ، جاء في معجم لالاند في تعريف السببية ما يلي: "لا يحدث شيء بلا علة أو على الأقل بلا سبب محدد، أي بلا شيء ما يمكنه الإفادة في تحليل قبلي لسبب وجود هذا الشيء بدلا من عدمه ، ولماذا هو على هذا النحو وليس على نحو آخر مختلف تماما" (1)، و العملية السببية (process causal) تتميز "بالامتداد في الزمان و المكان مثل موجات الضوء المسافرة من الشمس أو حركة كرة... و العملية السببية تتميز بالوحدة السببية ، كاستمرار كيف ما أو حيازة سمة معينة... و العمليات السببية هي عناصر أساسية للموقف الميكانيكي من السببية: فهي تشكل الميكانيزمات التي تربط بين السبب و النتيجة و تنقل التأثير السببي" (2).

أما بالنسبة لمفهوم سرعة الضوء فقد كان يعتقد في فيزياء نيوتن أنها لانهائية ، بمعنى أن الضوء ينتشر لمسافات بعيدة بشكل آني ، و قد حاول علماء من قرون قياس سرعة الضوء و إبطال الزعم أن سرعته لانهائية ، ففي القرن السابع عشر اكتشف كل من الفلكي الدانماركي "أول رومر" و الفيزيائي الهولندي "كريستيان هويغنز" أن سرعة الضوء محدودة ، و قد كانت هناك تجارب استهدفت سرعة الضوء مثل تجارب العالم الانجليزي "جيمس برادلي" في القرن الثامن عشر و العالم الفرنسي "هيبوليت فيزو" في القرن التاسع عشر ، و قد توصلوا إلى قيم تقترب من القيمة الدقيقة التي توصل إليها العلم الحديث ، و مع تطور التقنية و وسائل القياس تم تحديد قيمة " c " أي سرعة الضوء في الفراغ بدقة حيث تبلغ 299.792.458 متر في الثانية، أي قرابة 300 ألف كم/ثا، و تعتبر سرعة الضوء سقف السرعات في الفيزياء المعاصرة ، بحيث أنه لا توجد سرعة في الكون تتجاوز حد سرعة الضوء ، و قد أصبح الثابت " c " معاملا أساسيا حيث أن الكثير من المعادلات الفيزيائية تحوي ثابت سرعة الضوء ، لتصور مقدار سرعة الضوء يكفي أن نذكر أنه يلف الكرة الأرضية حوالي سبعة مرات في ظرف ثانية واحدة ، و نظرا لأن سرعة الضوء هي سرعة كبيرة جدا تبدو لنا أنها تنتقل بشكل آني في المسافات العادية ، حيث يمكننا ملاحظة الأشياء التي نبصرها من حولنا بشكل آني ، لكن مع المسافات الشاسعة يظهر لنا الفارق الزمني الناجم عن سرعة الضوء المحدودة ، مثلا ضوء الشمس - التي تبعد عنا بحوالي 150 مليون كيلومتر - يتطلب ثمانية دقائق لكي يصل إلينا ، و ضوء اقرب المجرات إلينا يتطلب ثلاثة ملايين سنة حتى يصل إلينا نظرا للمسافة الخيالية التي تفصلنا عنها . أن العلاقة بين سرعة الضوء و السببية تمكننا من فهم حدود انتشار التأثير السببي ، مثلما كان مفهوم السرعات اللانهائية لا يضع له حدودا فإن اعتبار سرعة الضوء كحد أقصى للسرعات و أنها سرعة ثابتة في الفراغ تجعل منها عاملا حاسما في رسم الحدود لانتقال التأثير السببي ، كما أن الافتراض بأن هناك سرعات تفوق سرعات الضوء يستدعي إعادة فهم مسألة السببية بناء على ثوابت جديدة و تجاوز التناقضات التي تنجم عن هذا الافتراض.

(1) - لالاند، أندريه: موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة: خليل أحمد خليل، ج1، ط1، بيروت: منشورات عويدات، 1996، ص154

(2) - بسيلوس، ستاتس: فلسفة العلم من الألف إلى الياء، ترجمة: صلاح عثمان، ط1، القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2018، ص56-57

## 2- الأطر المطلقة و السببية في فيزياء نيوتن:

لقد ارتبطت فيزياء نيوتن (1642- 1727) بمفهوم السببية الآلية أو الميكانيكية ، حيث أن اكتشاف نيوتن لحساب التفاضل و التكامل و استعماله لفهم العالم الفيزيائي يعبر عن ولادة السببية الآلية في النظرية الفيزيائية، فالحالة المستقبلية لجملة ما يمكن أن تتحدد انطلاقاً من حالتها الراهنة، فالوجود الفيزيائي محكوم بقوانين ثابتة تعبر عن تتابع العلة و المعلولات. و كنتيجة لهذا اتسمت فيزياء نيوتن بطابع اليقين حيث يمكن التنبؤ بأي حادث فيزيائي إذا كنا على دراية بأسبابه، فإذا توفرت الأسباب فلا يمكن أن يقع إلا هذا الحادث لا غيره ، لقد تصور نيوتن الكون كآلة الميكانيكية فإذا توفر السبب فإن حدوث النتيجة يتبعه بالضرورة ، كما أن التتابع العلي للحوادث يسير وفقاً لاتجاه الزمن ، إذ لا يمكن أن يكون حادثاً مستقبلياً علة لحادث ماض ، فأحداث الطبيعة تسير في اتجاه واحد هو اتجاه السيادة الزمنية و هذا ما يشير إليه نيوتن في تعريفه للزمن بكونه ينساب باطراد و في اتجاه واحد ، فنحن نقول أن هذا الحادث علة و هذا معلول استناداً إلى ترتيبهم في هذا التدفق الزمني ، فما يميز العلة عن المعلول هو السبق الزمني.

إن الحديث عن السببية عند نيوتن يتطلب التطرق لها في سياق المفاهيم التي اعتمدت عليها الميكانيكا الكلاسيكية ، لقد أراد نيوتن أن يؤسس الفيزياء على أطر مطلقة تمثلت في الزمان المطلق و المكان المطلق و الحركة المطلقة ، لقد أشار في مقدمة كتابه الشهير "المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية" إلى أن تفكير الإنسان لا يتناول المكان و الزمان و الحركة إلا من خلال علاقتهما بالأشياء المحسوسة، و لكي نخرج من معلوماتنا الحسية بفكرة مجردة تكون لبنة للعلم، يجب علينا ألا نعتد هذه الطريقة في التفكير -أي ربط المكان و الزمان بالمحسوسات- و الخروج بتصوير المكان و الزمان المطلقين المستقلين عن كل شيء و الثابتين دائماً.

في حديثه عن الزمان يعرف نيوتن الزمان المطلق حيث يقول : « الزمان المطلق ، الحقيقي و الرياضي ، بذاته و بطبيعته ، و دون علاقة بأي شيء خارجي ، يتدفق بانتظام »<sup>(1)</sup>، من خلال هذا التعريف يعتبر نيوتن الزمن المطلق ينساب بشكل منتظم بحيث لا يتسارع انسيابه و لا يبطؤ في كل أرجاء الكون ، و هذا الزمن هو مستقل عن الأشياء و حركتها حيث أنه مهما كانت وضعية الأشياء و مهما كانت وتيرة حركتها سريعة أو بطيئة أو منعدمة فان هذا لا يغير شيئاً في هذا الإيقاع الكوني، بل بالعكس تبقى الحركة تخضع له و لا تفلت منه ، يقول نيوتن « يمكن أن تتسارع أو تتباطأ جميع الحركات ، إلا أن انسياب الزمن المطلق ليس قابلاً للتغير ، و مدة أو ديمومة وجود الأشياء تبقى نفسها، مهما كانت الحركات سريعة أو بطيئة أو منعدمة »<sup>(2)</sup>، كذلك يرى نيوتن أن الزمان المطلق رياضي حيث أن قياس الزمان المطلق رياضي عكس الزمن النسبي الذي يكون قياسه تجريبي أي بواسطة الحركة، كما أن الزمان المطلق ينساب بصورة ثابتة في اتجاه واحد من الماضي إلى المستقبل ، حيث أن ترتيب الأحداث إلى سابق و لاحق و متأن يغدو ترتيباً مطلقاً ثابتاً لا يتغير مهما كانت المسافة بين الأحداث .

لقد أراد نيوتن من خلال فيزيائه جعل الراصد في موقع مفضل ، أو بالأحرى يكون الراصد و كأنه خارج الكون بحيث يقع الكون كله تحت مرمى قياساته ، و سيتحقق هذا عن طريق التحديد الرياضي للإحداثيات المطلقة للزمان و المكان ، فحسب نيوتن عن طريق التحديد الرياضي للزمان و المكان سيصبح الراصد من كونه جزءاً من الأحداث و لا يملك إلا تحديد نسبي إلى راصد يستوعب مجريات الأحداث الفيزيائية و يستطيع التوصل إلى تحديد مطلق للزمان و المكان ، و بالتالي يصل إلى القيم

(1) - Newton, Isaac; **Mathematical principles of natural philosophy**, tra; Bernard cohen and anne Whitman, USA; university of California press, 1999,p408

(2) - Ibid, p 410

المطلقة التي تفرض نفسها على جميع الملاحظين و يتحدد لديه ماض و حاضر و مستقبل واحد ، و "قبل" و "أثناء" و "بعد" واحد .

عند وقوع حادثة فيزيائية في الكون فإن فيزياء نيوتن لا تقيم أي اعتبار للمسافة و الزمن الذي يفصل بين الحادثة و الملاحظين و بعبارة أخرى لا تقيم أي اعتبار لموقع الراصد ، فلو كان ملاحظين يقف أحدهما على سطح الأرض و الآخر في منتصف المسافة بين الشمس و الأرض ، فان اختفاء الشمس بالنسبة لكليهما سيكون في آن واحد ، ذلك لأن الزمان المطلق الذي يمثل القياس الصحيح سيفرض قيمة واحدة على جميع الملاحظين مهما كانت مواقع ملاحظتهم قريبة أو بعيدة ، و هذا يشير بشكل أو بآخر إلى أن سرعة انتشار الأحداث هي سرعة لانهائية ، كذلك في فيزياء نيوتن ينتقل التأثير السببي للجاذبية انتقالا أنيا أي ينتقل بسرعة لانهائية ، فانتشار تأثير الجاذبية يحدث أنيا وفي زمن واحد مهما كانت المسافة ، فإذا تصورنا أن الشمس اختفت فجأة ، فإن الأرض و الكواكب الأخرى تخرج عن مدارها بشكل أني .

لقد أهمل نيوتن فكرة أن انتقال التأثير من حادث إلى آخر يتطلب زمنا ، و لم يعطي أهمية لفترة انتقال التأثير السببي ، عن هذا يعلق جيمس جينز قائلا: « لو كان الضوء ينتقل بسرعة لانهائية فمن السهل ضبط الساعات البعيدة مثلما نضبط ساعات أيدينا على ساعة الجامعة ، و عندما أهمل نيوتن أن سرعة انتقال الضوء محدودة سلم بإمكانية القيام بذلك ، كما سلم بأن هناك زمنا كونيا ، ينساب باطراد و بغير اعتبار لأي عامل خارجي على امتداد الكون»<sup>(1)</sup> ، كذلك علق بول كوديرك في كتابه "النسبية" على فكرة الزمن المطلق و رأى أنه « يفرض على الكون الطبيعي ميزات جائرة: الأولى هي إمكانية الانتشار الفوري ، و الثانية السرعات اللانهائية ، التعلق بالزمن المطلق كان يدعو إلى إغماض العين عن متطلباته المكروهة من الفلاسفة و العلماء على السواء»<sup>(2)</sup> .

### 3- سرعة الضوء و السببية في نظرية النسبية :

تعتبر نظرية النسبية للفيزيائي الألماني ألبرت اينشتاين (Einstein)(1879-1955) من النظريات التي أحدثت ثورة في مجال الفيزياء ، حيث أنها أعادت إرساء الفيزياء على أسس ومفاهيم جديدة ، ففيزياء النسبية تجاوزت مفاهيم فيزياء نيوتن مثل الزمان المطلق و المكان المطلق و الحركة المطلقة ، و بينت أنه لا وجود للمكان المطلق ، بل المكان هو جزء من هذه الأحداث يتأثر بها محليا و يؤثر فيها ، كذلك الأمر بالنسبة لمفهوم الزمان حيث لا يمكن الحديث عن زمان مطلق فكل حادثة لها زمانها الخاص بها و لا يمكن الحديث عن إيقاع واحد لزمان كوني ، لقد تجاوزت نظرية النسبية الصورة السكونية للفيزياء النيوتونية و أوضحت أن هناك ترابطات متشابكة بين المادة و الطاقة و المكان و الزمان ، فلم يعد المكان و الزمان شيئين منفصلين ، بل أصبح كل من المكان و الزمان كيانين متصلين لا معنى لوجود أحدهما دون الآخر ، حيث أصبح الحادث يتحدد بالمكان و الزمان في متصل واحد يدعى بالزمكان ، كذلك بينت النسبية أن المكان و الزمان ليسا مسرحين جامدين بل يتأثران بالكتلة و الطاقة و يؤثران فيهما .

لقد تبلورت نظرية النسبية نتيجة الأزمة التي أحدثتها تجربة مايكلسون و مورلي أواخر القرن التاسع عشر ، و قد أظهرت نتائج هذه التجربة تناقضا مع دساتير الفيزياء التقليدية ، فمن بين النتائج التي أفرزتها هذه التجربة هو أن قانون جمع السرعات لن يكون له جدوى عند عتبة سرعة الضوء ، نتيجة التجربة كانت تشير دائما أن هناك عتبة لا يمكن تجاوزها و هي عتبة سرعة الضوء ، لقد استهدفت هذه التجربة قياس سرعة الضوء و أفرزت نتائج محيرة ، استعمل مايكلسون و مورلي

(1)-جينز، جيمس: الفيزياء والفلسفة، ترجمة: جعفر رجب، القاهرة: دار المعارف، دت ، ص 84-85

(2) – بول كوديرك، النسبية، ترجمة: مصطفى الرقي ، ط1، بيروت: منشورات عويدات ، 1971، ص37

جهازاً من المرايا رتبت بطريقة خاصة تمكن من مقارنة سرعة الضوء في اتجاه حركة الأرض - تبلغ حركة الأرض في دوراتها حول الشمس 30 كلم/ثانية - مع سرعته في الاتجاه المعاكس ، و كان متوقفاً أن يكون هناك فارق زمني بين سرعة الحزمتين الضوئيتين في قطعهما نفس المسافة في ذراعي الجهاز ، لكن التجربة كشفت عن وصول الحزمتين في نفس الوقت ، مما يعني أن سرعة الضوء هي نفسها في كلتا الحالتين ، أحدثت هذه التجربة أزمة في الفيزياء الكلاسيكية لأنها أظهرت نتيجة محيرة لم يعد قانون جمع السرعات صالحاً عندها ، فالتجربة تشير إلى نتيجة متناقضة حيث أن:  $30+300000=300030$

أمام هذا المأزق و كمحاولة للحفاظ على قوانين الفيزياء الكلاسيكية اقترح الفيزيائي الهولندي هندريك أنتون لورنتز ( Lorent (1853- 1928) فكرة مفادها أن الأطوال تتعرض لانكماش في اتجاه الحركة ، وهذا ما يحدث لحزمة الضوء عندما تكون في اتجاه حركة الأرض ، و قد قدر قيمة الانكماش بإدخال المعامل الآتي :

$$\sqrt{1-\frac{V^2}{C^2}}$$

حيث أن  $v$  = سرعة الجسم ،  $c$  = سرعة الضوء

لقد اعتبر تحويل لورنتز صيغة ملائمة لإنقاذ التحويل التقليدي عندما يعجز في السرعات العالية ، و يمكن أن نلاحظ تأثير تزايد السرعة على الطول و على الزمن ، حيث أن الطول يميل إلى الانكماش كلما اقتربنا من سرعة الضوء و الزمن يميل إلى التباطؤ ، عندها في التجربة يكون انكماش حزمتي الضوء بنفس الدرجة و كذا يتزامن وصولهما في وقت واحد و هذا ما يفسر وصولهما في نفس الوقت . و مهما عملنا على تركيب السرعات فإننا لا نتجاوز عتبة سرعة الضوء ، و سنرى أن تفسير اينشتاين لعدم تأثير حزمة الضوء بحركة الأرض يرجع إلى ثبات سرعة الضوء مهما كانت حركة مصدره و الجهة التي تستقبله ، لقد استفاد اينشتاين من معامل الانكماش للورنتز و أدخله في الكثير من الصيغ الرياضية لنظرية النسبية . و قد أسس نظريته على مبدأ ثبات سرعة الضوء و أنها السرعة القصوى في الكون التي لا يمكن تجاوزها ، و انطلاقاً من قناعة اينشتاين أن قوانين الطبيعة ليس فيها استثناءات رأى أنه يجب إعادة النظر في قوانين الميكانيكا الكلاسيكية لكي تكون صالحة في كل الظروف ، يقول اينشتاين: « إن قوانين الميكانيك بشكلها القديم تصبح فاسدة عندما تقترب السرعة من سرعة الضوء. »<sup>(1)</sup>

إن ميكانيك نيوتن الذي يصلح فقط للسرعات العادية و عجز عن استيعاب السرعات التي تقارب سرعة الضوء حلت محله نظرية أشمل هي نظرية النسبية التي تتعامل مع كل السرعات و أقصاها سرعة الضوء ، فثابت سرعة الضوء كسقف للسرعات في الكون الفيزيائي يعتبر من المبادئ التي قامت عليها النسبية و لذا نجد أن ثابت سرعة الضوء "C" حاضر في جميع معادلات النسبية ، لقد اعتبرت نظرية النسبية أن سرعة انتشار الضوء في الفراغ هي سرعة ثابتة و لها القيمة نفسها في جميع المراجع الغاليلية ( التي تتحرك بحركة مستقيمة و منتظمة ) ، مهما كانت سرعة المصدر و جهة انتشار الضوء و حركة كل من المنبع و المراقب ، يقول اينشتاين: « إن سرعة الضوء في الخلاء هي في كل المراجع التي تتحرك ، واحداً بالنسبة لآخر ، حركة منتظمة مستقيمة. »<sup>(2)</sup>

تترتب على محدودية سرعة الضوء نتائج مهمة ، حيث يتحتم علينا اعتبار قيم الرصد تختلف من ملاحظ إلى آخر حسب موقعه في الكون ، فمثلاً لو تختفي الشمس فسيلاحظ شخص واقف على عطارد الاختفاء بعد دقيقتين أو ثلاث في حين نلاحظ نحن الاختفاء بعد ثمان دقائق ، فنحن نلاحظ ماضي الشمس و ليس حالتها الراهنة و ما هو ماضي بالنسبة للشخص الأول

(1) – ألبرت اينشتاين ، ليوبولد انفلد ، تطور الأفكار في الفيزياء ، ترجمة: أدهم السمان ، سوريا: دار طلاس للنشر ، 1992 ، ص 143

(2) – المرجع نفسه ، ص 131

هو مستقبل بالنسبة إلينا قبل أن نشهد الاختفاء، و لو كان هناك إشارة أنية (تتجاوز سرعة الضوء) لكان هناك مرجعية مشتركة يكون على أساسها اتفاق زمني في مشاهدة الحادثة بين عدة مراقبين محتملين في أماكن مختلفة، هذه هي الركيزة - نقصد السرعات اللانهائية- التي كان يعتمد عليها نيوتن لتحقيق فكرة الزمان و المكان المطلقين، يرى اينشتاين أن نظرية النسبية تجربنا على التخلي عن وجهة النظر التقليدية، حيث أنه لا يمكن الاتفاق على توقيت واحد في الكون أو على ضبط توقيت مطلق لحادثة، فنحن لا نملك مقياسا ثابتا أو إيقاعا زمانيا واحدا للكون، حيث أن لكل مكان نتيجة قياس مختلفة، يقول اينشتاين: « قد واجهنا لدى الراصدين حادثين متواقين في مرجع أحدهما، و غير متواقين في مرجع آخر»<sup>(1)</sup>.

تبعا لسقف السرعات تنص نظرية النسبية على أن التأثير السببي ينتقل بسرعة أقصاها سرعة الضوء، مثلا إذا وقعت الحادثة "أ" في مكان معين ثم بعد ثانية بالضبط وقعت الحادثة "ب"، و المسافة التي تفصل بين "أ" و "ب" تساوي 600 ألف كلم، فتبعا لقوانين النسبية يمكن أن نجزم أنه لا يوجد أي علاقة سببية بين الحادثين، حيث أن التأثير السببي إذ وجد بينهما يلزمه على الأقل ثنيتين - و هي المدة الكافية ليقطع الضوء المسافة الفاصلة بين الحادثتين - لكن الفارق الزمني بينهما ثانية و هذا يشير إلى استحالة وجود علاقة سببية بينهما، و يمكن أن نعبر عن هذا رياضيا: فإذا قمنا بقسمة المسافة بين الحادثتين على الزمن المستغرق بينهما، سيشير حاصل القسمة إذا كان أكبر من قيمة سرعة الضوء إلى أنه لا توجد علاقة سببية بين الحادثة أ و الحادثة ب، أما إذا كان الحاصل مساويا أو اصغر من قيمة سرعة الضوء فيمكننا القول انه توجد علاقة سببية بين أ و ب:

$$\frac{d}{t} \leq c \quad \text{توجد علاقة سببية بين الحادثتين}$$

$$\frac{d}{t} > c \quad \text{لا توجد علاقة سببية بين الحادثتين}$$

معلوم أن الضوء يعبر المسافة الفاصلة بين الشمس و الأرض في ثمانية دقائق، فلو افترضنا أن انفجارا حدث في الشمس و بعد خمسة دقائق وصلت موجة حرارة كبيرة إلى الأرض، تبعا لقواعد انتقال الأثر السببي فانه لا يمكننا القول أن سبب موجة الحرارة هو الانفجار الذي حدث في الشمس، فالعلاقة السببية بين الانفجار و موجة الحرارة معدومة لأنه من المستحيل أن ينتقل تأثير الانفجار بسرعة أكبر من سرعة الضوء، لكون سرعة الإشارة و الأثر السببي محدودة فإنه عند وقوع حادثة فان قيم رصدها ستختلف باختلاف موقع الراصدين، فقد تكون حادثتين متزامنتين في الأصل غير متزامنتين بالنسبة لراصدين يقفان على مسافات متفاوتة و بالتالي يتفاوت توقيت وصول الإشارة إليهما، إن محدودية انتقال الإشارة بين المراقبين و الظاهرة هي التي تجعل من "التزامن" و "القبل" و "البعد" أمرا نسبيا، يقول رايشنباخ في هذا الشأن: « على الرغم من أن نسبية التزامن تبدو فكرة تدعو إلى الاستغراب فإنها منطقية و يمكن تخيلها عينا. و أن الغرابة في آراء اينشتاين لتختفي في عالم تصبح فيه قيود الانتقال السببي أكثر وضوحا، فإذا ما أمكن في وقت ما إقامة تليفون لاسلكي مع المريخ، و كان علينا أن ننتظر عشرين دقيقة للإجابة على أي سؤال نوجهه بالتليفون، لاعتدنا عندئذ فكرة نسبية التزامن.»<sup>(2)</sup>

لقد رأى رايشنباخ «أن نظرية النسبية أثبتت الارتباط بين مفهوم الزمن و مفهوم السببية، و عملت على ربط صيغة الحقائق العامة مع الترتيب الزمني»<sup>(3)</sup>، حيث أن الأثر السببي لا يمكنه أن ينتقل بأكثر من سرعة الضوء، فمن خلال سرعة الضوء

(1) - المرجع نفسه، ص133

(2) - رايشنباخ، هانز: نشأة الفلسفة العلمية، ترجمة: فؤاد زكرياء، القاهرة: دار الكتاب العربي، 1968، ص 141

(3) - Reichenbach, Hanz; *The philosophy of space and time*, tra; maria Reichenbach, john freund, new York; dover publication, 1957, p273

يمكن أن نحكم بوجود علاقة سببية بين حادثتين أو استحالتها، و لو كنا نعيش في عالم لا يكون فيه لسرعة الإشارات حد أعلى، لكانت أي حادثة يمكن أن تكون سببا لحادثة أخرى، و بالتالي يتعذر علينا التمييز بين إمكانية أو استحالة وجود علاقة سببية، وفقا لما سبق تعتبر سرعة الضوء بارامتر سببي أو مسطرة سببية نقيس من خلالها إمكانية انتقال الأثر السببي بين الحوادث الفيزيائية أو استحالة انتقاله قبل وقت معين.

لماذا لا يتجاوز الضوء سرعته المحددة؟ من المعلوم أن العلماء يستطيعون إبطاء سرعة الضوء قليلا بتمرير الفوتونات عبر أوساط مختلفة، لكن لماذا يعجزون عن تسريع الضوء فوق العتبة المعروفة، سرعة الضوء في نظرية النسبية هي حاجز لا يمكن لأي جسم تجاوزه، كما أنه لا يوجد جسم ذو كتلة يمكنه أن يسير بسرعة الضوء لأنه زيادة السرعة تزداد الكتلة و من ثم يحتاج هذا الجسم إلى طاقة أكبر ليحرك هذه الكتلة الزائدة، و لكي تصل سرعته إلى سرعة الضوء سوف يحتاج إلى كمية غير متناهية من الطاقة و ستكون كتلته لانهاية، و لهذا نجد أن الكتلة السكونية للجسيمات التي تسير بسرعة الضوء معدومة، بالإضافة إلى هذا فإنه عند بلوغ الجسم سرعة الضوء فإن الزمن المحلي في المنظومة المتسارعة سيتوقف و الجسم

$$T' = \frac{T}{\sqrt{1 - \frac{v^2}{c^2}}} \quad L' = L \sqrt{1 - \frac{v^2}{c^2}}$$

المتسارع سينعدم طوله في اتجاه الحركة، وفقا للمعادلات التالية:

في حالة بلوغ سرعة الجسم (v) سرعة الضوء (c) فإن الزمن (T') سيتوقف و الطول (L') سينعدم

يقول اينشتاين: «ينتج من تحويل لورنتز أن العصا المتحركة تتقلص في اتجاه الحركة، و أن هذا التقلص يستفحل لدى تزايد سرعتها، فتصبح اقصر فأقصر... و ينتج من تحويل لورنتز أن طول العصا ينعدم عندما تصل إلى سرعة الضوء، مهما كانت طويلة قبل أن تتحرك»<sup>(1)</sup>، و كذلك الزمان في السرعات العالية سيصيبه التباطؤ بحيث ينساب ببطء على الأجسام المتسارعة حتى يتوقف انسيابه عندما يبلغ سرعة الضوء، لكن ما الذي سيحدث لو تم تجاوز سرعة الضوء؟ أول شيء يمكن استنتاجه هو رؤية الماضي لأن اجتياز سرعة الضوء يمكننا من اللحاق بالأمواج الضوئية التي تخص الماضي و بالتالي ملاحظة الماضي، كذلك إذا تم تجاوز عتبة سرعة الضوء فإن انسياب الزمن المحلي للمنظومة المتسارعة يبدأ بالانسياب في الاتجاه العكسي أي من المستقبل إلى الماضي، إن انسياب الزمان في اتجاه واحد من الماضي إلى المستقبل ينتج عنه الترتيب المتسلسل للحوادث بحيث يسبق السبب دائما النتيجة، و من غير المعقول أن نتصور عالما بترتيب عكسي حيث تسبق فيه النتيجة السبب، و لو تمكنا من اكتشاف أشعة تتجاوز في سرعتها حاجز سرعة الضوء يصبح من الممكن نقل معلومات إلى الماضي و عندها سنقع في مفارقة أن النتيجة تؤثر في السبب، كل هذا يشير إلى الأهمية التي تحتلها سرعة الضوء بالنسبة للترتيب السببي للحوادث، قد يصح القول أن الضوء لا يمكنه تجاوز عتبة معينة لأن هذه العتبة تمثل عتبة سرعة السببية، أو بعبارة أخرى الضوء يخضع لسرعة السببية، حيث أن السببية هي التي تحدد سقف السرعات في الكون، و هي التي تضمن أن يسير الزمان في اتجاه واحد من الماضي إلى المستقبل، فصيرورة الكون و الزمان مبنيان على تتابع السبب و النتيجة و لا يمكن تصور العكس.

4- أسرع من الضوء:

من خلال ما سبق تعرفنا على مكانة ثابت سرعة الضوء في نظرية النسبية فبالإضافة إلى كونه مبدأ تقوم عليه الفيزياء النسبية فهو أيضا يدخل كطرف في قوانين النظرية، فلا يكاد يوجد قانون في هذه النظرية إلا و يتضمن الثابت "c"، فهذه النظرية ترسم حدا لصلاحية قوانينها و هذا الحد هو حاجز سرعة الضوء، صحيح أن حاجز سرعة الضوء باعتباره أكبر

(1) - ألبرت اينشتاين، ليوبولد انفلد، تطور الأفكار في الفيزياء، ص 140-141

سرعة في الكون هو مبدأ و لا يمكن الفصل في إثباته بالتجارب و لكن بالمقابل لم يظهر بشكل جلي ما يناقضه على الأقل حتى الآن، إن الكلام عن جسيمات تفوق سرعة الضوء استهوى العلماء المجريين و ذهبوا يبحثون عن هذه الجسيمات ، لأن كشف هذه الجسيمات تجريبيا و إثبات وجودها بشكل دامغ سيضع نظرية النسبية على المحك و سيناقض هذا أهم مبدأ قامت عليه، هناك بعض التجارب التي يعلن عنها بين الحين و الآخر تشير إلى كشف سرعة أكبر من سرعة الضوء لكن هذه التجارب تثير دائما جدلا و يختلف العلماء في تأويلها .

الكلام عن جسيمات تحرق حاجز سرعة الضوء تعود أصوله إلى بداية الستينات مع الفيزيائي الأمريكي جيرالد فينبرغ ، فقد افترض إمكانية وجود جسيمات تتجاوز سرعتها حاجز سرعة الضوء ، لقد رأى « أن وجود جسيمات أسرع من الضوء ، مما سماها التاكيونات، لن يكون متناقضا مع نظرية اينشتاين عندما نفترض أنها تلاقي نفس هذا الحاجز (سرعة الضوء) و لكن من الجانب الآخر، و بكلمات أخرى، فان التاكيونات هي مما يمكن تصور وجوده إذا كانت تحتفظ دائما بسرعة أكبر من سرعة الضوء.»<sup>(1)</sup>

حاول فينبرغ اشتقاق وجود التاكيونات من معادلة نسبة الكتلة لاينشتاين، فإذا كان من المعروف أن سرعة الضوء هي حاجز لا يمكن إدراكه، ماذا لو تصورنا جسما يسير بسرعة أعلى من سرعة الضوء ؟، وفقا لمعادلة زيادة الكتلة التالية:

$$m = m^0 / \sqrt{(1 - v^2/c^2)}$$

حيث m تمثل الكتلة المتسارعة،  $m^0$  الكتلة الساكنة، v سرعة الجسم، c سرعة الضوء

إذا سمحنا ل v أن تكون أكبر من c فسيكون لدينا في الخط السفلي الجذر التربيعي لعدد سالب ، وهذا ما يسمى بالعدد التخيلي، ولو أننا سمحنا للكتلة الساكنة أن تكون تخيلية هي أيضا، فإننا نجد إذن أن للجسيم الافتراضي كتلة حقيقية وطاقة، شريطة أن تكون v أكبر من c، وهذا يقتضي أن يكون للتاكيون دائما كتلة حقيقية، لكن كيف يمكن أن نتصور كتلة ساكنة تخيلية ، لم ينزعج فينبرغ من هذا الأمر ، خاصة إذا علمنا أن هذه الجسيمات ليس في الإمكان أن تخلد إلى السكون، و لذا فلسنا في حاجة إلى القلق فيما يتعلق بكتلتها الساكنة.

لقد تصور فينبرغ أن التاكيونات توجد في عالم خارج نطاق سرعة الضوء، و في هذا العالم تسير الجسيمات بسرعات أعلى من سرعة الضوء فقط، و كلما زادت السرعة أكثر تنخفض كتلتها، و كلما قلت السرعة لتقترب من سرعة الضوء تزايدت كتلتها حتى تصبح لا متناهية عند حاجز سرعة الضوء ، لقد رأى فينبرغ أن هذه الجسيمات نشأت و هي تحمل صفه الحركة بسرعة أعلى من سرعة الضوء، أي أنها لا يمكنها أن تسير بسرعة الضوء أو اقل منها، و عندئذ لا يشكل حاجز سرعة الضوء مشكلة بالنسبة لمعادلات النسبية، و قد أثارت فكرة التاكيونات عند ظهورها قدرا من الاهتمام النظري و جرت محاولات لكشف سرعات تفوق سرعة الضوء، و لا تزال تجرى تجارب متنوعة حتى يومنا هذا\* و هناك بعض التجارب أثارت الشكوك

(1) - ريتشارد موريس: حافة العلم، عبور الحد من الفيزياء إلى الميتافيزيقا، ترجمة: مصطفى إبراهيم فهيم، أبو ظبي: منشورات المجمع الثقافي، 1994، ص 204

\* هناك تجربة مشهورة أوبرا (OPERA) و التي أقيمت من قبل مختبرات سيرن (CERN) بأوروبا ، حيث تم إرسال النيوترونات لمسافة 700 كيلومتراً عبر نفق تحت الأرض. و بعدها حاول العلماء حساب مدة الزمن المستغرق لعبور النفق فتبين أن النيوترونات تسافر أسرع من الضوء بنسبة 60 جزء من المليار من الثانية و لم يتطور لدى العلماء فهم كامل أو تصور واضح حول ما جرى في هذه التجربة ، و قد طرحت مسألة المفارقات التي تثيرها.

حول مصداقية عتبة سرعة الضوء كثابت في الطبيعة ، لكن العلماء اختلفوا في تأويل نتائجها ، و الواضح أنه لحد الآن لم تظهر شواهد تجريبية حاسمة على وجود جسيمات تخترق حاجز سرعة الضوء .

لو تثبت صحة وجود جسيمات تخترق سرعة الضوء فستترتب على ذلك نتائج غريبة ، و يتحتم علينا التخلي عن أكثر الأفكار رسوخاً ألا وهي فكرة أن العلة يجب أن تسبق المعلول ، فإذا أخذنا ثابت سرعة الضوء كحاجز لأقصى سرعة ، فإنه وفقاً لنظرية النسبية سيتفق جميع الراصدين على وجود علاقة سببية من عدمها.<sup>(1)</sup> فلو أن الحادث أكان علة الحادث ب ، فلا بد أن تنطلق إشارة تسير بسرعة الضوء-أو بأقل منها-لتنقل من أ إلى ب ، وإلا لما استطاع الحادث أ أن يتسبب في وقوع الحادث ب ، إن ترتيب الأحداث الفيزيائية لن يكون له معنى إذا كان من الممكن إرسال الإشارة بأسرع من الضوء ، عندها لن تكون هناك مسطرة سببية يحتكم إليها الراصدين ، حيث أنه بإمكان أي حادث أن يكون سبباً في حادث آخر و سيفقد الترتيب السببي للعللة و المعلول معناه ، يرى كولن ولسون أن « هذا بالضبط هو نوع المفارقة الذي ينشأ لو كانت التاكيونات موجودة و من الممكن استخدامها لنقل المعلومات . فلو كانت أجهزة إرسال التاكيونات واستقبالها يمكن أن تستخدم لتبادل الرسائل بين مختلف الراصدين ، فإنه يكون من الممكن إذن استعمالها للإشارة إلى راصد معين بمعلومات عن حوادث تقع في مستقبله ، أو بصيغة أخرى ، يكون من الممكن حينئذ لشخص ما أن يرسل إشارة في ماضيه الخاص . العلة يمكن أن تسبق المعلول ، وسوف تنشأ طائفة من المتناقضات المنطقية »<sup>(2)</sup>.

لقد اعتبر بعض الفيزيائيين أن « فكرة التاكيونات قد وصلت ببساطة إلى أن تبدو غير ذات موضوع ، أو لعلها أسوأ من أن تكون غير ذات موضوع ، ذلك أن هذا الفرض ليس فحسب فرضاً لا يحل أي مشاكل نظرية بارزة ، وإنما هو أيضاً يخلق مشاكل جديدة ، و لو ثبت في النهاية أن التاكيونات حقيقية ، لأصبح على العلماء أن يبحثوا أمر جسيمات تتحرك وراء الزمان ، و أن يفسروا كيف يمكن أن يتأثر الماضي بالمستقبل . »<sup>(3)</sup> ، وقد رأى البعض انه تحاشياً لمثل هذه المتناقضات المنطقية ، علينا اعتبار أن إرسال الإشارات الأسرع من الضوء وتوصيل المعلومات من المستقبل إلى الماضي هو أمر محذور نتيجة للطريقة التي أنشئ بها الكون . إذ أن هناك سهم واحد للزمن ، فنحن نستطيع أن نتذكر الماضي ولكننا لا نستطيع تلقي معلومات من المستقبل ، و الماضي يمكن أن يؤثر في المستقبل ، غير أن المستقبل لا يمكن أن يؤثر في الماضي ، لقد رأى رايشنباخ أنه في عالم لا تؤدي فيه السببية إلى ترتيب متسق للسابق و اللاحق سنقع في تناقضات منطقية ، لكن الوقائع التجريبية تكشف أن عالمنا ليس من هذا النوع ، « و إنما هو يقبل نظاماً متسقاً على أساس علاقة متسلسلة مبنية على ارتباط سببي ، تسمى بالزمان ، فالترتيب الزمني يعكس الترتيب السببي في الكون »<sup>(4)</sup> ، فالترتيب السببي الذي اعتدناه دائماً يتقدم من السابق إلى اللاحق أي من السبب إلى النتيجة التي تعقبه ، و تعاقب الحوادث من سابق إلى لاحق في اتجاه المستقبل هو الذي ندرك من خلاله انسياب الزمان ، إذ لا معنى للزمان في عالم خالي من تعاقب الحوادث .

إذا ثبت وجود جسيمات تفوق سرعة الضوء سيؤدي هذا إلى فقدان القيمة "c" لمكانتها المميزة فالمعادلات المشهورة كقانون الجاذبية لآينشتاين و قانون حفظ الطاقة و قوانين نسبية الكتلة و نسبية الزمان و نسبية المكان و حتى بعض قوانين نظرية الكم تحوي الثابت "c" ، و قد يحدث هذا هزة عنيفة للفيزياء ، و ربما يدفع هذا بالمجتمع العلمي إلى اعتبار الفيزياء التي شيدناها

(1) - Nerlich, Graham; *What spacetime explaine* , Cambridge university press, 1994, p67-68

(2) - كولن ولسون: فكرة الزمان عبر التاريخ ، ترجمة: فؤاد كامل ، الكويت: سلسلة علم المعرفة، 1992، ص 194

(3) - المرجع نفسه، ص 205

(4) - هانز رايشنباخ، نشأة الفلسفة العلمية، ص 136-137

حالة خاصة تصلح حتى عتبة سرعة الضوء، أما فوق هذه العتبة فعلينا تشييد فيزياء جديدة تحوي الظواهر التي تفوق سرعة الضوء، و مع هذه الفيزياء الجديدة ربما تتبلور آلية لمعرفة الماضي لكن دون التأثير فيه.

#### 5- اللاموضعية في عالم الكم ومآزق السببية :

في بدايات القرن العشرين تطورت الاكتشافات في مجال الذرة حيث اكتشف عالم غريب بدا أنه لا يخضع لنفس القواعد التي ألفناها في العالم الكبير، و قد دفع هذا علماء الذرة إلى تطوير نظام جديد لعلم الحركة في المجال الذري دعي بميكانيك الكم، و قد بذلت جهود مضمينة لصياغة نظرية الكوانتم، و لعل الصفة المرتبطة بهذه النظرية و التي تميزها عن النظريات الأخرى هي الغرابة، لقد طرحت هذه النظرية أفكارا غريبة ربما تعكس غرابة العالم الذري، لقد رأى لوي دوبروي أن التصورات المستخلصة من تجاربنا الحسية بعيدة كل البعد عما يمكن تصوره في العالم الذري، إن مفاهيم مثل مفهوم الجسيم الذي نتصوره متناهيًا في الصغر بالتجريد من حبة الرمل أو مفهوم القوة الذي نتصوره متناهيًا في الدقة بالتجريد من المجهود العضلي كلها المفاهيم حسب دوبروي لا يمكن أن تمثل شيئًا حقيقيا داخل الذرة، و الذي لم يكن متوقعا هو ما كشف عنه تقدم البحث في ميدان الكوانتم، هو أن مفهوم المكان و الزمان مثلهما مثل مفهوم الجسيم و مفهوم القوة لا ينطبقان بدورهما انطباقا تاما على الظواهر الميكروسكوبية، يقول دوبروي. «إن استحالة تتبع القفزات الفجائية التي تجعل الذرة تنتقل من حالة قارة إلى حالة أخرى مماثلة، كل ذلك قد أوحى بفكرة عميقة مؤداها أن الوصف الكامل للظواهر الكوانتية على المستوى الذري يتطلب من بعض الوجوه على الأقل تجاوز الإطار الكلاسيكي للمكان و الزمان»<sup>(1)</sup>

لقد رأى الفيلسوف و العالم الانجليزي بيرتراند راسل أن المفاهيم الجديدة التي أتت بها نظرية الكوانتم تنذر بتغير مفاهيمنا عن المكان و الزمان بطريقة جذرية، إن الميكانيك الكوانتي لا يتعامل مع العالم الميكروسكوبي كظواهر مستمرة و متصلة، بل تنظر إلى الظواهر في هذا المستوي على اعتبار أنها منفصلة، حيث أن «ثمة حالة معينة من الأمور تبقى لزمان معين، ثم فجأة تحل محلها حالة من الأمور مختلفة اختلافا محدودا. فالاستمرار في الحركة الذي اعتبر دائما أمرا مفروغا منه، يلوح انه كان مجرد رأى سيقى. و أيا ما كان فان الفلسفة الملائمة للنظرية الكمية، لم تتطور بعد تطورا مناسبًا. و إنني لأشك أنها ستحتاج إلى ابتعاد أكثر جذرية عن النظرية التقليدية للمكان و الزمان من تلك التي تقتضيها نظرية النسبية.»<sup>(2)</sup>

لقد قلبت الميكانيكا الكوانتية تصوراتنا القديمة عن الطبيعة و النظام الموجود فيها، و بينت أن هناك جانب مضطرب من الوجود الفيزيائي لا يمكن التعامل معه إلا بشكل احتمالي، حيث لا وجود لتحويلات منتظمة يمكن أن نستخرج منها انتظام سبي، إن ميكانيك الكم تُسقط الصفة المقررة للعالم الميكروسكوبي، محولة ذلك العالم إلى مجموعة من الأحداث العشوائية، فلا يمكن أن نتحدث عن تيار سبي حاسم حيث يرتبط السبب بعدة نتائج محتملة، يقول بول ديفيس: «إننا لا نرى العالم ساكنا بل متحركا متطورا متغيرا من لحظة إلى أخرى على نحو رتيب بدا في الصورة النيوتونية محددًا سلفا كتتابع للكون في الماضي و الحاضر، لكن ثورة الكم أبطلت هذا الاعتقاد، و أتت لتقول أن المستقبل بطبيعته غير مؤكد أو محدد.»<sup>(3)</sup>

رأينا في نظرية النسبية أنها رسمت حدودا للارتباط بين السبب و النتيجة، حيث يتخذ التأثير السبي مسار زمكاني متصل، لكن نظرية الكوانتم لا تتعامل بمفهوم المسارات المتصلة، بل يتم وصف التحويلات عن طريق الانتقال المنفصل بين حالة ذرية و أخرى و هذا يضع مفهوم التأثير السبي محل تساؤل، لقد علق هايزنبرغ على هذه الصعوبة بالقول أن نظرية النسبية «لا

(1) - محمد عابد الجابري، مدخل إلى فلسفة العلوم، ط4، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1998، ص 438

(2) - برتراند راسل، تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثالث، ترجمة: محمد فتحي الشنيطي، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1977، ص 495

(3) - ديفيز، بول، براون، جوليان: الأوتار الفائقة، ترجمة: أدهم السمان، ط 1، دمشق: دار طلاس للنشر، 1993، ص 42

تزال توفي المتطلبات التقليدية للعلم مادامت تسمح بتقسيم العالم إلى موضوع وشيء (الملاحظ والمُلاحظ) ومن ثم صياغة واضحة لقانون السببية، لكن هذه هي النقطة التي تبدأ عندها صعوبات نظرية الكم<sup>(1)</sup>، في العالم الكوانتي المضطرب يترتب عن عملية القياس عدد محتمل من النتائج، فالسبب الواحد يكون مرتبط بعدة نتائج محتملة، و النتيجة التي تظهر في تجربة معينة قد لا تتكرر من نفس السبب في تجربة أخرى، في العالم الميكروسكوبي تختفي الرتبة التي اعتدناها في العالم المادي الكبير، لقد رأى نيلز بور أن « ميكانيك الكوانتم تتطلب نكران المثال الكلاسيكي للعلية و التخلي عنه.»<sup>(2)</sup>

عند ملاحظة للعالم الذري فإننا عند ضبط موقع الإلكترون لا بد أن نسلط عليه شعاعاً ضوئياً، و لما كان فوتون الشعاع الضوئي يصطدم بالإلكترون و يتحصل هذا الأخير على طاقة تعمل على تحريكه مما يؤدي إلى التباس في تحديد موضعه، و بالتالي فإن ملاحظة الحادثة الذرية في حالتها الطبيعية ضرب من المستحيل، إن الفاصل الزمني في الملاحظة أي بين ارتطام الفوتون بالإلكترون و ارتداده إلى الملاحظ يكون الوضع الذري قد تغير، أي أن سرعة الضوء التي تنتقل بها إلينا حالة الحادثة الذرية هي فاصل كافي لتغير المشهد الذري، و هنا يتضح أن الملاحظة تساهم كمؤثر سببي يؤثر على حالة الذرة القارة لكن الفاصل الزمني للملاحظة الذي تحدده سرعة الضوء لا يترك مجالاً للملاحظة أن يرصد الوضع على طبيعته، إن تدخل الملاحظة في الظاهرة يجعل من الصعب إعطاء وصف دقيق لما يجري، و هذا ما يجعل السؤال الشهير: ما الذي يقع فعلاً في أي حادثة ذرية؟ تصعب الإجابة عليه بشكل قاطع، و علينا أن نتذكر أن ما نلاحظه ليس الطبيعة خالصة، و إنما الطبيعة بعد أن تعرضت لمنهجنا في الملاحظة<sup>(3)</sup>.

تنتقل الإلكترونات بين المدارات في الذرة عن طريق القفزات الكوانتية " quantum leaps"، و القفزة الكوانتية يمكن فهمها أنها انتقال منفصل لا يتطلب مسارا زمانيا متصل، إذ أن انتقال الإلكترون من سوية طاقة إلى سوية طاقة أخرى يتم بقفزة كوانتية دونما حاجة إلى زمن، إنها « شيء ما لا يمكن حدوثه خلال انتقال كلاسيكي متصل»<sup>(4)</sup>. إن الإلكترون لا ينتقل انتقالاً متصلاً و مستمراً عبر المكان حتى يستغرق زمناً، بل يبدو وكأنه يختفي هنا ليظهر في مكان آخر، و كأن زمنه توقف هنا ليبدأ في مكان آخر، و بما أننا فهمنا في نظرية النسبية أن الأثر السببي يتطلب امتداداً مكانياً للانتقال و هذا الانتقال يتطلب زمناً معيناً تبعاً لسقف سرعات لا يتجاوز سرعة الضوء، فإن مفهوم القفزة الكوانتية يدعونا للتساؤل عن مفهوم السببية ما دام لا يوجد انتقال متصل يتطلب زمناً، فهذا يوحي أنه توجد سرعات آنية، معلوم أن تسريع الجسيمات الذرية في معجلات الجسيمات لا يخرق حاجز سرعة الضوء مهما كانت طاقة التسريع لكن مفهوم القفزة الكوانتية يضع علاقة السببية و سرعة الضوء محل تساؤل، قد يعتقد البعض أن التأثير المحلي بين الجسيمات التي تفصل فيما بينها مسافات متناهية في الصغر بالإضافة إلى سرعة حركتها يجعل عامل الزمن غير ذي قيمة بحيث يبدوا التأثير آني و سرعته لا نهائية، لكن العلماء اصطدموا بظاهرة ذرية حيث أن جسيمات بعيدة عن بعضها بمسافة كبيرة لكنهما تتفاعل و كأنها لا تقيم أي اعتبار للمسافة الفاصلة بينهما، كما أن آنية تأثرها تخرق سرعة الضوء و كأنهما مجاورين لبعضهما، و قد سمي هذا السلوك الغريب الذي تسلكه الجسيمات التشابك الكمي " Quantum Entanglement"، و ينص على أن الرابط الفيزيائي بين الجسيمين ليس ضرورياً كي يكونا متشاكين، فلا حاجة أن يكون الجسمين متقاربين في موضع واحد حتى يؤثران في بعضهما، بدأت فكرة التشابك الكمي مع ما

(1) - فيرنر هايزنبرغ، المبادئ الفيزيائية لنظرية الكم، ترجمة: محمد صبري عبد المطلب، انتصار حسن الشبكي، ط2، مصر و الإمارات: كلمة و

كلمات عربية للترجمة و النشر، 2011، ص12

(2) - رولان اومينيس، فلسفة الكوانتم، ترجمة: أحمد فؤاد باشا، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، 2008، ص286

(3) - جيمس جينز، الفيزياء و الفلسفة، ترجمة: جعفر رجب، القاهرة: دار المعارف، دت، ص40

(4) - رولان اومينيس، فلسفة الكوانتم، ص250

يعرف بـ "مفارقة أينشتاين-بودولسكي-روزين" أو اختصاراً "EPR Paradox". فقد نشر العلماء الثلاثة ورقةً بحثية عام 1935، وضحوا فيها كيف يمكن أن نستفيد من التأثير عن بعد بين جسيمين لحساب سرعة أحدهما و موقع الثاني، فلطالما كرست نظرية الكم استحالة الجمع بين قيمتي السرعة و الموقع، لقد أثبتت التجارب أن الجسيمات تتواصل مع بعضها دون إشارات و تشارك في رداً الفعل مع أنهما بعيدان مكانياً، أي أن هناك نوعاً من التواصل المباشر بينهما، فلو قمنا مثلاً بالتأثير على لف جسيم بعيد عن جسيم آخر متشابك معه فإن الثاني يتغير لفه أيضاً، إن الجسيمات تتفاعل و كأنها تشغل موضع واحد مع أنها تفصل بينها مسافات كبيرة، و تبعاً لهذا سميت هذه الظاهرة باللاموضعية "nonlocality". ويعبر روجر بنروز عن هذه الظاهرة قائلاً: «تعتبر العلاقات الكمية شيئاً بالغ الغرابة، حيث إنها تكون في موضع ما بين جسيمين جرى الفصل بينهما ولا يزال كل منهما على صلة بالآخر»<sup>(1)</sup>.

تترتب على اللاموضعية عدة نتائج إزاء مفاهيم الزمان و المكان و السببية، فهذه الظاهرة لا تقيم أي اعتبار للزمان و المكان الذي نعرفه و نتعامل به، إنها تلغي أي فاصل مكاني أو زماني بين الجسيمات، إنها ظاهرة تضع مفهوم المكان و الزمان في وضع حرج، فعندما نرى تناغم جسيمات تفصلها مسافة بعيدة فإن هذا يشير إلى أن مفهوم المسافة فقد معناه، «تؤدي لاموضعية الأشياء إلى نوع من عدم إمكان فصل العالم، أي تؤدي إلى بعض الارتباطات بين ظواهر فيزيائية متباعدة جداً في الفضاء، مع أنها متأينة و متزامنة»<sup>(2)</sup>، إن هذه الظاهرة تبدو و كأنها لا تقيم أي اعتبار للمسافة الفاصلة ولا تحترم قواعد انتقال التأثير السببي التي تنص عليها نظرية النسبية، لكن في هذه الظواهر الكمومية اللاموضعية فإن التأثير الفوري يلغي أي حديث عن زمن و سرعة انتقال التأثير السببي، إن ظاهرة اللاموضعية يمكن أن تقودنا إلى أن نتفحص من جديد دلالة مبدأ السببية و إلى أن نعيد النظر في سرعة الضوء باعتبارها بارامتر سببي كما قررت النسبية، لقد رأى بعض الفيزيائيين أن روح نظرية النسبية «ينتهكها التعالق، لأن شيئاً ما أياً كان نوعه قد ينتقل فعلياً بسرعة أكبر من سرعة الضوء (في واقع الأمر بسرعة لانهائية) بين جسيمين متعالقين»<sup>(3)</sup>، إن هذه الظاهرة حسب بعض الفيزيائيين تستدعي التفكير في لغة زمكانية جديدة للتعامل معها، يقول بنروز «ستؤثر مراقبة احد الجسيمين في الآخر بطريقة لا محلية لا يمكن وصفها بلغة الزمكان العادية»<sup>(4)</sup>.

من النتائج التي يمكن أن تفرزها ظاهرة اللاموضعية هو إمكانية معرفة أحداث بعيدة عنا زمانياً، فإذا كان لدينا جسيمين متشابكان و تفصل بينهما مسافة هائلة و بالتالي فارق زمني كبير، و إذا افترضنا أن شخصاً يوجد عند احد الجسيمين، فإذا لاحظ تغيراً ما في هذا الجسم أي وقوع حدث معين، فإنه تبعاً للارتباط اللاموضعي يعلم ما يحدث للجسيم الآخر، أي يكون لديه معلومات عن ظاهرة مستقبلية بالنسبة إليه<sup>(5)</sup>، تتطلب زمناً معتبراً لكي تكون حاضراً بالنسبة إليه وفق قواعد الانتقال السببي.

لقد أجريت عدة تجارب للتأكد من هذه الظاهرة أشهرها تجارب "جون بل" و التي كشفت أن القياس المخبري للـ "spin" جسيمين متشابكين يبين أنهما مرتبطين إلى درجة تتخطى ما نتوقعه على أساس الفيزياء الماكروسكوبية، و لقد تلا هذا العديد من التجارب و تم رصد تعالق أو تشابك بين جسيمات تفصل بينها مسافات مختلفة، و قد حير العلماء أن اللف الذي يميز

(1)- روجر بنروز، ابنر شيموني، فيزياء العقل البشري و العالم من منظورين، ترجمة: عنان علي الشهاوي، ط2، أبوظبي، القاهرة: كلمة وكلمات عربية للترجمة و النشر، 2009، ص 13.

(2) - مجموعة من العلماء: الزمان و المكان اليوم، ترجمة: وائل الأتاسي، ط1، سوريا: دار الحصاد للطباعة و النشر، 2002، ص 74

(3) - أمير أكزيل، التعالق أكبر لغز في الفيزياء، ترجمة: عدنان علي الشهاوي، ط1، القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2008، ص 238

(4) - روجر بنروز، العقل و الحاسوب و قوانين الفيزياء، ص 521

(5) - رولان أومينيس، فلسفة الكوانتم، ص 290

إحدى الجسيمين مرتبط بشكل عجيب باللف الذي يميز الجسيم الآخر على الرغم من تباعد المسافة بينهما و ذلك دون أن تكون هناك آلية سببية واضحة مما تتيحه الفيزياء<sup>(1)</sup>، و قد عبر بعض الفيزيائيين عن هذا بالقول أنه تحدث ظواهر موضوعية مبنية على واقع غير موضوعي، و قد ذهب عدد من الفيزيائيين إلى الاعتقاد-رغم عدم وجود دليل- بأن هناك إشارات أنية تسير بأسرع من الضوء حيث ينتقل التأثير من جسيم إلى جسيم آخر بعيد عنه، و ذهب بعضهم إلى أن التأثيرات الخفية بين جسيمين قد يكون سببها نحن حيث يقوم وعي الإنسان الملاحظ بالتأثير على الظاهرة الميكروسكوبية، لكن هذه الرؤية لا تستند على نظرية جدية حول الوعي لمعرفة تأثيره على الجسيمات.<sup>(2)</sup>

اقترح الفيزيائي الأمريكي ديفيد بوهم D.Bohm (1917-1992) وجهة نظر مختلفة، و حاول من خلالها الحفاظ على نظرية النسبية و على آلية الانتقال السببي التي تتم وفقا لسرعة الضوء، لقد فسّر بوهم أن التعالق الموجود بين جسيمين بعيدين عن بعضهما يبدوا لنا غريبا كوننا ننظر إليهما من خلال الزمكان الذي نتعامل به، و قد يكون الأمر بكليته متعلقا بجسيم واحد لكن نشاهد من نافذتين مختلفتين في الزمكان، فالزمكان في المستويات دون الذرية قد يتركب من أكثر من أربعة أبعاد و بالتالي فالجسيم الذي يتواجد ضمن عدة أبعاد قد يظهر لنا في الزمكان الرباعي الأبعاد من نافذتين متباعدتين على انه جسيمين متعالقين، قدم بوهم مثلا: لو نقوم بتصوير السمكة الموجودة في حوض زجاجي بكامرتين من زاويتين مختلفتين، و لنفترض أن شخصا بعيد يشاهد حركة السمكة على شاشتين مختلفتين، عندها يمكن أن يعتقد أن هناك تناسق في الحركة بين سمكتين مثلما تناسق حركة أسراب السمك، و إما أنه سيعتقد أنه يشاهد سمكة واحدة من زاويتين، و ربما ما يحدث معنا في ظاهرة اللاموضعية أشبه بهذا<sup>(3)</sup>، لقد فسّر بوم ظاهرة اللاموضعية بإيجاد تأويل قائم على فكرة وحدة الوجود، حيث أن الكون ككل مرتبط في نسيج واحد و مشترك حيث ترتبط أجزاءه بعضها ببعض<sup>(4)</sup>، إن مسرح الحوادث الدقيقة يمتد بعيداً بما يفوق قدرة أجهزة العلم، فهناك في القاع العميق يتشارك الكل في نسيج هذا الكون، حيث أن هناك نظام مترابط "implicate order"، لقد اعتاد العقل البشري على أنماط الاتصال و الانفصال بين الأشياء و على إضفاء الرابط السببي، فنظر إلى الأشياء على أنها مركبة من أشياء أصغر فأصغر يمكن تفكيكها إلى وحدات صغيرة تبقى تخضع لنفس المنطق، و قد ظهرت بعض النظريات المعاصرة التي تشير إلى إمكانية وجود أبعاد مكانية إضافية في مقاييس ميكروسكوبية غاية في الصغر، و إن صح ما تقول به هذه النظريات قد يكون في هذا دعماً لكلام ديفيد بوم، من جهة أخرى يشير علماء الكوانتم أن العالم الميكروسكوبي ينطوي على عدة غرائب توحى بوجود تركيبية هندسية غريبة للمكان الميكروسكوبي، فمثلا عند تدوير الجسم العادي حول محوره بـ 360 درجة فإنه يعود إلى وضعه الأسبق، لكن هناك من الجسيمات دون الذرية من تتخذ خصائص فيزيائية مخالفة بعد تدويرها بـ 360 درجة و لإعادتها إلى حالتها الأولى يجب تدويرها بـ 360 درجة أخرى، و بتعبير آخر نقول أن هناك من الجسيمات من تستدعي تدويرا يساوي ضعف ما يستدعيه الجسم العادي، فكأن هذه الجسيمات ترى عالما أكبر مما نراه، أو قل إن الفضاء الذي نراه نحن يعتبر نسخة مطوية على نفسها من الفضاء الذي نراه هذه الجسيمات، فما يبدو لنا نسختين متطابقتين من العالم في كل تدوير بـ 360 درجة "نراه" هذه الجسيمات عالمن مختلفين، إن هندسة المكان مختلفة أساسا و غريبة عنا بالنسبة لهذه الجسيمات<sup>(5)</sup>.

(1) - المرجع نفسه، ص 292-293

(2) - Etienne Klein, *Petit voyage dans le monde des quanta*, paris; champs Flammarion, 2004, p158-159

(3) - David Bohm, *Wholeness and the implicate order*, 2 Edi, London and new York; Routledge, 2005, p237-238

(4) - Ibid, p186

(5) - بول ديفيز، جوليان براون، الأوتار الفائقة، ترجمة: أدهم السمان، ط 1، دمشق: دار طلاس للنشر، 1993، ص 28

من خلال ما سبق يتضح أن لثابت سرعة الضوء علاقة وطيدة بمفهوم السببية، بحيث يضبط ثابت سرعة الضوء حدود انتقال التأثير السببي للأحداث في الكون و يحدد فواصل الترتيب السببي للأحداث، و قد تبين أن الحديث عن سرعات تتجاوز عتبة سرعة الضوء يوقعنا في متناقضات، و مع تطور الفيزياء و التكنولوجيا بدأ الحديث عن مدى مصداقية ثابت سرعة الضوء، هل هو بالفعل عتبة للسرعات الكونية؟، خاصة و أنه ظهرت تجارب تشير إلى ما يمكن اعتباره تجاوزا لعتبة سرعة الضوء، و هذا ما فتح باب التساؤلات: هل يمكن أن تكون سرعة الضوء هي بالفعل السرعة القصوى في الكون، و كل التجارب التي توحي أنها تتجاوزها يمكن أنها اتخذت طرق مختصرة في الزمكان دون أن ندري؟، هل من الممكن أن يوجد بالفعل كيانات فيزيائية تتجاوز سرعة الضوء لكن لا يمكننا استغلالها فيزيائيا و لا تؤثر في مجرى الأحداث الفيزيائية و الترتيب السببي عندنا؟، قد يصح افتراض وجود عالم تكون فيه الحدود القصوى لانتشار التأثير السببي أكبر من سرعة الضوء دون أن تكون سرعة الانتشار أنية-أي بسرعة لانهاية- بحيث يمكن تصور أن ينتقل التأثير السببي بسرعة 500 ألف أو مليون كلم في الثانية أو أي قيمة محدودة للسرعة فإنها يمكن أن تمثل حدا لانتشار التأثير السببي و تفرض ترتيبا سببيا بفواصل معينة، لكن هذا الافتراض يصطدم بقوانين النسبية التي تنص على أن زمن أي جسم يخرق حاجز سرعة الضوء سوف يصبح معكوسا، أي أنه ينساب من المستقبل إلى الماضي و هذا يؤدي إلى انعكاس الترتيب السببي مما يوقعنا في مفارقات، فهل سنكتشف سرعات تفوق سرعة الضوء و نضطر إلى إعادة النظر في نظرية النسبية و بناء نظرية جديدة على ثوابت أخرى دون أن نقع في تناقضات منطقية فيما يخص الترتيب السببي؟.

#### قائمة المصادر والمراجع:

- 1- أكزيل، أمير: التعلق أكبر لغز في الفيزياء، ترجمة: عدنان علي الشهاوي، ط1، القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2008.
- 2- أومنيس، رولان: فلسفة الكوانتم، ترجمة: أحمد فؤاد باشا، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، 2008.
- 3- اينشتاين، ألبرت، انفلد، ليوبولد: تطور الأفكار في الفيزياء، ترجمة: أدهم السمان، سوريا: دار طلاس للنشر، 1992.
- 4- بسيلوس، ستانس: فلسفة العلم من الألف إلى الياء، ترجمة: صلاح عثمان، ط1، القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2018.
- 5- بنروز، روجر: العقل والحاسوب وقوانين الفيزياء، ترجمة: محمد وائل الأتاسي، بسام المعصراني، ط1، سوريا: دار طلاس للدراسات و النشر، 1998.
- 6- بنروز، روجر، شيموني، ابنز: فيزياء العقل البشري و العالم من منظورين، ترجمة: عنان علي الشهاوي، ط2، أبوظبي، القاهرة: كلمة وكلمات عربية للترجمة و النشر، 2009.
- 7- الجابري، محمد عابد: مدخل إلى فلسفة العلوم، ط4، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1998.
- 8- جينز، جيمس: الفيزياء و الفلسفة، ترجمة: جعفر رجب، القاهرة: دار المعارف، دت.
- 9- ديفيز، بول: العوالم الأخرى، ترجمة: حاتم النجدي، ط1، سوريا: دار طلاس للدراسات و النشر، 1994.
- 10- ديفيز، بول، براون، جوليان: الأوتار الفائقة، ترجمة: أدهم السمان، ط1، دمشق: دار طلاس للنشر، 1993.
- 11- راسل، برتراند: تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثالث، ترجمة: محمد فتحي الشنيطي، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1977.
- 12- رايشنيخ، هانز: نشأة الفلسفة العلمية، ترجمة: فؤاد زكرياء، القاهرة: دار الكتاب العربي، 1968.

13- كوديرك، بول: النسبية، ترجمة: مصطفى الرقي، ط1، بيروت: منشورات عويدات، 1971.

14- لالاند، أندريه: موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة: خليل أحمد خليل، ج1، ط1، بيروت: منشورات عويدات، 1996.

15- مجموعة من العلماء: الزمان والمكان اليوم، ترجمة: وائل الأتاسي، ط1، سوريا: دار الحصاد للطباعة والنشر، 2002.

16- موريس، ريتشارد: حافة العلم، عبور الحد من الفيزياء إلى الميتافيزيقا، ترجمة: مصطفى إبراهيم فهيم، أبو ظبي: منشورات المجمع الثقافي، 1994.

17- هايزنبرغ، فيرنر: الفيزياء والفلسفة، ترجمة: أحمد مستجير، ط1، القاهرة: المكتبة الأكاديمية، 1993.

18- هايزنبرغ، فيرنر: المبادئ الفيزيائية لنظرية الكم، ترجمة: محمد صبري عبد المطلب، انتصار حسن الشبكي، ط2، مصر والإمارات: كلمة و كلمات عربية للترجمة و النشر، 2011.

19- ولسن، كولن: فكرة الزمان عبر التاريخ، ترجمة: فؤاد كامل، الكويت: سلسلة علم المعرفة، 1992.

20- Bohm, David; **Wholeness and the implicate order**, 2 Edi, London and new York; Routledge, 2005.

21- Klein, Etienne; **Petit voyage dans le monde des quanta**, paris; champs Flammarion, 2004.

22- Nerlich, Graham; **What spacetime explain** , Cambridge university press, 1994.

23- Newton, Isaac; **Mathematical principles of natural philosophy**, tra; Bernard cohen and anne Whitman, USA; university of California press, 1999.

24- Reichenbach, Hanz; **The philosophy of space and time**, tra; maria Reichenbach, john freund, new York; dover publication, 1957 .

## السياسة البيئية الحضرية في الجزائر

Urban environmental policy in Algeria

د.بودية ليلى/جامعة تلمسان، الجزائر

ملخص :

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على التحديات الصعبة التي تواجهها البيئة و الاستراتيجيات الضرورية المناسبة لمعالجة هذا الوضع البيئي المتدهور من خلال انتهاج قوانين و سياسة بيئية حكيمة مناسبة تتماشى و الاهتمامات العالمية في مجال البيئة .

خلف الاستعمار وضعية بيئية متدهورة زاد من حدتها اعتماد الجزائر على التصنيع كركيزة أساسية للتنمية. فالرهانات و التحديات التي تواجه الجزائر وكذلك طبيعة المشاكل البيئية المتعرضة لها تبين بوضوح درجة التدهور الايكولوجي لاسيما فيما يخص رأس المال الطبيعي الذي بلغ مستوى من الخطورة من شأنها ان تعرض جزءا كبيرا من المكاسب الاقتصادية و الاجتماعية للخطر ، و لهذا قررت الدولة الجزائرية الاستثمار في التنمية المستدامة التي تمثل المبدأ الأساسي للإستراتيجية البيئية بانتهاجها سياسة بيئية هادفة من اجل معالجة التدهور البيئي و المحافظة على بيئة سليمة في جميع المجالات. وقد جاء هذا البحث كمحاولة لتسليط الضوء على السياسة البيئية و الوضع القانوني للبيئة في الجزائر .

الكلمات المفتاحية: السياسة البيئية- التربية البيئية- التدهور الايكولوجي - التنمية البيئية.

**Abstract :**

This study aims to clarify that the environment faces difficult challenges and that it is necessary to develop strategies adapted to this deterioration of the environmental situation by adopting judicious environmental laws and policies adapted to the situation and consistent with global concerns in the field of the environment. Especially since the environmental situation left by colonialism in Algeria has deteriorated in several areas, but the adoption of the sector by Algeria as a cornerstone of development has aggravated environmental problems. The challenges and challenges that Algeria faces as well as the nature of the environmental problems that are exposed to it clearly show the deterioration of the environment, particularly with respect to natural capital, which has reached the level of risk that would endangered much of the economic and social gains. The basic principle of the environmental strategy is to adopt a targeted environmental policy to combat environmental degradation and preserve the environment in all areas. This research tries to highlight the environmental policy and the legal status of the environment in Algeria.

**Keywords :** environmental policy - environmental education - environmental degradation- environmental development

## مقدمة :

تواجه البيئة تحديات صعبة في كل أنحاء العالم، وتعتبر السياسات المنتهجة من قبل هذه الدول الدعامة الأساسية في تحسين أحوال البيئة إذا ما أخذت الوجة الصحيحة التي تجعل البيئة محل اهتمام الجميع. حيث تتوحد الجهود العالمية لبلوغ هذا الهدف من خلال الهيئات المعتمدة لدى الأمم المتحدة التي توكل إليها وضع السياسات البيئية على الصعيد العالمي، والتي تسعى من خلالها للحفاظ على البيئة وحمايتها. وبهذا الصدد فقد عقدت ندوات وأبرمت العديد من الاتفاقيات في مناطق مختلفة من العالم و تلتزم أغلب الدول المشاركة في هيئة الأمم المتحدة بهذه الاتفاقيات وتعمل جاهدة للنهوض بالوضع البيئي في بلدانها. وبما أن الجزائر عضو في هيئة الأمم المتحدة، فهي تنتهج بدورها سياسة بيئية تتماشى مع وضعها البيئي. جاءت هذه الدراسة لتحليل أهم السياسات البيئية المنتهجة في الجزائر في جميع الميادين.

## أهداف البحث

يسعى هذا البحث إلى تحقيق الأهداف الآتية:

التعرف على السياسة البيئية في الجزائر.

التعرف على الهيئات المسؤولة على تنفيذ السياسة البيئية في الجزائر.

التعرف على الإمكانيات التي سخرتها الدولة الجزائرية لحماية البيئة.

## أهمية البحث

تتزامن هذه الدراسة مع الوضع البيئي الذي يشهده العالم والذي يعيش تدهورا و مشاكل بيئية شملت جميع الميادين، وعليه، يضع هذا البحث البيئة موضع بحث ودراسة علمية من خلال تناول موضوع السياسة البيئية التي تعتبر العنصر الأهم في حشد كل الطاقات المناسبة من أجل حماية البيئة والمحافظة عليها.

## السياسة البيئية الحضرية

تشكل الصحة العمومية السليمة ونوعية حياة المواطنين هدفا مركزيا للمخطط الوطني للبيئة والتنمية المستدامة. لقد قررت الحكومة العمل بإعادة تهيئة الترتيبات التشريعية بتدعيم تدريجي للطاقت المؤسساتية. وذلك بوضع برامج تكوين ملائمة وتطوير الجباية البترولية باعتماد برامج استثمارية هامة لبلوغ أهداف نوعية في نوعية التسيير واعداد استراتيجيات عملية سمحت ب:

- إعطاء نظرة حول مختلف مظاهر الإنجاز التدريجي و المنظم للبرنامج الوطني للتسيير المتكامل للنفايات البلدية بمناسبة الحوار الوطني حول جمع مختلف الدوائر الوزارية المعنية والجماعات المحلية و القطاع الخاص والبنوك و الحركة الجمعوية.

-تعريف شركاء الجزائر بالعناصر الأساسية للاستراتيجيات الجديدة وبرنامج عمل بمناسبة الندوة الدولية في الصندوق الذي عقدت بالجزائر يومي 5 و 6 ماي 2003.

وإطلاق معنى لمسار التعاون من شأنه بلوغ الأهداف النوعية المنوطة بالاستراتيجية. وتتكون هذه الاستراتيجية من عملية لإنجاز برنامج التسيير المتكامل للنفايات المنزلية من عدة مكونات وهي:

1- الجانب القانوني ويتضمن ترتيبات قانونية وتنظيمية لتحديد وتوضيح صلاحيات مسؤوليات الإدارة و بقية الشركاء في تسيير النفايات المنزلية.

- 2- الجانب المؤسسي وهم يتم بتنظيم تسيير النفايات في ما يخص البلديات وإدخال أشكال جديدة للتسيير المنتدب للخدمات.
  - 3- الجوانب المالية وهي عقلنة تكاليف الخدمة وتعزيز حسابات التسيير من أجل المتابعة والتحكم الآلي للخدمة وتجنيد موارد مالية ملائمة وكافية وتحصيل التكاليف.
  - 4- إجراءات تحفيزية تتمثل في إعداد ووضع ترتيبات تشجيعية لتحفيز الأنشطة المتعلقة بتسيير النفايات .
  - 5- جانب التربية البيئية ويتم من خلال التكوين المعمم لمتخذي القرار وبقية الفاعلين في التسيير المتكامل للنفايات واعلام وتوعية السكان للحصول على مشاركتهم.
- وقد سمحت الإصلاحات التي تم إدخالها على الاصعدة التشريعية و التنظيمية المؤسساتية بترقية التسيير المتكامل للنفايات البلدية.

لقد تمكن القانون 01/19 المؤرخ في 12 ديسمبر 2001- المتعلق بتسيير النفايات ومراقبتها والتخلص منها - من سد العجز القانوني الموجود، ويشكل هذا القانون إدارة تطير ملائم للتقدم في إنجاز برنامج متكامل لتسيير النفايات البلدية وتأكيد مسؤولية البلدية، ووضع مخطط صارم للتسيير في جميع البلديات، وإلزامية إقامة تجهيزات للمعالجة طبق المعايير العالمية، وفتح مندوبيات خدمة القطاع الخاص وإدخال مبدأ التلوث الدافع وتحصيل التكاليف، وإدخال آليات تحفيزية وتدعيم القوة العمومية وهي ترتيبات تسمح بتحسين نوعية الخدمة. في هذا المجال سعت وزارة البيئة الى محاربة التلوث حيث تم إنشاء عدة مراكز للردم التقني مما أدى إلى إزالة التلوث في العديد من المناطق، وإعادة تأهيل الأماكن التي كانت مخصصة للمفرغات العشوائية.

يعتبر المرسوم 372-02 - بتاريخ 11 نوفمبر 2002- المتعلق بإزالة نفايات التغليف انشاء نظام عمومي للاستعادة والرسكلة و الثمين يدعى ايكوجام محور اساسي في نسق السياسة الوطنية في ميدان الرسكلة وتتمين النفايات والتغليف .

وقد اعتمدت السياسة البيئية الحضرية في الجزائر على محاور أساسية تمثلت في مايلي

1- البرنامج الوطني للتسيير المتكامل للنفايات ومسعى يهدف الوصول الى مدن مستدامة من خلال :

-إعداد مخططات رئيسية لتسيير النفايات الصلبة البلدية .

-إنجاز مراكز للدفن التقني وفق القواعد المعمول بها.

-إعادة تأهيل مواقع المفرغات العمومية

-تدعيم وسائل جمع ونقل النفايات.

--ترقية أنشطة الفرز و الرسكلة و تثمين النفايات.

2-نفايات العلاج التي تمثل خطرا جسيما على البيئة عموما، وعلى صحة الإنسان خصوصا، وفي هذا الإطار تم إعداد مسح وطني سنة 2003 قامت به وزارة الإقليم و البيئة بتقدير إنتاج النفايات الناجمة عن أنشطة العلاج، حيث يقدر هذا الانتاج ب 9000 طن في السنة منها 8500 طن من نفايات معدية و 500 طن تمثل أخطارا كيميائية سامة، بالمقابل تم إحصاء 235 جهاز حرق منها 70 جهازا خارج الخدمة.

3- إلزامية التطهير و التصفية لحماية الموارد المائية وصحة السكان.

4- إنشاء شبكات لمراقبة نوعية الهواء في الوسط الحضري، سُميت: "سما صافية" دخل منها اثنان حيز الخدمة في كل من مدينة الجزائر العاصمة وعنابة منذ 2002.

5- تعميم المراقبة التقنية للسيارات، وتشجيع استعمال غاز البروتان المميع والغاز الطبيعي المضغوط باعتباره أقل تلوثا للبيئة.

6- تحسين المساحات الخضراء خاصة في الجنوب التي يعرف نقصا في هذه المساحات، حيث يمثل الجنوب 80 من المائة من مساحة الوطن، ولمواجهة هذه الوضعية المأسوية قامت وزارة التهيئة العمرانية و البيئة بأعمال من أجل تأهيل المساحات الخضراء المتدهورة، وتوسيع مساحتها وقد شرعت في إنجاز ثلاث حدائق في إطار برنامج صندوق الجنوب في كل من اليزي والجلفة والأغواط.<sup>1</sup>

### السياسة البيئية الصناعية

سمحت سياسة التشاور التي يعتمدها القطاع الصناعي بتحقيق توعية أكبر لدى المتعاملين الصناعيين بمشكلات البيئة، وضرورة الشروع في مشاريع ملموسة من أجل تقليص النفايات المترتبة على الأنشطة الصناعية مما استوجب القيام بعدة خطوات هامة منها:

### 1-دراسة الأثار على البيئة:

تعتبر دراسة الأثر من أهم الأدوات التي تمكن من تقليص حجم الضرر البيئي والتحكم فيه قدر الامكان. وقد اهتم المشرع الجزائري بحماية البيئة حيث نصت المادة 15 من القانون 03-10 على ضرورة الخضوع المسبق لدراسة التأثير- او لموجز التأثير على البيئة - لكل من: مشاريع التنمية والهيكل والمنشآت الثابتة والمصانع و الاعمال الاخرى وكل الاعمال وبرامج البناء والتهيئة التي تأثر بصفة مباشرة او غير مباشرة او لاحقا على البيئة لاسيما على الانواع والموارد والاطوار والفضاءات الطبيعية والتوازنات الايكولوجية وكذلك على الإطار والتنوعية المعيشية.

### 2- عقود النجاعة

تمثل عقود النجاعة إحدى الأدوات الهامة التي تسمح بتحديد الالتزامات في كل الإدارات في مجال حماية البيئة بين وزارة تهيئة الإقليم والبيئة والصناعيين، وتقوم الإدارة هنا بتحديد وسائل دعم ومساندة الصناع ومواكبتهم في تحقيق أهدافهم الاستراتيجية وتنفيذ مخططات مشاريعهم البيئية.

تم إبرام عقود نجاعة بيئية مع عدد من المؤسسات الصناعية خلال السنوات الاخيرة، و ترمي هذه العقود إلى ترقية إجراءات إدارية لمكافحة التلوث وحماية البيئة، في إطار شراكة فعالة بين وزارة تهيئة الإقليم والبيئة والمؤسسات الصناعية .

### 3- ميثاق المؤسسة

انضمت إلى ميثاق المؤسسة أكثر من 2635 مؤسسة صناعية، و يمثل هذا الميثاق السياسة البيئية الصناعية الجديدة، ويشكل مصبا أوليا مشتركا باتجاه دعم وتعزيز إدماج أبعاد التنمية المستدامة ضمن استراتيجية هذه المؤسسة.

وزارة تهيئة الإقليم والبيئة التقرير الوطني حولة حالة ومستقبل البيئة في الجزائر 2007 ص 385.<sup>1</sup>

#### 4- مندوب للبيئة في المؤسسة ذات المخاطر:

قامت 92 مؤسسة صناعية إلى حد الآن بتنصيب مندوب للبيئة تمثل مهمته في إعادة تصورات وتنفيذ مخطط لمكافحة التلوث داخل المؤسسة بشكل يسمح لها بالمطابقة مع مقتضيات حماية البيئة.

#### تنمية الطاقات المتجددة

يرتبط مفهوم الطاقات المتجددة بالتنمية المستدامة، حيث أن الطاقات المتجددة تعني ديمومة مصدر الطاقة وعدم نفاذه، وهي تلك الطاقات التي يتكرر وجودها في الطبيعة على نحو تلقائي ودوري؛ بمعنى أنها الطاقة المستمدة من الموارد الطبيعية التي تتجدد ولا يمكن ان تنفذ<sup>2</sup>.

لا يزال تطور الطاقات المتجددة في الجزائر محتشما رغم القدرات الموجودة، وذلك بغية التكفل بالحاجيات الطاقوية التي تتطلبها مقتضيات التنمية في القرى والأماكن البعيدة، والمناطق الجبلية والصحاري، وكذا الفلاحة خاصة ما تعلق باستخراج المياه. وقد سعت السياسة البيئية في الجزائر الى الاهتمام بالعديد من المبادرات التي أطلقت في هذا الاطار والتي تمثلت في: تجهيز 18 مقاطعة تقع في ولايات الجنوب (ادرار-البيزي-تمنراست-تندوف) و13 مقاطعة اخرى بالطاقة الشمسية. وكذلك دراسة توسيع الطاقة بواسطة المصاييح التيارية الريحية.

تجهيز عدة منشآت بترولية وغازية بالألواح الشمسية لتغطية الاحتياجات من الطاقة الضرورية لقياس المسافات، وخاصة الأبار بالشراكة مع "سونلغاز" و"الجزائرية للطاقات الجديدة" المكلفة بالمساهمة في تطوير الطاقات المتجددة في بلادنا.

لا يزال استهلاك الطاقة في الجزائر يعتمد اعتمادا كلياً على الطاقة التي مصدرها البترول و الغاز، وتبقى كل هذه المشاريع عبارة عن طموحات لم ترق الى الطموح العام بالاعتماد على الطاقات المتجددة، خاصة وأن الجزائر تتوفر على كل مقومات الطاقة المتجددة. فإتساع مساحتها وتعدد اقليمها منح لها إمكانية الاستفادة من الطاقة الشمسية على مدار السنة، خاصة في المنطقة الجنوبية التي تمثل مساحتها 80 من المائة من مساحة الوطن. كما ان امتداد الأراضي الجزائرية عبر دوائر خطوط العرض يمكنها من استغلال عدة شهور متماز بالرياح، لاستغلالها في توليد الطاقة النظيفة للعديد من الاستخدامات خاصة استخراج المياه.

#### برنامج حماية طبقة الأوزون:

تندمج الجزائر في جزء هام من السياسة البيئية العالمية خاصة في ما يتعلق بالاتجاهات البيئية العالمية، وتعتبر حماية طبقة الأوزون التزام دولي من خلال القضاء التدريجي على المواد المضرة بطبقة الأوزون وهذا من خلال مصادقة الجزائر على بروتوكول "مونترال" المتعلق بالمواد المضرة بطبقة الأوزون وتعديلاته المتتالية، و بناءً على هذه المصادقة، تكون الجزائر قد التزمت بعدم إنتاج المواد المضرة بطبقة الأوزون وتوقفت تدريجياً عن استهلاكها وفقاً لبرنامج معين، حيث تم منع إنتاج وتصدير المواد المنصوص عليها في بروتوكول "مونترال" منذ افريل 2002 حسب المرسوم التنفيذي رقم 73-2000 للفتاح افريل سنة 2000، الذي يمنع استيراد وتصدير المواد المضرة بطبقة الأوزون، وكمرحلة انتقالية في الجزائر فان استيراد هذه المواد يخضع لترخيص مسبق من قِبَل الوزارة المكلفة بالبيئة، وفي هذا الإطار قضت الجزائر على 1850 طن من غازات "الكلوروفيل الكربون"

أي ما يعادل 85 بالمائة من الكمية الإجمالية الواجب القضاء عليها. وهو ما يؤكد النهج السياسي الذي تتبعه الدولة في حماية طبقة الأوزون والانخراط في المسعى العالمي للحفاظ على البيئة.

### الاهتمام بالتغيرات المناخية

تعتبر الجزائر من خلال أقاليمها أكثر حساسية لتأثير التغيرات المناخية وللمخاطر المترتبة عنها، وللوقاية من خطر التغيرات المناخية بشكل عام سارعت الجزائر بتوقيع اتفاقية الأمم المتحدة بشأن التغيرات المناخية بمبادرات وأعمال كفيلة بمكافحة هذه التهديدات التي أصبحت محل انشغال متزايد بالنسبة للجزائر والمجتمع الدولي عموماً. وتصنف الجزائر -التي انضمت إلى الاتفاقية في افريل 2004- من بين الدول غير المعنية بتخفيض الغاز المسبب للاحتباس الحراري، غير أنها ملزمة بإعداد تقرير وطني حول التغيرات المناخية. أعدت الجزائر هذا التقرير بمساندة مالية من الصندوق العالمي للبيئة وبدعم تقني من برنامج الأمم المتحدة للتنمية بالجزائر قدمته لأول مرة عند الندوة السابعة لأطراف المنعقدة بمراكش المغربية في ديسمبر 2001.

### السياسة الوطنية في اطار حماية الساحل والبحر

يعتبر الساحل مجالاً رئيسياً لتهيئة التراب الوطني وتنميته، و يلخص إشكالية البيئة، حيث يشكل احتلاله ومعالجته الفوضوية تهديدات خطيرة على توازن الأنظمة البيئية الساحلية البرية والبحرية وديمومتها<sup>3</sup>.

رغم امتداد الساحل الجزائري على مسافة 1200 كلم إلا أن مساحة هذا الشريط لا يمثل سوى 7 بالمائة من مساحة الوطن. يقسم هذا الإقليم إلى 159 بلدية ساحلية يشمل جميع أراضي المدن الساحلية (الجزائر-وهران-عنابة).

يعود تدهور الساحل إلى أسباب مختلفة أهمها المواد السائلة والصلبة وتهديم شريط الكثبان الرملية و إتلاف الغابات والتعمير غير المراقب<sup>4</sup>.

كما ترتبت على تمركز المؤسسات الإنسانية - والأنشطة الاقتصادية في المناطق الساحلية الجزائرية - انعكاسات خطيرة على الوسط وموارده وخسائر معتبرة في العقار الفلاحي، و الانجراف الشاطئ وزيادة مستويات التلوث، ولمواجهة هذه الوضعية المؤسفة - من التدهور المستمر لهذه الفضاءات الاستراتيجية- اتخذت الدولة إجراءات لتغيير مسار هذا الاتجاه السلبي ووضع آليات من شأنها استخدام الساحل استخداماً تدريجياً ودائماً.

يعتبر القانون 02-02-المتعلق بحماية الساحل وتنميته- أداة ممتازة لتطبيق استراتيجية الحماية، وفي هذا الإطار شرعت وزارة التهيئة العمرانية والبيئة والسياحة في سلسلة من الأعمال الرامية إلى حماية وتثمين الساحل وموارده، و يتعلق الأمر بإعداد وتجسيد تهيئة الشاطئ العاصمي والوهراني والعنابي بالنسبة للولايات الساحلية الأربعة عشر التي تشكل أولوية بالموازاة مع عملية استثمارات فعلية شرع فيها برنامج الإنعاش الاقتصادي والبرنامج القطاعي للتنمية الذي يشمل الولايات الشاطئية كاملة .

### سياسة المحافظة على التنوع البيولوجي

تتطلب المحافظة على التنوع البيولوجي جهداً عالمياً من أجل استقرار نمط الحياة على كوكب الأرض " فاستمرار انقراض الانواع بمعدل أعلى بكثير من المعدلات التي مرت من الزمن و فقدان الموائل و التغيرات في توزيع الانواع ووفرتها هي ما استنتج توقعه

<sup>3</sup>المجلس الوطني الاقتصادي والاجتماعي.لجنة التهيئة العمرانية والبيئة.مشروع تقرير البيئة في الجزائر رهان التنمية.الدورة التاسعة.الجزائر.1997.ص.61.

<sup>4</sup>نفس المرجع السابق

طيلة هذا القرن. وهناك درجة عالية من الخطر بحدوث نقص جذري في التنوع البيولوجي مع ما يرافق ذلك من تدهور طائفة واسعة من خدمات النظم الايكولوجية<sup>5</sup>. إن خطر انكماش دائرة التنوع البيولوجي بفعل عدة عوامل اهمها التغيرات المناخية الى جانب سلوك الانسان العدواني على البيئة بفعل حرق الغابات و الصيد الجائر و الحروب و الاعتداء المتعمد على مواطن التنوع البيولوجي. وبما أن الجزائر ليست بمعزل عن هذه الاخطار ، فقد انتهجت سياسة بيئية في مجال التنوع البيولوجي تهدف الى حمايته من التدهور و المحافظة عليه. شرعت الجزائر منذ سنة 2000 في إعداد استراتيجيتها الوطنية للمحافظة و الاستعمال الدائم للتنوع البيولوجي، حيث ميزت مجالات التنوع البيولوجي في الجزائر بمعنى الموارد البيولوجية و الثروة الوراثية و الامن الاحيائي. وتشمل على الخصوص احصاء النباتات و الحيوان الجزائري وتدعيم شبكات المساحات المحية و التأسيس لبنك المعطيات حول التنوع البيولوجي .

### السياسة البيئية في اطار التوعية و التربية البيئية

هناك ثلاث وسائل رئيسية لحماية البيئة ووقايتها من أي خطر، أو معالجة ما أصابها من تهديدات وهي: العلم و القانون و التربية . يرى كثير من الباحثين في مجال البيئة أن دور التربية في حماية البيئة يسبق كثيرا دور العلم أو القانون؛ ذلك أن التربية هي التي تصنع الشخصيات الأفراد ليكونوا علماء، و هي التي تغير من سلوكياتهم لتقبل تعليمات القانون و الإصغاء لنصوه.

بعد مرور أكثر من ثلاثين سنة عن التوصيات التوجيهية لليونسكو- التي اعتمدت بمناسبة ميثاق بلغراد 1975 وندوة تبيلسي 1977- لم تتأكد ضرورة التربية البيئية في الواقع في كثير من البلدان. إن للمنظومة التربوية منطقا خاصا بها يجب احترامه ومع هذا فإنه ينبغي تنمية تعليم من شأنه مساعدة الشباب تدريجيا على أن يدركوا أن الإنسان قد اجتاز مرحلة حاسمة في علاقته مع الطبيعة في هذا الكوكب من أجل الحفاظ على الانسجام و التوازن. وإدراكا من وزارة التهيئة العمرانية والبيئية والسياحية للدور الهام الذي تلعبه التربية في الحفاظ على البيئة و حمايتها من خلال تكوين الوعي البيئي، تم إدماج البعد البيئي في المناهج التربوية .

كما كان للإعلام دور في التوعية البيئية ، حيث أصبح الإعلام البيئي جوهريا في كشف الحقائق، و تنمية الوعي البيئي، ويقصد بالإعلام البيئي استخدام كافة وسائل الإعلام المكتوبة و المسموعة و المرئية في توعية المواطنين بكافة المعلومات و الحقائق و الآراء عن القضايا البيئية و أسبابها و أبعادها و الحلول المقترحة لمعالجتها، ويكون الاتصال عن طريق الإعلام البيئي إما اتصالا شخصا؛ وهو الاتصال مباشر دون أي وسيط و يكون ذلك من خلال الزيارات المنزلية و اللقاءات و الندوات العامة التي تقوم بها الجمعيات و الأندية في الصفوف المدرسية، أو اتصالا جماهيريا، وهو النوع الثاني من الاتصالات، وهو عبارة عن استخدام قنوات الاتصال الحديثة كالكتب و الصحف و المجلات و الراديو و التلفزيون.

كما يلعب المسجد دورا في التوعية البيئية، لأن البعد البيئي في الثقافة الاسلامية يحث على الحفاظ على البيئة وحمايتها لأنها عبادة . كما يجعل من الحفاظ على البيئة وحمايتها عبادة في التصور الاسلامي.

خاتمة :

تتضح لنا - من خلال ما سبق ذكره- ملامح السياسة البيئية في الجزائر في بعدها الشمولي ، حيث شملت جميع نواحي الحياة المرتبطة بالبيئة، و سطرت لها برامج و أهداف واضحة آخذة بعين الاعتبار السياق الدولي العام، ووضعية البيئة في الجزائر وما

<sup>5</sup>التوقعات العالمية لتنوع البيولوجي (2007)، الاصدار الثالث، ص 71

يتهددها من أخطار مقترحة خطأ علاجية لأغلب المشاكل الحالية و التي كانت ثمارها واضحة في بعض المجالات المتعلقة بالمجال الصناعي على سبيل المثال.

### قائمة المراجع:

- 1- ابراهيم بن سليمان الاحدب، الانسان و البيئة مشكلات وحلول، مكتبة الملك فهد الوطنية، 2001، طبعة 1، الرياض .
- 2- أحمد رشيد ، نظرية الادارة العاملة، دار المعارف، 1987، القاهرة.
- 3- أحمد سيد البيلي ، المخاطر البيئية العالمية و الاوضاع البيئية العربية، دار الكتاب الحديث، 2009، طبعة الاولى ، القاهرة.
- 4- منظمة الدول المصدرة للبترو، التقرير السنوي الثالث والثلاثون لعدد 33، 2007 .
- 5- وزارة تهيئة الاقليم والبيئة التقرير الوطني حولة حالة ومستقبل البيئة في الجزائر 2007 .
- 6- المجلس الوطني الاقتصادي والاجتماعي، لجنة التهيئة العمرانية والبيئة، مشروع تقرير البيئة في الجزائر رهان التنمية. الدورة التاسعة، 2007 ، الجزائر.
- 7- التوقعات العالمية لتنوع البيولوجي ، الاصدار الثالث، 2007.

الزوايا المغربية في الفترة المعاصرة وعلاقتها بالدولة: زاوية الطريقة القادرية البودشيشية<sup>1</sup> أنموذجاً  
د. رشيد الاركو/ جامعة محمد الأول، وجدة، المغرب

Moroccan Zawiyas in the modern Moroccan context and their relationship with the state: Botchichya  
zawya as a case study

## ملخص:

قد حاولت في هذه المقالة أن أبين بعض الأسباب التي كانت من وراء هذا الحضور الزاوياتي والصوفي في هذه الفترة المعاصرة، وأن أبين كذلك أن الزاوية في الفترة المعاصرة—وخصوصاً بعد أحداث 11 ستمبر—تنكرت لبعض أسسها و منطلقاتها الأولى، ثم حاولت أن أتحدث عن الزاوية باعتبارها مساندة و موالية لإيديولوجية السلطة الغالبة، وانطلقت من فرضية مفادها أن الدولة أعادت استثمار وتوظيف المقدس الزاوياتي لأنه يخدم إستراتيجيتها الدينية الجديدة.

وقد انتظمت أفكار هذه المقالة عبر محورين و خاتمة:

- مكانة الزوايا-الزاوية البودشيشية خاصة- بالمغرب في الفترة المعاصرة.
- الدولة و الزاوية: الزاوية البودشيشية أنموذجاً
- خاتمة

الكلمات المفتاحية: الزاوية البودشيشية، الدولة المغربية، الإستراتيجية الدينية الجديدة، الفترة المعاصرة.

## Abstract :

I have endeavored in this article to exhibit some of the numerous motives behind the Zawya and sufi presence in the Moroccan modern period, after 9/11 events particularly by addressing its underlying foundations. Equally, This article aims at shading the light on the role of Zawya in supporting the ideology of the regime as an assumption that the Moroccan state has restored its investment on the spiritual dimension of the zawya to serve its religious and political interests. The paper covers two chapters: the first illustrates the role of Boutchichya zawya in the Moroccan contemporary history; the second chapter highlights the relationship between the Bouchichya zawya and the common political attitude of the state .

**Keywords:** Boutchichya Zawya, Moroccan state, The new religious strategy, Modern period.

<sup>1</sup> تنتسب الطريقة القادرية البودشيشية إلى الشيخ مولاي عبد القادر الجيلاني الذي ظهر في القرن الخامس الهجري. أما لقب البودشيشية، فقد اكتسبته بواسطة الشيخ سيدي علي بن محمد الذي حمل لقب (سيدي علي بودشيش) لكونه كان يطعم الناس (أيام المجاعة) طعام (الدشيشة) بزوايته، المصدر على الرابط الآتي:

تقديم:

شهد العالم في السنوات الأخيرة، أحداثا كثيرة، أسهمت بشكل من الأشكال في المكانة التي تحتلها الطرق الصوفية والزوايا الآن، ولعل من أبرز هذه الأحداث، واقعة 11 شتنبر 2001، و التفجيرات الإرهابية التي توالى بعد هذه الواقعة في العالم، والحراك العربي، و ظهور تنظيم داعش...، ففي ظل هذه الأحداث وأحداث أخرى كثيرة، تجددت توجهها عالميا بقيادة أمريكا والكيان الإسرائيلي يحثان على لسان مؤسساها<sup>1</sup>: التشبث بالتراث الصوفي، والعمل على إحياء رموزه؛ كإعادة بناء أضرحة الأولياء، و بذل الجهد والمال في سبيل أن تعمّ الصوفية العالم الإسلامي، وهذا كله من أجل هدف واحد يتمثل في محاصرة الجماعات الإسلامية المتبنية للجهاد فكريا وممارسة... و تحجيم<sup>2</sup> (الإسلام السياسي)<sup>3</sup> ذو النزعة الوهابية، يقول في هذا الصدد عبد الوهاب المسيري<sup>4</sup>: قد أوصت لجنة الكونغرس الخاصة بالحرية الدينية بأن تقوم الدول العربية بتشجيع الحركات الصوفية، فالزهد في الدنيا والانصراف عنها وعن عالم السياسة يضعف ولاشك صلابة مقاومة الاستعمار الغربي، ومن ثم فعداء الغرب للإسلام ليس عداءً في المطلق، وإنما هو عداء للإسلام المقاوم، ولأي شكل من أشكال المقاومة تصدى لمحاولة الغرب تحويل العالم إلى مادة استعمالية<sup>5</sup>. إذن فالطرق الصوفية وخاصة وجودها المادي المتمثل في الزاوية<sup>6</sup>، حظيت في الفترة المعاصرة باهتمام عالمي، ومن هنا نتساءل عن مكانتها على المستوى المحلي / المغرب؟

• في البدء،

المغرب هو الآخر لم يسلم من الهجمات الإرهابية الرعناء، كواقعة 16 ماي 2003 بالدار البيضاء، وتفجيرات 11 و14 مارس 2007 بالدار البيضاء، وواقعة أركانة سنة 2011... إلخ، وعلى إثر هذه الأحداث وأحداث أخرى، بالإضافة إلى تنامي قوة (الإسلام السياسي)<sup>7</sup> في المغرب، ستوظف الدولة التراث الصوفي ضمن ما يسمى بالسياسة الدينية الرسمية، التي رفعت له شعارا مفاده: "عقد الأثعري، ومذهب مالك، وتصوف الجنيد السالك" معلنة بذلك موقفها من الإسلام الحركي والسلفي. إذن فالطرق الصوفية والزوايا بالمغرب لها علاقة وطيدة بالدولة<sup>8</sup>.

مشكلة البحث:

ومن خلال ما قيل عن بعض السياقات التي جعلت توجهات الآخر (الدولة، والمؤسسات الدولية الأجنبية) ونظرتها للزوايا والطرق الصوفية تتغير لتغير مصالحهم، وأهدافهم، نتساءل هل الزوايا والفكر الصوفي هو الآخر في الفترة الراهنة تحول في نظرتهم للآخر والعالم ككل؟ وبعبارة أخرى هل تأثرت الزوايا و تفاعلت مع المستجدات الجديدة والطارئة التي شهدتها العالم

<sup>1</sup> مثل: مؤسسة راند الأمريكية، و هرتسليا الإسرائيلية.

<sup>2</sup> دور الصوفية في الإستراتيجية الدينية للمملكة المغربية، أنس الصنهاجي، مجلة الدراسات والبحوث الإنسانية الاجتماعية، العدد 15 مارس، ص 23.

<sup>3</sup> علي أنزولا، الصوفية ضد الإسلام السياسي لدى الأنظمة العربية.. صحيفة العربي الجديد. الجمعة 10 أكتوبر 2014.

<sup>4</sup> عبد الوهاب المسيري مفكر و عالم اجتماع مصري إسلامي، و هو مؤلف موسوعة اليهود و اليهودية و الصهيونية.

<sup>5</sup> الإسلام و الغرب، عبد الوهاب المسيري على الرابط الآتي:

<http://www.aljazeera.net/knowledgegate/opinions/2004/12/26/>الإسلام-والغرب

<sup>6</sup> نور الدين الزاهي، الزاوية والحزب: الإسلام والسياسة في المجتمع المغربي، إفريقيا الشرق المغرب، ط3، 2011، ص 6.

<sup>7</sup> أول من اخترع هذه العبارة -و هي عبارة متحيزة - هم أنصار التيار "اللائي"، في مصر الذين كانوا ينظرون إلى الحركات الإسلامية على أنها حركات "تستغل" الدين من أجل غايات "سياسية".

<sup>8</sup> سنفضل الحديث على هذا النقطة في المحور الثاني.

ككل والمغرب على الخصوص؟ ونتساءل أيضا في محور أخير عن نوعية العلاقة بين الدولة المغربية والزوايا والزوايا والبودشيشية على الخصوص في الفترة المعاصرة؟

● سأنتقل للإجابة عن هذه الأسئلة بحصرها أولا في مجال جغرافي محدد هو المغرب، و فترة زمنية ممتدة من العقد الأخير من القرن 20 إلى يومنا هذا في الألفية الثالثة، وقبل هذا وذاك حري بنا أن نعرف ما هو أصل الزاوية والطرق الصوفية والثابت فيها، لنستطيع الحكم عليها إما بالثبات أو بالتحول والتغير، لهذا سنقف أولا عند كلمة الزاوية في اللغة، ثم ننتقل بعد ذلك لنرى الحالة التي عليها الزاوية في واقعنا الحالي باعتبارها- عند مريديها- بناءً مقدسا للممارسات مقدسة، ثم بعد ذلك نحدد في المحور الأخير العلاقة الرابطة بين الدولة و الزاوية البودشيشية.

1. مكانة الزوايا-الزاوية البودشيشية خاصة- بالمغرب في الفترة المعاصرة.

#### ● الزاوية في اللغة:

إن الزوايا جمع زاوية، وهي مأخوذة من الجذر اللغوي (ز و ي) الذي من معانيه الانضمام والتجمع<sup>1</sup>، ومن معانيه أيضا الابتعاد والانعزال<sup>2</sup> و الركن و الانزواء والانطواء والبعد عن حياة العامة والسوق<sup>3</sup>، أما الزاوية في الاصطلاح فهي اسم لمكان منعزل عن الناس، يكون خاصا بالمتصوفة<sup>4</sup>، ينقطعون فيها للعبادة، وهي مكان لإيواء الواردين والمحتاجين وإطعامهم، وقد كان يطلق على الزاوية قديما اسم الرباط والرابطة، ويطلق عليها في المشرق اسم خانقاه<sup>5</sup>. ومن خلال هذه التعريفات وتعريفات أخرى مشابهة لها من حيث الدلالة، يتبين لنا أن الزاوية سواءً على مستواها اللفظي أو المفهومي، تنحو نحو انعزالها عن الآخر المتمثل في الناس، وفي ملذات الحياة، وكما هو معلوم فإن ثنائية الأنا و الآخر إذا طبقناها على مصطلح الزاوية في مستوى اللغة، يُظهر أن الزاوية والفكر الصوفي على العموم يجعل من هذه الثنائية أساسا لتضخيم الذات وتحقير الآخر المتمثل أساسا في الإنسان المنغمس في ملذات الحياة، وفي تحقير الملذات نفسها، وتوحي مصطلحات الزاوية/الركن / البعد/الابتعاد/الانعزال/الانزواء/الانطواء... ومصطلحات أخرى لها الدلالة نفسها في حدود مستوى اللغة عن ابتعادها عن المركز الذي يمثل قطب الحركة ومحور النشاط، وأساس التفكير و تفضيلها للهامش الذي يظل أبدا خارج المحور، وكما هو معلوم فتاريخ الزوايا في المغرب السمة الغالبة عليه هو الاضطراب مع أن المفترض أن يكون العكس أي الثبات، وهذا يجعلنا نسأل التاريخ ما معنى أن تسعى الزاوية / الهامش إلى احتلال موقع المركز التي انعزلت عنه بمحض إرادتها<sup>6</sup>.

#### ● بعض الأسس الكبرى للزوايا والطرق الصوفية

يستطيع القارئ لسير شيوخ الزوايا و مريديها و طرائقهم أن يتبين أن الأسس الكبرى التي انبنت عليها الطرق الصوفية والزوايا في العالم الإسلامي عامة وفي المغرب خاصة في ما مضى من الزمان تدور في فلك العوارض الآتية:

- العزلة.

<sup>1</sup> معجم مقاييس اللغة، لأحمد بين فارسى، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة النشر التوزيع، دمشق 1979 مادة (ز و ي) ج 3 ص 34.

<sup>2</sup> لسان العرب لابن منظور، دا صادر، بيروت، لبنان، ص 363.

<sup>3</sup> المرجع نفسه ص 363.

<sup>4</sup> الزاوية و ما فيها من البدع و الأعمال المنكرة، محمد الزمزمي، مطبعة أسبارطيل، 1999، ص 12.

<sup>5</sup> محمد حجي، الزاوية الدلالية و دورها الديني والعلمي والسياسي، مطبعة النجاح الجديدة، طبعة ثانية موسعة ومنفحة 1988، ص 23.

<sup>6</sup> عبد الكريم بوفرة، حرب القيم: قراءة في الخطاب الإعلامي الغربي، بعد أحداث 11 ستمبر، منشورات المجلس العلمي بوجدة، العمدة في الطبع، ط 1، 2003، ص 6 بتصرف.

- التجرد من العلائق.

- شدة التعب والتأمل.

- الارتباط بالمتصوفين خاصة.

- الاهتمام باللغة العربية، و تعليم علومها من نحو و صرف وبلاغة.

- الزهد في الحياة و ملذاتها.

- الاشتغال بالخالق، و الانشغال عن الخلق.

- تربية المريدين على تطهير النفس للوصول إلى طريق الله.

- إيواء و إطعام المحتاجين.

- التحكيم والوساطة و الشفاعة.

- التقشف والفقر.

- تفضيل القيم الروحية عن القيم المادية.

- طاعة المرید اللامشروطة لشيخ الزاوية أو الطريقة.

- تقديم العلم الباطن على العلم الظاهر.

- تربية المريدين على التضحية والجهاد من أجل نشر الإسلام والذود عن الوطن.

● حالة الزوايا - و الزاوية البودشيشية خاصة - في الفترة المعاصرة:

يخرج المتبع للزوايا في المغرب، بفكرة عامة مفادها أن الزوايا بالمغرب شهدت في السنوات الأخيرة وتشهد في الحاضر تحولا كبيرا في منطلقاتها وأسسها، وهذا التحول ينحو منحى تصاعديا، ومن أهم التحولات:

- تجد أن الزوايا في المغرب لم تعد أماكن للانزواء، ولم تعد في الهامش، وعلى التخوم، بل نجد بعض الزوايا في قلب المدن.

- تجد أن الزاوية تحولت إلى مؤسسة مدنية منفتحة على المجتمع سواء المحلي، أو العالمي، وهذا يعني أنا التصوف الذي كان أصله التجرد من العلائق<sup>1</sup> صار في الحاضر يهدف إلى تكثير العلائق.

- ونجد تفاعل الزوايا مع مستجدات العصر، ويظهر هذا جليا في استعمالها الأجهزة الإلكترونية (التلفاز، الميكرفون، الانترنت...).

- توافر الزوايا على مواقع إلكترونية، فمثلا الزاوية البودشيشية لها مواقع إلكترونية عديدة من بينها:

[www.boutchichiya.com](http://www.boutchichiya.com)

[www.atariqa.com](http://www.atariqa.com)

<sup>1</sup> محمد عابد الجابري، العقل الأخلاقي العربي: دراسة تحليلية نقدية للنظم القيم في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، مارس 2001، ص 445.

[www.adiosamaa.info](http://www.adiosamaa.info)

ولها مواقع في أمريكا من بينها:

[www.sidihamza.us](http://www.sidihamza.us)

[www.sufone.org](http://www.sufone.org)

وقد أصبح فقراء الطريقة البودشيشية في أمريكا يلجؤون إلى توظيف التكنولوجيا الحديثة (إيمسان) (MSN) و(السكايب) (SKYPE) والهواتف للاجتماع على الوظيفة و الأذكار، يقول عزيز إدريسي<sup>1</sup> في هذا الصدد: " وتوظيف مثل هذه الوسائل الحديثة للتواصل سيكون أسلوبا ناجعا في المستقبل للمم شمل كل فقراء الطريقة وتوحيدهم في اجتماعات ذكر كبرى لا يحول البعد الجغرافي دون تحققها<sup>2</sup>.

- نجد أن للزوايا مجلات و جرائد تعرف بالطرق الصوفية، و بتاريخ الزاوية، وبأهم أعلامها، وبأهم نشاطاتها، من مثل: جريدة نفحات الطريق<sup>3</sup> ومجلة عوارف<sup>4</sup>، ومجلة قوت القلوب<sup>5</sup>، ومجلة أنوار التصوف<sup>6</sup>... إلخ

- و نجد أن الزوايا في المغرب عقدت العديد من المؤتمرات والندوات والملتقيات المحلية والدولية، حول التصوف بالمغرب، و حول بعض أعلام التصوف ومن أهم هذه الملتقيات:

- الملتقى العالمي للتصوف التي تنظمه الزاوية القادرية البودشيشية بمداغ الذي هو في نسخته 12.

- الملتقى الدولي للتصوف بالعيون التي تنظمه جمعية الزاوية الدرقاوية الفاضلة و هو في نسخته 3.

- ونجد أن الزوايا تنظم حملات تحسيسية للتعريف بالأدوار المنوطة بها، وتنظم كذلك مخيمات صيفية للأطفال لترسيخ القيم الروحية.

- و يلاحظ على الزوايا ومكوناتها:

- قلة التعبد و التأمل.

- تحولها من مؤسسة للتدين الشعبي إلى مؤسسة رسمية خاضعة لسياسة الدولة في المجال الديني.

- توافر شيوخ الزوايا ومريديها على آخر أنواع السيارات، والهواتف، والمنازل الفاخرة بعبارة أخرى الانفتاح على طيبات وملذات الحياة، والبعد عن التقشف والزهد في الحياة.

- الغلو في العلاقة بين المريدين و الشيوخ.

<sup>1</sup> عزيز الكبيطي إدريسي، رئيس المركز الأكاديمي الدولي للدراسات الصوفية، و هو من المنتسبين إلى الطريقة القادرية البودشيشية.

<sup>2</sup> نفحات الطريق، جريدة أسبوعية، مقالة بعنوان: هذه قصة انتشار الطريقة القادرية البودشيشية بأمريكا، عزيز إدريسي، العدد 8، مارس 2012، ص 11.

<sup>3</sup> جريدة نفحات الطريق، تعد الجريدة الناطقة باسم الزاوية البودشيشية، المدير المسؤول لحسن السباعي الإدريسي، و هي جريدة أسبوعية.

<sup>4</sup> مجلة عوارف مجلة فكرية تعنى بالخطاب الصوفي، المدير المسؤول مصطفى اليملاحي 21.

<sup>5</sup> مجلة قوت القلوب، مجلة علمية محكمة تصدر مرتين في السنة تعنى بالشأن الصوفي الإسلامي، وهي تصدر عن مركز الإمام الجنيد للدراسات والبحوث الصوفية المتخصصة، مدير المجلة هو أحمد عبادي، وهو من المنتسبين للزاوية البودشيشية.

<sup>6</sup> مجلة أنوار التصوف مجلة دورية تعنى بالفكر الصوفي، كان يرأس تحريرها يوسف الكتاني.

- الاستقطاب الواسع لعدد هائل من المتعاطفين من داخل الوطن و خارجه وخاصة الشباب.
- أغلب مريدي الزوايا من الفئة الأمية، وحالتهم الاقتصادية فقيرة أو متوسطة.
- بعض الأغنياء، ينتسبون للزوايا فقط من أجل السياحة والاستجمام.
- المريدون ليسوا من طبقة واحدة فهناك طبقة قريبة من الشيخ، وهم ذو المناصب والوظائف.
- احتفاظ الزوايا بوظيفة الإيواء و الإطعام.

#### ● خلاصة:

يبدو أن الزوايا دخلت مرحلة جديدة في السنوات الأخيرة- ذكرنا بعض السياقات التي أدت إلى هذه النقلة- وهذه المرحلة الجديدة السمة الغالبة عليها هي الانفتاح، ومن أهم ما يؤكد هذه السمة التوصيات التي خرج بها الملتقى العالمي للتصوف في نسخته 8 الذي تعقدته الزاوية القادرية البودشيشية بمداغ<sup>1</sup> و التي كان أغلبها مصدرا بهذه الكلمة السحرية:

- الانفتاح على المؤسسات التعليمية والتربوية في المناسبات الدينية، وترسيخ القيم الروحية في النشء، مع إدراج حصص سلوكية تربوية في المقررات التعليمية على جميع المستويات.
- الانفتاح على الجامعة المغربية وتشجيع الطلبة على البحث في الخطاب الصوفي تاريخيا وفكريا ولغويا وأدبيا إسهاما في إحياء التراث الصوفي دراسة وتحقيقا.
- الانفتاح على مختلف الاتجاهات والروافد الفكرية والثقافية ومد جسور التعاون والتواصل والحوار البناء والفعال إيماننا من الزاوية بثقافة الاختلاف واحترام الآخر<sup>2</sup>.
- و قد قال لحسن السباعي الإدريسي- الناطق الرسمي للبودشيشية - في هذا الصدد: " فالصوفي ابن وقته، وهو بهذه الصفة متفتح على كل جديد، ما دام لا يخالف ثوابت الأمة،...و الزاوية فهي مستمرة في الاضطلاع بوظيفتها الأساسية، فإنها دائمة التفتح على كل جديد<sup>3</sup>.
- وقالت إحدى المنتسبات للزاوية البودشيشية<sup>4</sup> - ذات يوم: "أنا مسلمة سنية، مالكية المذهب، صوفية السلوك إسلامنا، كشأن غالبية مسلمي فرنسا إسلام منفتح، متسامح، ومنسجم مع تقاليد الجمهورية الفرنسية<sup>5</sup>.
- و هذا التحول الذي شهدته الطرق الصوفية والزوايا في المجتمعات العربية على العموم والمجتمع المغربي على الخصوص محكوم بنسبة كبيرة بعوامل سياسية نظرا لتمثله (للإسلام المسالم) الذي يحترم كل الأديان سماوية كانت أو وثنية.. ونظرا لمبادئه الداعية إلى اعتزال الأمور الدنيوية وفصل الدين عن السياسة، والانكباب على تهذيب النفس .. والاشتغال على المعاني

<sup>1</sup> مداغ هي بلدة مغربية تقع غرب مدينة بركان و تبعد عنها ب 9 كلم، و الزاوية البودشيشية مقرها في مداغ.

<sup>2</sup> خلاصات وتوصيات الملتقى العالمي للتصوف على الرابط الآتي: <http://www.boutchichiya.com>

<sup>3</sup> جريدة نفحات الطريق، العدد 13، أبريل 2012، عمود على الطريق، بعنوان الزوايا و الأحزاب، لحسن السباعي الإدريسي، ص 3.

<sup>4</sup> بريزة الخياري، الفرنسية من أصول جزائرية، نائبة رئيس مجلس الشيوخ الفرنسي.

<sup>5</sup> جريدة نفحات الطريق، العدد 13، أبريل 2012، ص 6.

والقيم الروحية، أي (إسلام تقليدي) بنفس حدثي يستطيع استيعاب قيم الحداثة والديمقراطية و مبادئ العلمانية...ويتناقض تماما مع المنهج الجهادي<sup>1</sup>.

## 2. الدولة والزوايا: الزاوية البودشيشية أنموذجا:

قال نور الدين الزاهي<sup>2</sup> سعي القرن التاسع عشر قرن الزاوية الدرقاوية، مثلما سعي القرن الثامن عشر قرن الزاوية الناصرية، وهذا الحكم مبني على فعالية كل زاوية في فترتها الزمنية ضمن الحقل الديني السياسي للمجتمع المغربي<sup>3</sup>، وعلى هذا تساءل عبد الرحيم العطري<sup>4</sup> قائلا: هل يمكن القول إن ما بعد واقعة السادس عشر من مايو 2003<sup>5</sup> يشير إلى بداية عهد الزاوية البودشيشية؟<sup>6</sup> وتساءل نحن بدورنا عن نوعية العلاقة بين الدولة المغربية المعاصرة والزوايا والزاوية البودشيشية على الخصوص في الفترة المعاصرة؟

و الجواب عن هذين السؤالين أعلاه سيمكننا من شيئين:

- تحديد العلاقة الرابطة بين الدولة والزاوية البودشيشية.
- تحديد مكانة الزوايا في المجتمع المغربي المعاصر.

بداية، إن إشكالية الدولة في علاقتها بالمجتمع و مؤسساته، من الإشكاليات المعقدة، التي يطرحها واقع البحث في التاريخ الاجتماعي والسياسي لأي بلد، وخصوصا إذ حضر في هذه الإشكالية العنصر الديني لما لهذا العنصر من قيمة خطيرة وحساسة عند عموم الناس، لهذا تميزت العلاقة بين الزوايا والسلطة أوالمخزن، عبر التاريخ المغربي بازدواجية الصراع والخضوع.

وقد اختلفت المقاربات و تعددت التصورات النظرية التي تناولت العلاقة بين الزاوية و المخزن، وحددت القواعد المنسوجة تاريخيا بين الطرفين<sup>7</sup>، ويمكن تلخيص هذه المقاربات في تصورين أساسيين:

تصور يفترض أن العلاقة بين الدولة والزوايا والطرق الصوفية عبر التاريخ كانت علاقة صراعية. معنى هذا أن الزوايا مؤسسة مناهضة للمخزن، وأن تاريخ المغرب هو تاريخ الصراع بين الزوايا والسلطة المركزية<sup>8</sup>.

<sup>1</sup> دور الصوفية في الإستراتيجية الدينية للمملكة المغربية، أنس الصنهاجي، مجلة الدراسات و البحوث الإنسانية الاجتماعية، العدد 15 مارس، ص 24.

<sup>2</sup> باحث و أكاديمي مغربي، حاصل على الدكتوراه في علم الاجتماع، نشر العديد من الدراسات و المؤلفات منها: المقدس الإسلامي (2005)، بركة السلطان (2008)، و الزاوية و الحزب (2011).

<sup>3</sup> نور الدين الزاهي، المقدس الإسلامي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 2005، ص 2.

<sup>4</sup> باحث في علم الاجتماع من المغرب، قاص و كاتب صحافي و أستاذ جامعي بكلية الآداب و العلوم الإنسانية، من مؤلفاته: دفاعا عن السوسولوجيا (2000)، صناعة النخب بالمغرب (2005)، الرحمة القبيلة بين المخزن و الزاوية (2003).

<sup>5</sup> كانت سلسلة من الهجمات المتزامنة بالأحزمة الناسفة وقعت في 16 ماي 2003، في مدينة الدار البيضاء، و كانت الهجمات أسوأ هجمة و أكثرها دموية في تاريخ البلد.

<sup>6</sup> مقالة مؤسسة الزوايا بين الروح والسياسي الزاوية الشراعية نموذجا، عبد الرحيم العطري، على الموقع الآتي:

<http://almesbar.net/3/awya.pdf>

<sup>7</sup> محمد ظريف، مؤسسة الزوايا بالمغرب، منشورات المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي 1992 ص 10

<sup>8</sup> نفسه ص 10.

وتصور آخر يفترض أن العلاقة بينهما كانت علاقة خضوعية، أي أن الزاوية لم يكن ممكناً لها أن تمارس مهامها لولا إرادة السلطان بعبارة أخرى وجود الزاوية رهين باعتراف السلطة المركزية بها<sup>1</sup>.

والحقيقة إن الحكم التعميمي أو الاختزالي للعلاقة بين السلطة والزاوية في التاريخ المغربي المتعاقب والممتد في بعد واحد إما صراعي أو خضوعي<sup>2</sup>، يعد في نظرنا مجازفة كبيرة، خاصة أن الزوايا متعددة، وعلاقتها بالسلطة المركزية مختلفة.

إذن النظرة الديكرونية (diachronique)<sup>3</sup> لعلاقة الزوايا بالسلطة في المغرب تفترض التصورين معا أي تفترض الصراع كما تفترض الخضوع والتعاون<sup>4</sup>، لكن النظرة السانكرونية<sup>5</sup> (Synchronique) لعلاقة زاوية ما في تاريخ ما مع السلطة سيكون لها افتراض واحد لكن هذا الافتراض يمكن أن يبقى قاراً مع مرور التاريخ أو يمكن أن يتغير. وبما أننا نبحث في علاقة الزاوية بالدولة في الفترة المعاصرة سنقتصر على المقاربة السانكرونية في تحديد علاقة الزاوية بالدولة في هذه الفترة؟ والافتراض الذي تنبني عليه المقالة هو أن الزوايا في الفترة المعاصرة مسيرة، و تابعة للدولة، وأيديولوجيتها هي إيديولوجية الدولة لا تحيد عنها قيد أنملة، وهي تنافح عنها بكل ما أوتيت من حول وقوة وعبارة أخرى جامعة هي أن الزاوية تمثل الدولة. ولتأكيد هذه الفرضية نقتصر على بيان علاقة الدولة بالزاوية البودشيشية.

من المعلوم أن بعض الزوايا دعمت المستعمر الفرنسي، وأسهمت في خلع السلطان محمد الخامس وتعويضه بابن عرفة، وعلى إثر هذه الأحداث، وأحداث أخرى نهجت الدولة سياسة تقضي وتفرض على الزوايا الانكفاء على مجالها الديني والانشغال به<sup>6</sup>، لهذا كانت الزوايا في الفترة الممتدة ما بين 1956م و1999م تعيش حياة التبعية والخضوع في الخفاء، و ظهورها المجتمعي كان شبه غائب مقارنة بما كانت عليه وبما هي عليه الآن، لكن ابتداء من أواخر القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين ثم بعث الزوايا والاهتمام بها في إطار إستراتيجية غرضها الأساس ضبط المجال الديني والسياسي<sup>7</sup> الذي يهدف إلى سد المنافذ عن التيار السلفي. وقد ثم إيلاء هذه المؤسسة المزيد من الرعاية إثر أحداث 11 شتنبر، الذي على إثرها دخلت الدولة المغربية في علاقة تنسيق وتعاون مع أمريكا على المستوى الأمني، وتبنيها هي الأخرى مفهوم الحرب على الإرهاب، وقد زاد الهاجس الأمني يعد تفجيرات 2003، وقبل هذه الفترة، وبالضبط في 7 من نونبر 2002 ثم تعين أحمد التوفيق<sup>8</sup> وزيراً للأوقاف والشؤون الإسلامية، و بناء على هذا فإن جعل أحد المنتسبين إلى زاوية ما على رأس هذه الوزارة فيه

<sup>1</sup> المرجع نفسه ص 11.

<sup>2</sup> انظر: بركة السلطان، نور الدين الزاهي، دفا تر وجهة نظر (12)، مطبعة النجاح الجديدة، 2008، الفصل الخاص بإسلام الزوايا والإسلام السياسي.

<sup>3</sup> النظرة الديكرونية تنظر للزوايا في تعاقبها التاريخي، أي في فترات متعددة، و اقتصرنا على تعريبها لاختلاف الباحثين في ترجمتها: فمنهم من يترجمها بالتعاقبية، و منهم من يترجمها بالزمانية، و منهم من يترجمها بالتاريخية، و منهم من يترجمها بالتنظورية.

<sup>4</sup> رحمة بورقية، العرف والعلماء والسلطة في القرن التاسع عشر، المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع، العدد السابع 1984، ص 50.

<sup>5</sup> النظرة السانكرونية تنظر للزوايا في فترة محددة، و هذا المصطلح هو الآخر له عدة ترجمات من بينها: السكونية، الوصفية، التزامنية، الأنية.

<sup>6</sup> شقير محمد، منطلقات السياسة الدينية الجديدة، 1 جريدة المساء 24 شتنبر، 2004.

<sup>7</sup> دور الصوفية في الإستراتيجية الدينية للمملكة المغربية، أنس الصنهاجي، مجلة الدراسات و البحوث الإنسانية الاجتماعية، العدد 15 مارس، ص 25.

<sup>8</sup> أحمد التوفيق وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية، منذ 2002، إلى الآن، باحث في التاريخ و التصوف.

دلالة واضحة على أن المغرب يراهن على التصوف الطريقي، وتنصيبه ما هو إلا آلية للدفاع عن خيارات السلطة السياسية وإضعاف التيارات لإسلامية الشاردة عن خط السلطة السائدة<sup>1</sup>.

وكما قلنا فالطريقة التي ينتسب إليها أحمد التوفيق هي الطريقة القادرية البودشيشية وهي أهم وأكبر زاوية بالمغرب في الفترة الحالية، لعدة معطيات، من أهمها العدد المهول من المريدين، سواء داخل المغرب، أو خارجه، واستقطابها مختلف الشرائح الاجتماعية: من وزراء، وأطباء، ومهندسين، وجامعيين، وطلبة، وفنانين، وعمال، وحرفيين، وتجار... وإشعاعها المحلي والعالمي المتمثلين في انتشار فروعها في أغلب المدن المغربية، وفي حضورها ميدانيا في الولايات المتحدة الأمريكية، و أندونيسيا، وفرنسا... و انفتاحها على الآخر وتقبله، بالإضافة إلى أن هذا الزاوية تؤمن (بالإسلام المعتدل والمنفتح) المبني على التقارب والتسامح والابتعاد عن الكراهية<sup>2</sup>.

و بالإضافة إلى ما قيل فالزاوية أو الطريقة الصوفية في العرف السوسولوجي تتوافر على رأس مال رمزي مهم، استمدته من ارتكائها إلى المقدس الديني، الذي حول لها أن تتسم كل سلوكياتها وأفعالها مهما كانت بالغطاء الديني، و معلوم في الثقافة العربية الإسلامية أن الأمور الدينية تلقى قبولا في الأوساط الشعبية، وهذا هو المدخل الذي جعل من الدولة تعيد بعث الزوايا و الاهتمام بها، واختيارها وزيرا مريدا من زاوية حاضرة بقوة بأتباعها و جمهورها العريض بالمغرب. فالدولة بنهجها هذا الفعل تريد أن توظف و تستثمر المقدس الزاوياتي و هذا ليس غريبا عن المستوى السياسي/السلطوي للدولة في المجتمع المغربي الذي حاول أن يوظف كل المستويات الأخرى<sup>3</sup> من أجل تدعيم وجوده، ولهذا فقد اعتمد على العنصر الديني بشكل أهم، فعلاقة السياسي بالديني تتميز بنوع من الجدلية فالسياسي يستمد مشروعيته من الديني<sup>4</sup>، والديني المتمثل في الزاوية يستمد مشروعيته من السياسي أي الدولة. لكن المسيطر في هذه الجدلية هي الدولة لتوافرها على ثلاثة أقاليم تحدد مسارها: هي الشرعية الدينية والشرعية السياسية، والشرعية الأمنية.

إذن فحضور الزاوية بهذا التصور في المجتمع رهين بإرادة السلطة السياسية، والسلطة السياسية هي التي تمنحها بل تفوض لها جزءا من مهامها و سلطاتها<sup>5</sup>.

لهذا فهي عبارة عن أداة تستخدمها الدولة للممارسة سلطتها في كثير من المناطق<sup>6</sup>، و عليه فالزاوية البودشيشية رغم انتشارها الواسع الذي يتعد في تمدده حدود الدولة المغربية، لكن سكونيتها ومولاتها للسلطة الغالبة، تجعل رؤيتها في الغالب الأعم لا تخرج عن تلك الرؤية أو الإيديولوجية التي تتبناها الدولة. وهذا ما اتضح بشكل جلي في أغلب تصريحات الزاوية البودشيشية.

<sup>1</sup> دور الصوفية في الإستراتيجية الدينية للمملكة المغربية، أنس الصنهاجي، مجلة الدراسات و البحوث الإنسانية الاجتماعية، العدد 15 مارس، ص 26.

<sup>2</sup> جريدة نفحات الطريق، العدد 11، 2012، ص 8.

<sup>3</sup> رحمة بورقية، العرف والعلماء والسلطة في القرن التاسع عشر، المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع، العدد السابع 1984 ص 173

<sup>4</sup> نفسه ص 173.

<sup>5</sup> Laroui A, Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain: 1830-1912, Centre Culturel Arabe. Casablanca 1993, نقلا عن الزوايا و الطرق الصوفية في المغرب: من خدمة المخزن وتكريس شرعيته، إلى مسالمة المستعمر ومهادنته مجلة الدراسات والبحوث. 143. p143 الاجتماعية، العدد 11 مارس 2013 ص 59.

<sup>6</sup> المرجع نفسه ص 59.

ولعل أبرز مثال يظهر تعاطي الطريقة القادرية البودشيشية، مع الدولة بالمغرب، و موالتها له، تصريح شيخها بموقفه من الدستور المعدل، ودعوته بالتصويت بنعم عليه، والنزول المكثف لمريدي الطريقة البودشيشية حوالي 300 ألف شخص كما ذكرت وكالة المغرب للأنباء، في ساحات الدار البيضاء مرددين شعار: الطريقة البودشيشية تدعو عموم الشعب المغربي إلى التصويت بنعم على الدستور<sup>1</sup>. وعلى إثر هذه الأحداث وأحداث أخرى كثرت الانتقادات الموجهة للزاوية البودشيشية في طبيعة علاقتها مع الدولة، وموقعها في خلق التوازنات على مستوى الخريطة السياسية بالمغرب<sup>2</sup>، خاصة تجاه جماعات (الإسلام السياسي)، كجماعة العدل والإحسان. رغم أن كل مكونات الطريقة البودشيشية ينفون تعاطيهم لكل ما هو سياسي، وتشبههم بكل ما هو روجي تريوي<sup>3</sup>.

ويرى في هذا الصدد محمد ظريف أن "كل الزوايا الفاعلة على غرار البودشيشية لها بعد سياسي واضح، بغض النظر عن العمل السياسي الضيق، المرتبط بالتعبير عن مواقف حزبية أو سياسية ضيقة<sup>4</sup>.

و اعتبر ظريف أيضا أن «العديد من الندوات التي نظمتها الطريقة هي ندوات تناقش قضايا ذات ارتباط بالشأن السياسي العام، مثل مناقشة علاقة التصوف بالحدثة<sup>5</sup>.

و بالإضافة إلى ما قيل، فالمتصفح للجريدة الناطقة باسم الزاوية الذي يحررها لحسن السباعي، يرى بوضوح توجه الطريقة المتمثل في المساندة الرسمية لكل استراتيجيات الدولة، فأغلب أعداد الجريدة، تتحدث عن ما هو سياسي، من مثل قضية الصحراء، وقضية الدستور، وقضية الحرب على الإرهاب، و رأي الزاوية هو نفسه رأي الدولة لا تحيد عنه قيد أنملة، و بناء على هذا فالدولة تمثي في خطى اعتبار نفسها المنتج الوحيد للايدولوجيا<sup>6</sup>، والمؤسسات التابعة لها لا تخرج عن الإطار الإيديولوجي التي تحدده الدولة، و الزاوية باعتبارها راعية للثنائية الشيخ والمريد فهي تمثل هذه التالية أحسن تمثيل مع الدولة، و تصير بذلك الزاوية البودشيشية كالميت في يد غساله (الدولة).

#### • نتائج:

و قد خلصت هذه الدراسة المتواضعة إلى نتائج نحسبها فرشا أوليا للبحوث المستقبلية المتعمقة في هذا المجال، و سنسردها في أربع عوارض كبرى:

- التراث الصوفي تراث غني جدا، لكن تم توظيفه في الفترة المعاصرة بشكل اختزالي بمعنى توظيف صوفية الدراويش و الترويج لها سياسيا و إعلاميا و إقصاء التصوف المعرفي و التصوف الاجتماعي<sup>7</sup>.

<sup>1</sup> <http://www.hespress.com/regions/33489.html>

<sup>2</sup> <http://www.maghress.com/almassae/204088>

<sup>3</sup> جريدة نفحات الطريق، العدد 13، 2012.

<sup>4</sup> <http://www.maghress.com/almassae/204088>

<sup>5</sup> المصدر نفسه.

<sup>6</sup> عبد الله حمودي، الشيخ والمريد: النسق الثقافي للسلطة في المجتمعات العربية الحديثة، ترجمة عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط4، 2010 ص 241.

<sup>7</sup> التصوف حركة اجتماعية فكرية محكومة بخصوصياتها التي تضمنت تمثلا لخط المعارضة في التراث الإسلامي، إذ أن هذه الحركة ذات وجهين متداخلين هما الفكر والنضال الاجتماعي، و يطلق على هذه الحركة مصطلح التصوف القطباني الذي يقسمه بعض الباحثين إلى شعبتين: التصوف الاجتماعي و التصوف المعرفي، و يقصد بالتصوف المعرفي نمطا فكريا يتجه للبحث عن الحقائق المبحوث عنها في الفلسفة بمنهاج صوفي، و نموذج هذا الصنف من التصوف هو محي الدين ابن العربي، و في المقابل فالتصوف الاجتماعي يستقل اجتماعيا و سياسيا و ينتظم هذا الخط

- الزوايا بالمغرب شهدت في السنوات الأخيرة تحولا كبيرا في منطلقاتها وأسسها، وهذا التحول ينحو منحى تصاعديا، وهو في الوقت ذاته محكوم بنسبة كبيرة بعوامل سياسية نظرا لتمثله (للإسلام المسالم) ونظرا لمبادئه الداعية إلى اعتزال الأمور الدنيوية وفصل الدين عن السياسة، والانكباب على تهذيب النفس .. والاشتغال على المعاني والقيم الروحية، أي (إسلام تقليدي) بنفس حدثي يستطيع استيعاب قيم الحداثة والديمقراطية و مبادئ العلمانية... ويتناقض تماما مع المنهج الجهادي، وهذا التحول أدخلها مرحلة جديدة سمّتها الغالبة هي الانفتاح.

- الزوايا في الفترة المعاصرة مسيرة، و تابعة للدولة، وأيديولوجيتها هي إيديولوجية الدولة لا تحيد عنها قيد أنملة، وهي تنافح عنها بكل ما أوتيت من حول وقوة وبعبارة أخرى جامعة هي أن الزاوية تمثل الدولة.

- الزاوية تتوافر على رأس مال رمزي مهم، استمدته من ارتكانها إلى المقدس الديني، وهذا هو المدخل الذي جعل من الدولة تعيد بعث الزوايا و الاهتمام بها، فالدولة بنهجها هذا الفعل تريد أن توظف و تستثمر المقدس الزاوياتي.

#### ● الخاتمة:

و لا يسعنا في الأخير إلا القول إن لغة المصالح المشتركة، هي التي حددت مكانة الزوايا في الفترة المعاصرة، وفرضت على الأطراف الوضعية الحالية لكل منهما، فهذه اللغة هي التي وطدت العلاقة بين الزاوية البودشيشية والدولة، وعليه ففي اللحظة التي تتعارض فيها المصالح سيكون لا محالة الرفض والتهميش عنوانا لعلاقة الزاوية بالدولة، بل إن هذا الرفض سيكون مسنودا بالمقدس مرة أخرى، عن طريق آلية الإفتاء التي تعتبر المد الزاوياتي، بدعة وانحرافا عن تعاليم الإسلام.<sup>1</sup>

#### قائمة المراجع:

- رحمة بورقية، العرف والعلماء والسلطة في القرن التاسع عشر، المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع، العدد السابع 1984.
- الزمزمي محمد، الزاوية و ما فيها من البدع والأعمال المنكرة، مطبعة أسبارطيل، 1999.
- حمد حجي، الزاوية الدلالية و دورها الديني والعلمي والسياسي، مطبعة النجاح الجديدة، طبعة ثانية موسعة ومنقحة 1988.
- سليم حميمات، سيرة الحركات الإسلامية في 2005، كراسات إستراتيجية، منشورات وجهة نظر، مطبعة النجاح الجديدة.
- عبد الكريم بوفرة، حرب القيم: قراءة في الخطاب الإعلامي الغربي، بعد أحداث 11 شتنبر، منشورات المجلس العلمي بوجدة، العمدة في الطبع، ط 1، 2003.
- عبد الله حمودي، الشيخ والمريد: النسق الثقافي للسلطة في المجتمعات العربية الحديثة، ترجمة عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط 4، 2010.
- محمد عابد الجابري، العقل الأخلاقي العربي: دراسة تحليلية نقدية للنظم القيم في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط 1، مارس 2001.

العديد من المتصوفين بدءا من إبراهيم بن الأدهم في القرن الثاني للهجرة، مرورا بالبسطامي والحلاج و عبد القادر الجيلالي، بالإضافة إلى رموز صوفية أخرى مثل: بشر الحافي-سهل التستري-شقيق البلخي-شعيب أبو مدين-معروف الكرخي-و ابن سبعين. أما صوفية الدروشة فهي التي تتركز في الزاوية و تعيد إحياء الأضرحة، لتترك بها ...

<sup>1</sup> مؤسسة الزوايا بين الروح والسياسي الزاوية الشراعية نموذجا، عبد الرحيم العطري، ص 7 بتصرف.

- محمد ظريف، مؤسسة الزوايا بالمغرب، منشورات المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي 1992.
- نور الدين الزاهي، المقدس الإسلامي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 2005.
- نور الدين الزاهي، بركة السلطان، دفاتر وجهة نظر (12)، مطبعة النجاح الجديدة 2008.
- نور الدين الزاهي، الزاوية والحزب: الإسلام والسياسة في المجتمع المغربي، إفريقيا الشرق المغرب، ط3، 2011.
- أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق 1979.
- ابن منظور لسان العرب، دار صادر، ج 14 بيروت، لبنان، 2000.
- أنس الصنهاجي، دور الصوفية في الإستراتيجية الدينية الجديدة للمملكة المغربية، مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية العدد 15 مارس 2016.
- حجاج محمد الزوايا، و المجتمع والسلطة بالمغرب (مقاربة سوسيو-أنثروبولوجية)، فكر ونقده السنة العاشرة، عدد 94 يناير 2008.
- قاسم الحادك، الزوايا والطرق الصوفية في المغرب: من خدمة المخزن وتكريس شرعيته، إلى مسالمة المستعمر ومهادنته مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية، العدد 11 مارس 2013.
- نفحات الطريق جريدة أسبوعية، العدد 8، 1 مارس 2012.
- جريدة نفحات الطريق العدد 13 أبريل 2012.
- شقير محمد، منطلقات السياسة الدينية الجديدة، 1 جريدة المساء 24 شتنبر، 2004.
- علي أنزولا، الصوفية ضد الإسلام السياسي لدى الأنظمة العربية.. صحيفة العربي الجديد. الجمعة 10 أكتوبر 2014.
- الزوايا في المغرب.. من مصدر مشروعية في الداخل إلى أداة للصراع الإقليمي، إدريس الكنبوري، نشر في المساء يوم 20 - 01 - 2014، على الرابط الآتي: <http://www.maghress.com/almassae/204088>
- لاماب: 300 ألف مشارك في مسيرة الطريقة البودشيشية، هسبريس - و م ع الأحد 26 يونيو 2011 - 18:26، على الرابط الآتي: <http://www.hespress.com/regions/33489.html>
- نداء الشيخ سيدي حمزة بن العباس، على الموقع الإلكتروني الآتي: [www.tariqaa.org](http://www.tariqaa.org)
- مقالة مؤسسة الزوايا بين الروح والسياسي الزاوية الشراعية نموذجاً، عبد الرحيم العطري، على الموقع الآتي: <http://almesbar.net/3/awya.pdf>
- الإسلام و الغرب، عبد الوهاب المسيري على الرابط الآتي: <http://www.aljazeera.net/knowledgegate/opinions/2004/12/26/>
- خلاصات وتوصيات الملتقى العالمي للتصوف على الرابط الآتي: <http://www.boutchichiya.com>
- التعريف بالطريقة القادرية البودشيشية، على الرابط الآتي: <http://www.islamic-sufism.net/article.php?id=72>
- Laroui A, Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain: 1830-1912, Centre Culturel Arabe. Casablanca 1993







جميع الحقوق محفوظة

لمركز جيل البحث العلمي © 2019